المركز القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة

أحلام وقمامة القاهرة

تأليف: فوزية أسعد

ترجمة: ديما شعيب الحسينى



1184

أحلام وقمامة القاهرة

(رواية)

المركز القومى للترجمة
المشروع القومى للترجمة
إشراف: جابر عصفور

سلسلة : الإبداع القصصى
المشرف على السلسلة : خيرى دومة
ـ العدد : ١١٨٤
- أحلام وقمامة القاهرة
- فوزية أسعد
- ديما شعيب الحسينى
- الطبعة الأولى ٢٠٠٨

هذه ترجمة رواية
Ahlam et Les Eboueurs du Caire
(Roman)
De: Fawzia Assaad

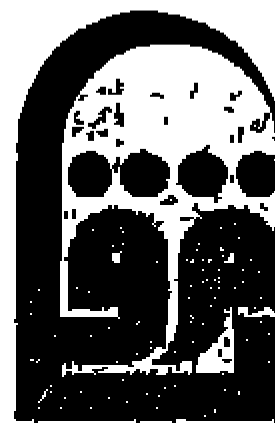
شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
EL Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo
E-mail: egyptcouncil@yahoo.comTel: 27354524-27354526 Fax: 27354554

أحلام وقمامة القاهرة

(رواية)

تأليف : فـوزيـة أسـعـد

ترجمة : ديما شعيب الحسينى



٢٠٠٨

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

أسعد ، فوزية
أحلام وقمامة القاهرة / تأليف: فوزية أسعد ، ترجمة:
ديما شعيب الحسينى
ط ١ – القاهرة : المركز القومى للترجمة، ٢٠٠٨
٣٥٦ ص ، ٢٠ سم
١ – القصص العربية
٢ – القصص الاجتماعية
(أ) الحسينى ، ديما شعيب (مترجم)
(ب) السلسلة
(جـ) العنوان ٨١٣

رقم الإيداع 20173 / ٢٠٠٨
الترقيم الدولى : I.S.B.N - 977- 437 - 552 -1
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

تقديم

هل يعتبر هذا العمل رواية أم بحثًا اجتماعيًا أم أنثروبولوجيًا أم تاريخيًا أم مزيجًا من كل هذا ؟ وجده الناشر الفرنسى عملاً أدبيًا ولقبه رواية، وإن كان هذا الاختيار يبدو تعسفيًا، بل عكسه أيضًا . لا جرم أن تركيب الكلمات يشوه رؤية الواقع؛ فيصبح الواقع مجرد قصة .

هناك قصة "أحلام" بطلة الرواية، شخصية تمثل كل بنات الفقر المدمر. وقصة زوجها سمير الذى يعانى مصير الكثير من أولاد الزبَّالين. أعتذر لمن تصوَّرت أنها أحلام، ولمن تصوَّر أنه سمير؛ إذ إن هذا التصور خاطئ. ما أكثر البنات اللائى يكنَّ نموذجًا يسمى أحلامًا. ما أكثر الرجال الذين كوَّنوا هذا السمير المصاب بالربو المهدد بالبطالة والفقر!

أراد بعض الزبالين أن يسموا بأسمائهم الحقيقية؛ مما جعلنى أنسب هذا الغرض إلى ما يطلبه الموتى القدماء من الأحياء "إذا مررت أمام مقبرتي؛ انطق باسمى" ؛ فالعقيدة المستترة وراء هذا الغرض هى أن الاسم يحوى حياة المسمى. يقول العرب "عاشت الأسامى" . أحببت أسامى ومسميَّاتها، وأردت أن تعيش .

أتوا من "دير تاسا" ومن "البدارى" قريتين من صعيد أسيوط، ترمزان إلى أقدم الحضارات المصرية، التاسية والبدارية، ولا يعلمون

بهذا، ولا يعلمون أن سمات وجوههم تشبه الصور المنحوتة فـــى الحجــر، وأن تقاليدهم توحى بمكانة فى الأزمنة الماضية .

عانت أحلام مثل جميع بنات جيلها عمليـــة الختـــان، وعنـــدما أصبحت أُمًّا لبناتٍ أبت بشدة – مثل الكثير من أمهـــات عهـــدها – أن تفرض هذه الجراحة البربرية على بناتها . كان هذا نتيجـــة لمعركـــة طويلة بدأتها العالمة الأنثروبولوجية مارى أسعد منذ خمسينيات القـــرن الماضى، عمل يومى صبور طـــال نـــصف قـــرن. تـــسرى الكلمـــة بخصوص مخاطر الختان من بيت إلى بيت، ومن حـــى إلـــى حـــى، تتحدث الشائعة عن مخاطر الختان، تتكاثر المتطوعـــات لنـــشر هـــذا التحذير، ثم ما لبث أن تحولت، فى يوم ما، هذه الكلمـــات المـــشوشة إلى صراخ حاد . هذا يوم من أيام كفر المنشى أبو حمار، توفيت بنت فى الثالثة عشرة من عمرها نتيجة لختانهـــا؛ فاســـتيقظت الحكومـــة، وأعادت صياغة قانون عام 1996م، وأضافت إليـــه عقوبـــات لمـــن يمارس هذه الجراحة، وتبنى المجلس الأعلى للطفولة والأمومـــة هـــذا الصراع، وصرَّح المفتى على جمعة بأن الختان "حـــرام"، وأشـــاعت جرائد وإذاعات العالم بأكمله هذه الثورة، وصرَّحت جريدة "نيويـــورك تايمز"، وتلتها "هيرالد تربيون" بكلمة لمارى أسعد تقول فيها : "لـــم أفكـــر أننى كنت سأعيش لأشهد هذا اليوم" .

هذا جزء من برنامج أوسع نطاقًا بدأ أيضًا فى خمسينيات القرن الماضى، برنامج لتنمية المجتمـــع، أساســـه تمكـــين بنـــات الزبـــالين

وتنويرهن من خلال الدراسة، والعمل، وكسب النقود. هذا حتى يتحررن من السلطة الأبوية، وليعملن، وليبدعن، وليجعلن من المجتمع مجتمعًا جديدًا.

نصف قرن بعد إجراء هذا البرنامج تقول لويز أربور، المفوَّضة العامة لحقوق الإنسان : "إن الشرط الأساسى للحصول على التنمية هو تمكين المرأة ؛ فتمكين المرأة له الأولوية فى برنامجها. هذا ما حدث فى مجتمع زبَّالى القاهرة. جعلوا من زبالة الأغنياء مصدر ثراء للفقراء، ومن الفقر المدقع مجتمعًا رأسماليًّا يبدع فى عمليات إعادة تطوير الزبالة ومشروعات تخص حماية البيئة. هذا بمساهمة المرأة الجديدة" . هل كانت لويز أربور ضمن كبار الزوار ممن تمتعوا بزيارة هذا المجتمع الذى حقق تطوره ؟

وهناك السؤال : لِمَ لمْ تُسهم الوزارات والمجالس العليا للتنمية وللحفاظ على البيئة لتجعل من النجاح الباهر نجاحًا أكثر إبهارًا . ***لماذا؟*** هل "عقدة الخواجة" هى التى جعلت المنظمات تدعو الشركات الأجنبية للتصرف فى مال الفقراء ؟

سؤال فى انتظار جواب السنين

فوزية أسعد

هل الحقيقة أكثر رومانسية من الخيال؟

لقد اختارت جميع الشخصيات التى تظهر مع أحلام وزوجها أن تظهر بأسمائها الحقيقية. ليغفر لى هؤلاء إن كان خيال الكلمات قد غيَّر من حقيقتهم.

لقد اعتادت الأخت إيمانويل الأسئلة العفوية سواء أكانت ساذجة أم ذكية ؛ فهى لا تُلقى بالاً لذلك، بل لعلها، شأنها شأن كبار الفلاسفة، ترى أن الأسئلة الساذجة دائمًا ما تكون هى الأفضل. عندما حازت الأخت إيمانويل على جائزة جراند سييكل[1] للوران بيرييه لعام 2002م فى جناح جابرييل فى باريس، كانت آنذاك تهتم بصنع الشامبانيا. لقد تذوقت تخميرة جراند سييكل[2] فى قصر لوفوا[3] الذى يُعد بمثابة منطقة نفوذ لوران بيرييه؛ حيث كانت بصحبة مدير المخازن آلان تيرييه، وسألته: "ماذا تفعل ليطفو الحَباب على الشامبانيا؟"، و طفق يشرح لها خبير الخمور أسرار المرحلة الثانية للتخمير، وفائدة الخميرة والسكر. لكنها قالت له إن هذه ليست بحَباب، وهنا أفصح لها آلان تيرييه الذى كان يعرفها خير المعرفة عما يجول فى خلده: "الحَباب يا أخت إيمانويل ليس إلا معجزة..." .

كيف لا نؤمن بالمعجزة أو على الأقل نتمناها؟ أنَّى للإنسان أن يتمتع بالحيوية فى خضم هذه الحياة الصعبة إن لم يؤمن بالمعجزة، كقلب الطفل الذى يؤمن بوجود بابا نويل؟

---

(1) جائزة يمنحها مصنع الشامبانيا الشهير لوران بيرييه فى فرنسا لإحدى الشخصيات البارزة فى المجتمع، وهى تمنح منذ عام 1965. (المترجمة) .

(2) تخميرة معينة تتكون من اثنى عشر نوعًا من الخمور الفاخرة، ويتم تعتيقها بتركها قرابة الخمس سنوات. (المترجمة) .

(3) يقع قصر لوفوا الذى تملكه عائلة لوران بيرييه فى مقاطعة المارن فى منطقة شامبانى أردين فى شمال شرق فرنسا. (المترجمة).

لقد كان لقاء الأخت إيمانويل بزبَّالى القاهرة بمثابة معجزة، وكأن الأقدار ألقت بأحلام فى عالم الزبَّالين بمحض المصادفة. هل هى معجزة كحَباب الشامبانيا؟ وماذا عن نظرة راهبة تتوق إلى رفع الجبال، وترفض الفقر، وتعبر عن رفضها برغبتها فى تقاسم الفقر بل وفى تغييره؟

كان مُقدَّرًا لها أن تلتقى وزبالى القاهرة ؛ إنهم كانوا يؤمنون معًا بالمعجزة. لقد عاشوا فى انتظار معجزات جديدة . حينما يُستقى الانتظار من عالم رائع يعجُّ بالحيوية، فإنه يأتى بالمعجزات الكبيرة منها والصغيرة، وبالحكايات البنَّاءة، وبالصور المقدسة : فالماضى المتميز كرأس المال المضمون، ينهل منه أمل المستقبل.

لم تعرف أحلام الأخت إيمانويل جيدًا، لكن ما كانت حياة أحلام لتتغير لولا لقاؤها بها. لقد كانت تمر أحداث حياتها كما لو أن هناك العديد ممن جاءوا كل يوم، وكل عام استجابة لطلب الأخت إيمانويل لنجدة أحلام كالأخت آن مارى كامبو، وسيدات الطبقة البورجوازية فى القاهرة، والعديد من المتطوعات ممن همست الأخت إيمانويل فى آذانهن بضرورة التدخل بسرعة، وبشكل فعَّال لتحقيق العديد من المعجزات.

هل يُعَدُّ مدُّ يد عون الغنى إلى الفقير معجزة؟

إن صح ذلك، فعدد المعجزات التى جرت على يد الأخت إيمانويل يضاهى عدد حَباب الشامبانيا العتيقة!

لقد وُلدت أحلام مرتين، فى المرة الأولى خرجت من بطن أمها، وفى المرة الثانية خرجت من جبل القمامة.

إنها تشبه فى جمالها فلاحة مختار، ذاك التمثال الذى يجسد نهضة مصر، وإفاقتها من غفلتها العميقة. لا تنفك أحلام تردد قائلة إنها كانت حيواناً. لقد أخرجت المرأة التى بداخلها من قلب ذاك الحيوان. ترجع حكايتها إلى أعماق غفلة مصر الطويلة، إلى تاريخ قريتين، إلى التواتر الأبدى لكل من الحياة والموت . هل بوسعنا أن نفكر فى بداية للعودة الأبدية؟

تعود أصول عائلة والدة أحلام إلى دير تاسا، وعائلة والدها إلى مركز البدارى. تعود جذور هاتين العائلتين إلى العصر الحجرى الحديث للحضارة المصرية القديمة. يشتهر أهل الوادى بعدم ميلهم إلى الترحال، كما أنهم لا يتزوجون من القرى البعيدة عنهم؛ فأبعد من قد يناسبهم أهل دير تاسا هم أهل البدارى، وأبعد من قد يناسبهم أهل البدارى هم أهل دير تاسا. كما أنهم يفضلون زواج الأقارب لكى لا يخرجوا عن نطاق العائلة؛ فكلما توالت الأجيال والقرون والأحقاب، يشبه الولد أباه، وتشبه الفتاة أمها كما يتشابه الطمى، أجيال من الطمى تكاد تحركها مياه الفيضانات عندما ترمى بالطمى من ضفة إلى ضفة أخرى مما يعطى لمهندسى المساحة عملاً مستمراً. فالأقباط المسيحيون يعتقدون بأنهم ينحدرون من سلالة قدماء المصريين الذين كانوا يزوجون الإخوة والأخوات. . يبقى لنا أن نعرف ما إذا كانت سلالة

الزرَّابين تنحدر من فرعون ما، أو من أميرٍ ما، أو من برجوازى مـــا، أو من فلاح ابن فلاح، أو من أحد الزرَّابين الـــذين ورد ذكـــرهم فـــى كتابات هيرودوت. لم تظهر عائلتا أحـــلام إلا فـــى منتـــصف القـــرن الماضى، أى فى القرن العشرين الميلادى للولـــوج إلـــى عـــالم الزبالـــة والزرايب دون أن يكون بحوزتهما أية مستندات رسمية.

تقع القريتان فى جنوب مدينة أسيوط، وتتبعان مركـــز ســـاحل سليم، بينما تقع دير تاسا فى سهل خصب، تحـــيط بالبـــدارى منطقـــة جبلية، تفتقر إلى الأراضى الصالحة للزراعة، لكنها مليئـــة بـــالكهوف والملاجئ التى يختبئ فيها المطاريد الهاربون من حكم المؤبد. يملـــك الإقطاعيون فى دير تاسا والبدارى الكثير مـــن الممتلكـــات، بينمـــا يعـــانى الفلاحون من البؤس. كان الإقطاعيون دومًا فى حاجة ماسَّة إلـــى مهندســـى المساحة لقياس مساحة أراضيهم. أما الفلاحون فلم يملكوا سوى الفقر.

هل تبدأ قصة أحلام مع قصة القريتين؟ أم أنها تبـــدأ فقـــط مـــع قصة عائلتها؟ هل تعود جذورها إلى الطمى، تلك المادة الأولـــى التـــى

شكَّلها إله الخلق خنوم، الــذى شــكَّل رجــال ونــساء هــذه الأرض السوداء[1]، على عجلة الفخار؟

إلى أى تاريخ يمكن أن تعود أصول بذرة لا تزال تتكاثر؟

قام فلاح من أسيوط ذات يوم بقفزة فى الفضاء. اقتلع نفسه مــن طمى قريته، وسافر إلى القاهرة، إلى المغامرة، و لعله كــان يحــدوه الأمل فى تكوين الثروة.

بدأت حينئذ هجرة أهل القــريتين مــع حميــرهم، وعنــزاتهم، وخنازيرهم، وعاداتهم القديمة التى تعود إلى آلاف الــسنين، وأخــذت قصة أحلام منعطفًا آخر، فقد اقتُلعت من طمى النيل لتدخل فى ضجيج المدينة الكبيرة بما فيها من قمامة، وزرايب...

"أحلام" اسم على مسمَّى، أحلامها مليئة بالمعجزات. لقد عاشت أحلام أحلامًا كثيرة، كانت أحلامها تطعمها عنــد شــعورها بــالجوع، وتوهمها بالحب عندما دفعوا بها إلى الزواج، وتذهب بها إلــى عــالم الحرية عندما كانت تعيش فى سجن تعلوه أسوار القمامة. حلمت بخبز أسود وأبيض، بكتب، وبدفاتر، وبأسفار، وحلمت بالاستقلال، ثم حلمت بأن تصبح صاحبة أملاك غنية، حلمت بأن تكون غنية.

---

(1) Kemet يطلقون على مصر اسم كيمت أى أرض مصر السوداء نسبة للطمى الأســود الذى يمده النيل بها (المترجمة)

حلمت أيامًا و ليالى لكى تنجو من الأيام والليالى.

أما من كانوا يحيطون بها، فقد كانت لهم أحلام أخرى، أحـــلام كأحلامها وأحلام مختلفة عنها. أنَّى للإنسان أن ينجو من الأيام والليالى دون أحلام؟ إن أحلام الصباح والمساء تدفع بعجلة الزمن إلى الأمــام، إلى الأمل.

ورغم ذلك لطالما حاصر الكابوس أيام الزرَّابين ولياليهم.

لم تكن بحاجة لترك عالم الزبالة لتعرف كيـف يـصبح الفقيـر غنيًا. كان هناك رأسماليون يملكون الزبالة، يدعونهـم *الواحـــية* و لا ندرى ما إذا كانوا قد قدموا مـن واحـات الخارجـة، أو الداخلـة، أو الفرافرة . ينحدر عبد الربيع من سلالتهم.

كم مليونًا تبلغ ثروته؟ إنه يملك قمامة حى الزمالك الذى يقطنـه الأغنياء. يفخر عبد الربيع بأن كان الممثل السينمائى إسماعيل ياسـين أحد زبائنه؛ مسكنه فى شارع سمير زكى المتفرع من شـارع مظهـر حيث مقر السفارات. يملك عبد الربيع عقود انتفاع تعـود إلـى عـام 1957م، وعقودًا أخرى ورثها عن أبيه وجدها محررة طبقًا للأصـول السليمة. لقد دفع مبلغًا لضمان حق انتفاعه قدره 45 جنيهًا؛ لكى يزيـل قمامة البناية التى يسكن فيها الممثل السينمائى؛ فلا يجرؤ أحـد علـى سرقة مورد رزقه. لم تره أحلام قط، لكن يتـداول أهـل الجبـل مـا يعرفونه فيما بينهم. فلا يمثل الواحى الشخص الذى يستغل الزبالة فقط، إنما يستغل الزرَّابين أيضًا، بل عالم الزرَّابين بأكمله. لأحلام محورهـا الخاص بالخير والشر ورثته عن أبيها، وعن جدها. فهى تضع الواحى فى أحد طرفى المحور الذى يمثل الشر؛ فهـو ذاك الرأسـمالى الـذى يستغل أباها، بينما وضعت الأخت إيمانويل فى الطرف الآخـر مـن المحور الذى يمثل الخير؛ فهى تساعد الزرَّابين. لكن عبد الربيع يمثـل ما هو أكثر من ذلك: إنه الشخص الذى كوَّن ثروته من لا شىء. لقـد أصبح ملكًا صغيرًا، ليس ملكًا لكنه مليك على أية حال. يُقال إنه يمثـل

أسطورة قوامها السراب، سراب الثروة المملوكة، الثروة التى تسخر من الفقر... إنه سراب الزبَّال الثرى صاحب الملايين الذى دفع به إسماعيل ياسين إلى شاشة السينما.

كانت هذه القصة ضمن مجموعة القصص التى حفلت بها طفولة أحلام، كيف غدا عبد الربيع الواحى الفقير ثريًا، وجميلاً، وبارعًا فى الكلام، ومهندمًا.

لقد كان أجداد عبد الربيع فقراء بالفعل. يجب الرجوع إلى جيل جد جده للتعرف على أولى عائلات الواحات المهاجرة. لقد رحل الإخوة عن صحرائهم، وواحتهم، ومعهم أزواجهم، وأطفالهم، وأمهاتهم؛ فلم يعد ينبت القمح فى قريتهم.

كانوا يعتقدون بأن الله قدَّر لهم نيرانًا أخرى، و بذورًا أخرى فى أماكن أخرى.

رحلوا إلى العاصمة بحثًا عن الخبز الجيد. لقد وصلوا إليها فى نهاية القرن التاسع عشر، بعد أن احتل الإنجليز البلاد. كانوا فقراء، وبسطاء. يؤمنون بالله وبرسوله محمد، ويصلون فى جماعة فى اتجاه القبلة خمس مرات فى اليوم. كانوا يصلون لكى ينبت قمحهم، ويصومون طوال شهر رمضان، من الصباح حتى المساء، يعزفون عن الطعام، والشراب، والمضاجعة. كان الذهاب إلى الحج بالنسبة إليهم

ضربًا من الرفاهية لا يجرؤون حتى أن يتمنوه. لم يكن فى مقدورهم دفـع الزكاة. لم يتخيلوا أناسًا أكثر فقرًا منهم. فكفاهم بالصلاة والصيام هاديًا للوصول إلى الخبز الجيد.

كانوا يجهلون القراءة، والكتابة، والحساب. لقد قاموا بجمع قمامة الأغنياء.

لممارسة مهنة كهذه كانوا يملكون رأسمالاً صغيرًا ألا وهو القفة القش المصنوعة من فروع النخيل، فالنخل هو إحدى الثروات الطبيعية النادرة فى الواحات. لكن هذا لا يعنى أنهم كانوا يتوقعون مصيرهم كزبَّالين. فالقفة القش بمثابة حقيبة يحملون فيها حاجياتهم القليلة، وبعض المؤن من التمر الجاف. لقد استخدموا هذه القفة لجمع الزبالة، لكنهم كانوا بحاجة إلى حمار، وعربة كارُّو، وبعض ألواح الخشب لصنع صندوق كبير نوعًا ما؛ ليلقوا بمحتوى القفة بداخله . كان عليهم أيضًا التفاوض مع بوابى العمارات الغنية بشأن حقهم فى جمع الزبالة. كل شىء يتم التفاوض فيه نظير مبلغ من المال، حتى الحق فى القاذورات.

كانوا يحصلون على تعريفة واحدة فى الشهر عن كل منزل، والجنيه آنذاك يوازى مائة قرش صاغ، أو مائتى تعريفة، ويوازى الجنيه الإنجليزى. للحصول على حمار، وعربة، وبعض ألواح الخشب كان الأمر يستلزم عملاً لبضعة أشهر.

كانوا أربعة إخوة. لقد اقترضوا ما يسمح لهم بتكوين رأسمال للعمل، وبناء مسكن مؤقت بالاستعانة ببراميل النفط الفارغة. قاموا ببسط الصفيح، وتثبيته على أعمدة من الخشب لبناء الجدار والسطح، وتمت الاستعانة بقطع من القماش لبناء الحواجز؛ وهكذا وجد الإخوة الأربعة ووالدتهم الملاذ الذى يؤويهم.

لقد جمعوا قمامة منازل الأغنياء الواقعة على مشارف المدينة. يضعون فى القفة القش قمامة كل دور فى البناية، ويفرغونها فى العربة. كان الحمار، ذاك الحيوان الشجاع، يقطع مسافات طويلة، والقروش الصاغ تتراكم، تلك القروش التى تفى بالغرض لتسديد ديونهم الصغيرة، أو حتى لشراء ما هو جديد؛ فقد كانت للقرش الصاغ فيما سبق قيمة.

لم تكن قمامة القاهرة كثيرة كما هى الحال اليوم؛ فلم تكن قد ظهرت بعد الأوراق المصنوعة من البلاستيك، والكرتون، أو ورق الألومنيوم. كانت للمنازل حدائق، وشرفات يربى فيها الناس حيوانات الحظيرة التى تأكل بقايا الطعام . لقد برع الجميع فى فن الاستفادة من الأقمشة البالية، والصفيح الصدئ. كان المشتغلون بـ "الروبابيكيا" يجوبون الشوارع لشراء كل ما ينفعهم بأسعار منخفضة، فلا يتبقى للواحيَّة إلا زبالة الزبالة.

لقد كانوا أربعة إخوة لأم يتفتّق ذهنها عن أفكار جيدة : إشعال النار بالجرائد القديمة، وقشرة قصب السكر، وعرانيس الذرة. يكفى وضع هذه الفضلات فى الشمس لتجف ثم استخدامها بعد ذلك لإشعال

النار التى سيستخدمونها، ثم يقومون بإضرامها بالعجين المكـــون مـــن روث الجاموس المختلط بالقش. يوجد القش والــــروث فـــــي الحقـــول المجاورة، أما الشمس فتقوم بتجفيف العجين والزبالة . لم تكلِّف الشمس شيئًا، والأيدى العاملة هى أيدى النساء والأطفال.

كانوا بحاجة إلى النار لتدفئة مياه الحمامـــات العامـــة، وســـلق الفول، و خبز العيش.

لقد قاموا بإنشاء حمامات عامة، وتدميس الفول، وإشعال الفـــرن البلدى، وقسَّم الإخوة الأربعة العمل فيما بينهم. فأحدهم يفرِّغ الزبالـــة، ويعاونه فى ذلك ابنه، بينما تقوم زوجته وبناته بفرزها. أما عن الإخوة الثلاثة الآخرين فكل منهم يراقب ناره عن كثب، وتعاونه زوجته، وأطفاله.

قاموا بتوفير هذه الخدمات على مشارف المدينة، فى شبرا . كما قاموا بإنشاء محمصة لا تزال موجـــودة حتـــى يومنـــا هـــذا. كانـــت القاذورات التى لا تشعل النار من نصيب الماعز. فالماعز مكسب لهم؛ إذ إن تربيته ليست مكلفة كما الشمس، بالإضافة إلى أنه يتناسل أكثـــر من البشر، و يدر الحليب، ويوفر اللحم .

كان والد أحلام يقف طويلاً عند حكاية هؤلاء النـــاس الفقـــراء الذين غدوا أثرياء كما لو أنه يغذى سراب الثروة التى انبثقت بمعجـــزة من الفقر المدقع. كان يروى الحكاية كأنه يصف موقفه، وكأنه يريد أن

يجعل من عشته جسرًا يعبر من خلاله إلى مستقبل مشرق. كان يجمع الزبالة فى حى شبرا، و يعمل مع الواحى، ويرى فى أثناء جولاته فى الحى المحمصة، والفرن، وبائع الفول، والحمامات العمومية. ففى نهاية الحكاية كان هناك هذا الواحى الثرى المهندم المتحدث البارع الذى روى له قصة فقر "أسياد النار"، وبدا متباهيًا بحرصه الشديد على نظافة المدينة فى مطلع القرن العشرين، وهنا ينبغى القول إنها نظافة نسبية؛ إذ إن الزبالة التى لم تكن تقدم للماعز، ولا تستخدم لإشعال النار؛ كان هؤلاء الواحية الجدعان يلقونها فى الشارع فتكوِّن "جبالاً من القاذورات".

تتحول رواية الفقر المدقع إلى غنى أسطورى، إلى خلفية لسراب الثروة، ثروة تقفز، تذهب و تجىء، تجرِّد الواحى، وتذهب به إلى أقصى محور الشر لدى أحلام ليصبح الزبَّال غنيًا.

كان عالم الزرَّابين يعرف عبد الربيع. إنه رأسمالى الزبالة. يبيع بالقطعة ما اشتراه بالجملة؛ أى يبيع الزبالة، ويحوِّل وضعه الحَرج إلى مصدر يدرُّ عليه ربحًا.

لقد ظهر وقود جديد فى البلاد، ألا وهو المازوت الذى غدا يحل محل القاذورات، وارتفعت جبال القاذورات التى يملكها الواحى أكثر فأكثر حتى أصبحت تشكل خطرًا كبيرًا ؛ فلم يفكر أحد فى استخدام الخنازير لإزالتها كما حدث فى عصر الرومان.

كان الواحى مسلمًا ؛ فليس له أن يقرب هذه الحيوانات القذرة.

لقد باع الواحى القاذورات إلى الصعيدى القادم من أقصى الصعيد.

قال الرجل الإنجليزى للصعيدى الذى سيتبعه فيما بعد المساكين من القريتين الأثريتين :"الخنزير هو الثروة المضمونة" .

و هكذا نجا الواحى، وتضاعفت ثروته فى الوقت الذى بدأ فيـــه السقاة يندثرون.

يُدعى هذا الرجل الأول غالى الدوينى. تتكون عائلته من ستة إخوة يعملون جميعهم فى تجارة البذور. فكانوا يمدون معسكر الإنجليز بالبذور، و يملأون بها القوارب التى تسير بمحاذاة النيل حتى القاهرة. كان النيل – ولا يزال – وسيلة المواصلات التقليدية حتى بعد إنشاء خطوط السكة الحديد.

شاع ذلك فى أثناء الحرب العالمية الثانية. لقد عاش الإنجليز فى تلك الفترة حياة المحتل المترفة. فكثيرًا ما كانوا يترددون على جُروبِّى، وفندق سميراميس، أو نادى الجزيرة الرياضى، ويأكلون الخنزير، خنزيرًا كاملاً فى الأعياد، محشوًا بالفريك كما يحشو أهل البلد السمَّان والحمام. بينما يتذوقون الخنزير، يشربون الشرى أو الويسكى، ويثملون. كانوا فى ريعان شبابهم يتناولون الإفطار، ويلتهمون السجق ولحم الخنزير المدخن. هل عرفوا أن المصريين منذ أبد الآبدين، منذ عهد الأساطير المنسية، يلعنون لحم الخنزير، ولا يشربون الكحول بوجه عام؟ بعضهم يستهلك العرق، أما المسيحيون فيشربون الأباركة، خمر الكنيسة الشبيه بالبورتو[1]. لقد كان العرق والأباركة بالنسبة إلى الإنجليز بمثابة الشرى، والويسكى بالنسبة إلى المصريين. ولذلك كانوا يُحضرون من إنجلترا المواد اللازمة لمعيشتهم محمَّلة على ظهر السفن. شاع ذلك حتى فى فترة الحرب العالمية الثانية عندما كانت تتشكل وحدات الجيش فى داخل ثكنات القاهرة، متناسين لبعض الوقت

---

(1) خمر البرتغال الشهير. (المترجمة)

الخطر الفاشى. لم يخطر ببالهم أن يصنعوا الويسكى، والشرى فى مصر، وماذا عن تربية الخنازير؟ لم لا؟ الخنازير؟ تلك الحيوانات المزدراة ؟ ولم مزدراة ؟

البعض أرجع ذلك إلى المرض الذى يسببه لحم الخنزير فى حالة عدم طبخه جيدًا. لكن جاء عالِم ليشهد بأن مرض دودة الخنزير لم يكتشفه الأطباء الغربيون إلا فى القرن التاسع عشر؛ فمن السذاجة الاعتقاد بأن مدعاة تحريم أكل الخنزير إنما كان لمعرفتهم بهذه الأسباب العلمية.

إن مرض دودة الخنزير مرض جد بشع حتى إنه ليصعب علينا أن نتخَيَّل أن الناس قد قبعوا فى جهلهم لملايين السنين؛ فهو مرض تسببه دودة من الطفيليات تتقوقع فى خلايا عضلات الحيوان، ثم تنتقل إلى الإنسان فتكبر، وتتضاعف، وتضع اليرقات فى الغشاء المخاطى للمصران، ثم تتجه نحو قنوات الدم لتنتشر فى الجسم، وفى الخلايا مسببِّة الإسهال، والغثيان، والقولَنج، والارتفاع فى درجة الحرارة، فيتصلب الجسم، وينتفخ، ويتصبب المريض عرقًا فلا يستطيع النوم ويصارع الموت. يا له من مرض بشع !

ويقر العالِم أن هذا المرض كان معروفًا فى مصر القديمة، بيد أنه لايزال هناك شك فى أن يكون ناجمًا عن أكل لحم الخنزير.

لكن يؤكد العالم حقيقةً أنه لا غبار عليها: لقد استُهلِك لحم الخنزير فى عصور ما قبل التاريخ، ويستدل على ذلك بوجود عظام

كثيرة لخنازير برية وحشية فى بعض المناطق، وفى العصور السحيقة من التاريخ فى شمال مصر على هيئته المستأنسة.

لقد عرفوا الخنزير كمعرفتهم بالشر والحرب اللذين يجسدهما، بل إنهم قاموا بتبجيله؛ إذ إن الشر يمثل قوة يتعين أخذها بعين الاعتبار.

لكنه ظل ذاك الحيوان القذر.

وبعد ألفى سنة جاءت رسالة موسى لتزدرى هى أيضًا الخنزير. فقبل مجىء موسى لم يُحرَّم على اليهود سوى الدم.

" كل دابة حية تكون لكم طعامًا كالعشب الأخضر. دفعت إليكم الجميع. غير أن لحمًا بحياته دمه لا تأكلوه[1]".

هكذا تحدث الله فى سفرالتكوين إلى نوح وأولاده. فحُرِّم لحم الخنزير على العبرانيين فى وقت الهجرة، وظل هؤلاء اليهود فى شمال مصر تحت حكم الأسرة التاسعة عشرة التى فرضت – على عكس الأسرالسابقة – سلطة مملكة الشمال على مملكة الجنوب، وقدَّست الإله ست. كان بالتالى الخنزير مقدسًا فى بعض الأماكن؛ تدلل على ذلك التصاوير الموجودة على السيراميك الأزرق فى المتاحف، ولعل صورة ربة السماء نوت وهى تبتلع الشمس على هيئة خنزير برى يلتهم صغاره تُعدُّ دليلاً على ذلك؛ فهل كانت رسالة موسى ترمى إلى

---

(1) راجع سفر التكوين إصحاح 9 آية 3. (المترجمة) .

إبعاد العبرانيين عن عادات المصريين، وآلهتهم المزيَّفة، أم أنها جاءت لتخليد عادة قديمة؟

" و كل بهيمة من البهائم تشق ظلفًا وتقسمه ظلفين و تجتر فإياها تأكلون، إلا هذه فلا تأكلوها مما يجتر، ومما يشق الظلف المنقسم الجمل والأرنب والوبر لأنها تجتر لكنها لا تشق ظلفًا فهى نجسة لكم والخنزير لأنه يشق الظلف لكنه لا يجتر فهو نجس لكم فمن لحمها لا تأكلوا و جثثها لا تلمسوا[1] " .

احتفظ الإسلام ببعض المحرمات التى جاءت بها اليهودية "فالميتة، والدم، ولحم الخنزير" محرمة كالخمر.

عندما احتل الإنجليز مصر، حرَّم اليهود والمسلمون لحم الخنزير. ماذا عن المسيحيين؟ أكانوا يجهلون أنهم بدورهم يحرمونها لأسباب غامضة ورثوها عن مصر القديمة؟ إنهم يعرفون ذاك الحيوان منذ العصور القديمة ؛ فهو موجود فى أسطورة الإخوة الأعداء. لقد حكم الإله حورس مصر العليا، والإله ست مصر السفلى. فحورس يرتدى قناع صقر، ويرتدى ست قناع خنزير. إن ست - الخنزير- مسؤول عن الشر المستفحل فى شتى أرجاء الأرض، وعن الظلام أيضًا، الأخ التوأم للنور الذى مثله حورس. يجهل فلاحو الوادى المسلمون منهم والمسيحيون الذين يرقصون فى كل الأعياد رقصة التحطيب ليمثلوا الحرب الأسطورية بين الإخوة الأعداء بين ست وابن أخيه حورس،

---

(1) راجع سفر التثنية الإصحاح 14:6 -14:8. (المترجمة) .

يجهلون حتى اسم ست ورأس الخنزير الذى يرمز إليه. لقد أصبح ست فى طى النسيان، وظل كرههم للحم الخنزير دون معرفة السبب الحقيقى الكامن وراء هذا الكره. بإمكانهم اختلاق الأسباب لذلك على غرار أجدادهم من الجيل الحديث. لربما عرف مثلى الفلاحون القادمون من صعيد مصر من خلال جدَّاتهم أن الخنزير حيوان قذر يضع رأسه دومًا فى القاذورات، ولا ينظر أبدًا إلى السماء. لقد كانت جدتى تلوم على الخنزير أنه لا يعرف كيف يصلى!

ما الحجج التى اختلقها الإنجليز لإقناع أجداد أحلام المسيحيين بأن ديانتهم على عكس اليهودية والإسلام لا تحرم البتَّة لحم الخنزير؟ هل كانوا يحتقرون ما تبقى من العادات الوثنية؟ هل كانوا يلجأون إلى أساطير مسيحية؟

أما بالنسبة إلى الفلاح القادم من الصعيد ليشغل وظيفة أمين مخزن فى الجيش الإنجليزى، فقد سيقت له حُجة مقنعة أكثر من الاعتبارات الثقافية والدينية: المال.

كان هذا الصعيدى، شأنه شأن أهل الصعيد، يشمئز من لحم الخنزير.

لقد قال له الإنجليز إنها خرافات، وقالوا له أيضًا إنها أحكام دينية مسبقة لا أساس لها من الصحة؛ فليس هناك نص فى الإنجيل يحرم الخنزير. فيصح هذا الأمر بالنسبة إلى المسلمين واليهود، لكنه لا ينطبق على المسيحيين، كما أن تربية الخنازير تُعد ثروة مضمونة.

لقد اقتنع الصعيدى بهذا الكلام، وبنى له الإنجليزى زريبة، مؤكدًا له أن الأدوات كلها أُحضرت من إنجلترا.

لم تكن الأدوات المذكورة سوى صفيح هالك وعصى. لا تحدد هذه القصة منشأ الخنازير، فلا نعلم ما إذا كانت الخنازير الأولى قد أحضروها من إنجلترا هى أيضًا أم أنها جاءت من مصر. يؤكد الجميع أن هذه الحيوانات هى أقربها للإنسان بدليل العلاقة بين لون جلدها، وكثافة لون جلد سكان البلاد ؛ فهو زهرى اللون فى الغرب، وأسمر فى الشرق، وأحمر فى بلاد أخرى. إن لون الخنازير لدينا أقرب إلى الرمادى الداكن؛ فبالتأكيد لم يتم إحضارها من إنجلترا.

اشترى الفلاح القادم من صعيد مصر الزبالة من الواحى لإطعام خنازيره.

لقد ظل يحاول قرابة الأربع أو الخمس سنوات أن يقضى على شعوره بالاشمئزاز من لحم الخنزير، حتى ذاقه فى يوم من الأيام، و لم يصب أىٌّ من أولاده بمرض دودة الخنزير.

أحلام أيضًا لم يصبها هذا المرض، لكنها لم تأكل كثيرًا من هذا اللحم الواعد بالثروة؛ فعليهم بيعه للأغنياء أو بالأحرى للوسطاء ممن يبيعونه بدورهم بأسعار باهظة للأجانب، وللبرجوازيين. إنهم يبيعونه لتغطية حاجيات أساسية. لا غرو أنها لم تصب بمرض دودة الخنزير؛ إذ إنها لم تأكل منه إلا القليل، كفى أيام الأعياد، عندما يُسمح لها بالاحتفال بالعيد. ها هى اليوم تتباهى بتحضير الأطباق الشهية من لحم الخنزير، ولا تبخل على أحد بتفاصيل الوصفة الخاصة بها؛ فهى تغلى قطع اللحم مرتين مع مراعاة إزاحة

رغوة مياه الطبخ، ثم تضع قطع اللحم فى صحن كبير من النحاس المزخرف، ثم تضيف الأعشاب، والبصل، والثوم المشوى، وأوراق السلق المفروم، وتضعه فى فرن العيش البلدى، أو تقوم بنقع القطع لمدة ثلاث ساعات في خلطة تتكون من المياه، والبصل، والبهارات، وتجففها من المياه، ثم تضعها فى السيخ لتقوم بشيِّها على نار من الحطب. يُقدَّم الطبق مع الخبز الذى أعدته بيديها . إنها وجبة لمائدة الملوك ليس بإمكان أى مطعم فى المدينة أن يقدمها.

تشرح أحلام طريقة التحضير، وتبدى تلذذها بالطعام .

تقول لها الضيفة بإعجاب شديد : "سلِّم إيديكى" .

كانت أحلام تعطى كل ما تملك لتقدم هذا الطبق، إلا أن الضيفة رفضت دعوتها بكل أدب.

تتمنى أحلام مائدة ممدودة، كما لدى البرجوازيين. آه لو كانت تملك ذلك!

لم يمثل الخنزير الثروة المضمونة لعائلتها. لقد ظل الموت، والمرض، والفقر من نصيبها.

لم يعُد غالى الدوينى إلى قريته؛ لقد استقر فى القاهرة. لكن مغامراته سافرت لتعبر حدود المدن، والقرى، وتنتشر مع تردد صداها أو عبر البريد عن طريق الكاتب العام.

إنه زوج خالة رزق مترى شحَّات الذى أصبح فيما بعد والد أحلام، بطلة روايتنا. تأتى زوجة غالى، ووالدة رزق من قرية دير تاسا. لقد رحلتا عن دير تاسا بعد زواجهما، ولم تعودا إليها قط. إحداهما تبعت غالى الدوينى، والأخرى تبعت مترى شحات القادم من البدارى، ووالد رزق.

لقد تدافعت الظروف لتضع مترى على طريق الهجرة.

كان قد تزوج فى عام 1952م، تلك السنة المشهودة التى جاءت بالسعادة لفلاحى مصر؛ فقد جرَّدت الثورة كبار الملاك من ممتلكاتهم، ليصبح كل فلاح مالكًا لخمسة أفدنة. من لم يحصل من الفلاحين على هذه الأفدنة بَعْدُ كان يتمنى ذلك، لاسيما وأنه كان مزمعًا إنشاء السد العالى بأسوان لعدم تبذير المياه، ولزراعة الصحراء المترامية الأطراف. يُعد عبد الناصر رجل هذه الأحلام، ذاك الرجل القادم من قرية بنى مور، الذى غدا رئيسًا للجمهورية الجديدة. كان رزق ووالده يدعونه *بدويات*. لقد حصلا بفضله على نصيبيهما من الأرض.

بدويات! يا له من تعبير عجيب! لقد درج أهل القرى المصرية على إطلاق لفظة *بلديات* على من يرجع أصله إلى القرية نفسها. هل يصنف هذا الصعيدى عبد الناصر من فئة البدو الذين كانوا يستقرون على حافة وادى النيل؛ فلا يطلق عليه لفظة *بلديات*؟ أيًّا كان الأمر، فقد تملّك حب عبد الناصر قلبه آنذاك.

فى العام نفسه قررت والدة رزق أن تدعو أفراد العائلة لحفل الزفاف الذى نظمته لكى يتسنى لها رؤيتهم جميعًا.

لقد تم تنظيم كل شىء عن طريق البريد بفضل الكاتب العام. رحلت عائلة الخطيبة عن دير تاسا قبل حفل الزفاف بأسبوع قاصدة قرية رزق مترى شحات. هل حضر غالى الدوينى وزوجته إلى القاهرة لحضور هذا الحدث المهم ؟ لم يشهد أحد على حضورهم.

لقد تزوجا بمناسبة عيد الأنبا شنودة فى السابع من شهر أبيب فى منتصف شهر يوليو فى الوقت الذى كان النيل فيه جافًا، والأرض متعطشة للمياه. ففى أقصى قرى جنوب مصر يتبعون الجدول الزمنى القديم الذى ينظم الحياة، والموت، ونهضة الأرض: ثلاثة مواسم يتكون كل موسم منها من أربعة أشهر، كل شهر به ثلاثون يومًا ثم يليها الشهر الثالث عشر، وهو شهر قصير يتكون من خمسة أو ستة أيام يسمونها الأيام المنسية. يُبَجِّل المسيحيون قديسى العصور الأولى للمسيحية، لا سيما الأنبا شنودة الذى عاش ما يقرب من مائة وثمانية عشر عامًا، وقام بوضع أسس قانون الرهبنة. تحفل قصته الأسطورية بالمعجزات، ولم تتخيل الراهبة إيمانويل هذا الكم من المعجزات.

لقد تزوجا فى عيد هذا القديس، بعد جنى القطن، فى ليلة اكتمل فيها القمر. فى تلك الأيام السحيقة لم يكن نور الكهرباء قد وارى بعد نور سماوات القرى. النيل الجاف ينتظر المياه لتُزفَّ إليه، ويسترجع شبابه اليافع. كانا يتزوجان كالنيل والمياه، إله وإلهة من الزمن البعيد،

كالمسيح، والكنيسة فى العصور المسيحية. جاء أبونا عبد الملاك من قرية مجاورة ليبارك زواجهما. فوضع لهما الإكليل. فرزق يمثل النيل، الإله، أو المسيح، أما هى فتمثل المياه، الإلهة، أو الكنيسة. الزواج إكليل يتم الاحتفال به فى السماء، وعلى الأرض. إنه مكتوب فى السماء. إن هذا الاعتقاد راسخ فى نفسيهما.

لقد تكلف الزفاف أكثر من سبعين جنيهًا: ثروة طائلة! لحسن الحظ كان محصول القطن وفيرًا، ولم يهاجم الدود وردة القطن.

ولد لهما الولد الأول. أطلقا عليه اسم يونان، لكن ما لبث أن أصبح اسمه نان، وغدا الوالدان منذ ذلك الحين متوجين بلقبين عظيمين، لقب الأب، والأم : أبونان وأم نان.

فتح فى القرية متجرًا للبذور، ولكى يدفع التكاليف باع إحدى مصوغات زوجته: الخلخال. يُقال: إن من ترتديه ليس بوسعها أن تغادر المنزل دون أن تشى بها أجراسه الخائنة.

زرع أبونان ثلاثة أفدنة فى أرض أبيه، ونوى أن يأخذ من المحصول ثلاثة أرادب من القمح ليبيعها، وليبتاع لزوجته خلخالاً؛ فالخلخال فى قدم المرأة أشبه بحارس السجن. لكنه يعد أيضًا رمزًا للغنى، رمزًا قيِّمًا للفقراء؛ فقد كان من الذهب، وفى مكان آمن أكثر من حساب توفير فى البنك. قطع أبونان على نفسه عهدًا بأن يبتاع لأم نان الخلخال. للأمر علاقة بكرامته. ليت بوسعه بيع هذه الأرادب الثلاثة! لكن والده رفض قائلاً إن هذا القمح مخصص ليفى بحاجة المنزل.

احتدم الموقف بين الرجلين، وألقى الأب بملابس ابنه وزوجته الشابة من النافذة، ورمى مراتبهما. لم يعودا يملكان شيئًا البتة، وحرَّم الأب مسكنه على ابنه.

غداة ليلة قضاها الاثنان فى العراء، باع أبونان تجارته، وشد رحاله إلى القاهرة عابرًا النيل على ظهر أحد القوارب التى تنقل البذور من الريف إلى العاصمة. كانت زوجته تتبعه، فقد قطعت يوم زفافها عهدًا بطاعته.

حدث ذلك فى عام 1959م، بعد أول إصلاح زراعى بسبعة أعوام، وبعد تأميم قناه السويس، والعدوان الذى تلاه بثلاث سنوات. لقد أصاب الإحباط نفوس الفلاحين، وتلاشى الأمل.

أعلن الرئيس أن المال الذى تدره القناة سيُستخدم لتمويل السد العالى بأسوان، ومن ثم لن نشحذ؛ فسيتوفر لدينا من الماء ما يكفى لزراعة الصحراء، وسيتملك كل فلاح قطعة أرض صغيرة.

لقد مرت ثلاثة أعوام على هذه الخطب العظيمة، وجاء اجتياح الجيوش الإنجليزية، والفرنسية، والإسرائيلية، ثم تدخَّل الروس والأمريكيون لطردهم، ثم جاءت الحرب الباردة بين الروس والأمريكيين. أما عن الفلاحين البؤساء من شمال مصر وصعيدها فقد ألقوا فى الصف الروسي.

من رأى الروسى فى المدن والقرى؟ كان الجميع يعرف الإنجليزي: إنسان شجاع، ومن الممكن الاستيلاء على أمواله، شأنه فى ذلك شأن الأمريكى الذى عرفوه تمام المعرفة فى أثناء الحرب العالمية الثانية، بل إنه حتى ليسهل الاستيلاء على الأمريكى أكثر من الإنجليزى. يروى أبونان حكاية لربما حدثت بالفعل، أو لربما تم اختلاقها. روى هذه الحكاية فلاحٍ لوالد أبو نان حين كان يسلمه البذورعن صعيدى آخر أصبح زبالاً، وتروى عنه أحلام هذه الحكاية. لعلنا نطلق عليها اسم *أسطورة الإنجليزى فى قرى أسيوط*. تدور أحداث القصة فى العقد الأخير من القرن التاسع عشر فى الوقت الذى شُيِّدت فيه السكة الحديد عند مدخل شبرا، هذه المنطقة الريفية التى تذكرنا بأُبَّهة الشانزلزيه آنفًا فى باريس. كانت الوحدة العسكرية مكونة من الإنجليز، بينما يقوم أهل المشرق بتفعيل الخطط، تتوافد الأيدى العاملة من الفلاحين القادمين من شمال مصر، أو جنوبها. توجد دورات مياه بُدائية ليستخدمها الإنجليز فى ساحة العمل، عبارة عن حوض معقّم فى داخل كوخ من الخشب . صار الصعيدى يراقب دورات المياه عن كثب، فعندما يرى الإنجليزى وهو يقترب من الكوخ، يسرع إلى داخل الكوخ، ويأخذ الورق الصحى. عندما يدخل الإنجليزى إلى دورة المياه، ولا يجد من الورق ما يستنجى به، يُخرج ورقة مالية من فئة المائة جنيه لتفى بالغرض. عندما يفرغ من قضاء حاجته، ويخرج الإنجليزى، يسرع الصعيدى الذى لا يزال يراقب المكان بالدخول إلىٍ دورة المياه، ويأخذ الورقة من فئة المئة جنيهات من الحوض المعقّم، ويفرك يديه لشدة فرحته، ويدعو للإنجليزى بالبركة؛

فعلى رغم كونه غبيًا فإنه كريم. أما الروسى فما كان ليُخدع مثله. يُقال إن الروس يموِّلون السد العالى بأسوان، ولا يذكر الصعايدة أنهم رأوا روسيًّا في ذلك الوقت، ومن المحال أن يكونوا قد رأوا روسيًّا يلقى ورقة بفئة مائة جنيه فى حوض معقَّم.

مائة جنيه! لا شك أن أحلام أطلقت العنان لخيالها. مائة جنيه! إنها ثروة طائلة فى ذلك الوقت. لكن أُحلام تلفظ هذا الرقم كأنها تود من أعماقها أن تتصدى للفقر، وإذا بوالدها يؤكد لها ما تقوله حين تسأله : "صح يابا؟" فيجيبها: "أيوه يا بتِّى، صح، ميت جِنى[1]"، وينتابهما الضحك لفرط تلك الفرحة المكبوتة التى بداخلهما... فما سبق لهما أن رأيا من ذى قبل ورقة من فئة المائة جنيه .

فى عام 1959م شعر الفلاح بخيبة الأمل، لقد انتظر الرخاء الذى وعدوه به مع إنشاء السد العالى.

"موت يا حمار على ما يجيلك العليق"، هذا ما قاله الفلاحون لبعضهم .

---

(1) "جنيه" باللهجة الصعيدى. (المترجمة) .

مازالت الأراضى الخصبة قليلة، والسكان يتكاثرون، والأطفال الصغار يلتهمون مال الأب(1).

ماذا عساه أن يفعل أبونان فى منزل والده؟ هل كان سينتظر نصيبه الضئيل من الخمسة أفدنة التى منحتها الثورة؟

على القارب الذى كان يقله هو وزوجته إلى العاصمة، طفق يحلم بالحياة فى العاصمة، ذاك المكان الواعد.

كان لديه فى القاهرة مكان يقصده. اسم وعنوان مدوَّنان على ورقة. بعض المارة الجدعان استطاعوا أن يفكوا طلاسم هذا الخط الرديء، ودلُّوه على الطريق. طرق الرجل وزوجته باب يانِّى عبده القاطن فى شارع أحمد حلمى فى أبو وافية. لقد استقبلوهم بحفاوة، وبصدر رحب كما جرت العادة عند الفلاحين. فيكفى أن ينطقوا باسم بلدتهم لكى يدعوهم لمشاطرة الخبز والملح، وليؤوهم.

أبدى أبونان رغبته فى العمل فى مجال جديد بالتجارة فى القاهرة.

قال له يانِّى :"ما تعرفش تجرا ولا تكتب؛ ما تربى الخنازير زى أهل دير تاسا" .

---

(1) إنهم لا يبالون بكثرة الأطفال؛ لأنهم يؤمنون بالمثل الشعبى القائل:"العيِّل بييجى ورزقه فى رجليه". (المترجمة) .

وهكذا لحقت الزوجة الشابة بمجتمع دير تاسا الذى يعيش بعد المدينة السكنية، فى ملتقى للصوص يُدعى عزبة الورد؛ حيث وجد أبونان النار التى ستخبز خبزه. وجد نفسه بين الزرَّابين، الزرَّابين النجسين، وكل الحيوانات التى تعجُّ بها الزريبة كالحمار، و الماعز، بل أيضًا الصراصير، والفئران، والناموس، والذباب، والثعابين، والبراغيث، والكلاب الضالة، والقطط المشرَّدة، ولربما المذعورة، كل أنواع الحيوانات التى تشكل خطرًا أكبر من عصابات قطَّاع الطرق القروية.

يبدو أنهما عاشا بعض الأوقات السعيدة فى هذا المكان الذى يعج بالحيوانات، والناموس، والعصابات. لقد شبَّ ابنهما الأكبر نان وسط الخنازير. ولد لهما ولد ثان: رياض. لقد قطعوا حبله السرى بالسكين، وعاش الطفل بعد هذه العملية. أشد ما خشيه والداه هو الأرواح الشريرة، حتى إنهم كانوا يخشونهم أكثر من التيتانوس الذى يودى بحياة الأطفال الصغار. كان هؤلاء الفلاحون يرقصون رقصة التحطيب، ويلعبون لعبة الإخوة الأعداء، لكنهم يجهلون أخو أوزيريس التوأم، الإله ست، صاحب رأس الخنزير. بل إن أشد ما يخشونه من الأرواح الشريرة هو القرين أو القرينة اللذان يلحقان الأذى بالطفل. لم يعرفوا كيف يحاربون التيتانوس، لكنهم حاربوا الأرواح الشريرة. لقد احتفلوا بسبوع رياض الصغير الذى ظل على قيد الحياة، وسط ضجيج كالصاعقة بغية تخويف القرين الشريرالمستعد لخنق أخيه التوأم. لقد اشترك كل الزرَّابين فى إحداث الضوضاء: فمنهم من دق الهاون، ومنهم من دق

الطبل، وجميعهم طفقوا يطلقون صرخات قوية . ثم ما لبثوا أن وضعوا رياض فى الغربال ليغربلوا هذا القرين الشرير، وفى الوقت نفسه تقفز والدته سبع مرات فوق طفلها فى الغربال لإبعاد خطر الكبسة عنه. لقد قاموا بتوزيع أساور من الفول، وورقة من فئة خمسة قروش مدون عليها بخط ردىء اسم رياض، وتاريخ السبوع، ووزّعوا المُغات والشربات.

كان للأم حليب وفير، بيد أنها خشيت من أن يتسبب القرين فى جفاف ثديها. فأخذت خيطًا، وجعلت فيه عقدًا كثيرة، وارتدت الأسورة فى يدها. لهذه العقد قدرة على القتل؛ فمن شأنها أن تحمى الطفل من قرينه.

شبَّ نان ورياض، وفى كل مرة أثبتت الوسائل المتخذة لمحاربة القرين فاعليتها ؛ لأن تشخيص المرض، والموت مؤكد: فالمتهم دومًا هو القرين، أو العين، أو الشيطان. كان لأم نان خالة على دراية ببعض الإجراءات الصحية. هى خالة بمثابة أم لها، وملاكها الحامي؛ فهى التى أنقذت نان ثم رياض من التيتانوس، أو من القرين. لم يقرنوا بين الوسائل الصحية والصحة الجيدة التى يتمتع بها الأطفال.

صفيح صدئ، وألواح من الخشب الهالك، وثياب رثّة، وقاذورات، هذا هو الجو الذى تعيش فيه الأسرة الصغيرة مع الخنازير، والماعز، والحمير، وبعض الفئران... فى الشتاء، لم تكن أشعة الشمس حارقة بل دافئة. هنالك عائلة من دير تاسا تحيط بالأم الشابة. صراخ الأطفال وضحكاتهم تتناغم مع صوت الخنازير ونهيق الحمير. أبونان وأم نان يحمدان الله على نعمه.

لم يكن الزوج ليِّن الجانب مع زوجته؛ إذ يجب على الصعيدى أن يظهر بمظهر الرجل، ويخفى ما بداخله من كنوز الحنان. بيد أنه كان يشعرها بالمتعة فى ظلام الليل الخالى من القمر والكهرباء. تناديه "يا بعلى". هل كانت تعتقد أنه يملك قوة خارقة، كالإله بعل برأس ثور، ذلك الإله الذى أراد أن يصارع الموت؟ لربما قصدت: هذا "الثور" فى بلاد الخنازير لن يغلبه الموت.

أبونان كالثور فى خصوبته. أم نان! حبلى بطفل آخر! يتمتع أبونان بصحة جيدة؛ إذ إنه يقاوم الفيروسات والديدان بكل أنواعها. فالتيتانوس، والبلهارسيا، والتهاب الأمعاء الحاد، هذه أمراض تصيب الآخرين. ثور قوى وشاب، أبونان لا يزال تملؤه الحماسة. ذهب ليتفاوض والواحى بشأن حقه فى جمع قمامة الأغنياء. فبذلك لن يصل طعام الخنازير عطبًا، بل سيكون نضرًا قادمًا من المصدر. لقد اشترى هذا الحق فى حى شبرا، فى خط بأكمله، وأصبح بذلك مالكًا لقمامة مائتين وخمسين شقة بالإضافة إلى مدرسة الراعى الصالح الداخلية، فى هذا الحى نفسه الذى تراءى فيه للواحى أمل الثروة.

الزبالة، إنها ثروة مجهولة فى قريته. لم يكن هناك سوى عناصر من الطبيعة الخالدة: طمى النيل، ومياهه المليئة بالبركة، ومحصول الحقول. كل شىء يأتى من الأرض، ويرجع إليها. المنازل مصنوعة من الطمى الممزوج بالماء، والقش، ثم يتم وضعه فى قوالب لتجف فى الشمس. لو جاء فيضان قوى لذهب بها. قديمًا شكل الإله

خنوم الإنسان، والحيوان بهذا الطمى نفسه. لقد جهل ذلك، لكن ما كان يعرفه فى حدود تربيته الدينية الضيقة أنه سيعود إلى الأرض عدا جزء منه هو روحه التى ستصعد إلى السماء إذا حالفه الحظ، أو ستتحول إلى قمامة لتلتهمها النار كما تلتهم نار فرنه روث الحيوانات. أنَّى له أن يجد الزبالة؛ لم تكن هناك جرائد. كان هناك كتاب صلوات مكتوب بخط اليد يجول فى داخل كنيسة فى قرية مجاورة. لم تكن فى قريته كنيسة، ولا جامع، ولا منازل للأغنياء. ليس هناك إلا صورة الزبالة راسخة فى ذاكرته كرمز للثروة: قطعة من الورق الألومنيوم، غلاف قطعة شوكولاتة نستلة لا يعلم أحد مصدرها، تُعد آنذاك بمثابة كنز بالفعل للطفل الصغير.

يذهب أبونان بنفسه ليفرغ الزبالة. كان حى شبرا فى ذلك الحين حى المسيحيين؛ فمنذ منتصف القرن التاسع عشر كان الإنجليز يعينون فى شركة السكة الحديد التابعة لهم أهل المشرق، والأقباط، ومنذ منتصف القرن التاسع عشر يتكاثر سكان هذا الحى، وتكثر زبالتهم. فى هذه الحقبة نفسها، استقرت راهبات الراعى الصالح فى الحى، و يذهب أبونان إلى زبائنه القاطنين فى الشوارع المجاورة لهن. فى الصباح الباكر، قبل شروق الشمس حين تغفو المدينة، يذهب على عربة الكارُّو التى يجرُّها الحمير، ويصل مع صياح الديك إلى الشوارع التى يقطن فيها الشرفاء من الناس، ثم يصعد إلى أدوار المنازل، حاملاً القفَّة على كتفه، ليجد أمام سلم الخدم صفائح البنزين الهالكة المنبعجة الملأى بالزبالة، فيفرغها فى قفته بينما، ينتظره الحماران والعربة الكارُّو فى

الشارع. كان نان الصغير، فى سنوات عمره الأولى، يحرص على ألا يسرق أحدهم متاعه؛ فقد كانت القطط، والكلاب الضالة تسلبه أفضل البواقى.

مرة كل شهر، كان أبونان يطرق بهدوء باب الخدم ليحصل من "زبابينه" على مال تعبه وشقاه ليعطيها بدوره إلى الواحى، وفقًا لقانون الزبَّالين. لم يدعُه أصحاب الدار للدخول قط، حتى إلى المطبخ. يحترم أبونان قواعد الطبقات الاجتماعية؛ فينتظر عند عتبة الباب ليأخذ مال تعبه. عندما ينشب خلاف، يجعل الخدم يروحون ويجيئون فى أرجاء المنزل يؤدون مهمة الوسيط وكأنهم سفراء بالفعل، وكأنهم يبتاعون لرؤسائهم "جوز" من الدجاج فيفاصلون فى السعر.

يحدث أحيانًا أن يطرق باب الخدم مرة أخرى ليرُدّ كنزًا ما وجده فى الزبالة. فقد وجد ذات يوم صليبًا و سلسالاً من الذهب. إن أبونان رجل أمين؛ فيجب ردّ الصليب إلى صاحبه لإبعاد الشيطان. ما كان لأبونان أن يطلق العنان للشيطان ليعيث فى منازل من يوفرون الطعام لخنازيره. يود أبونان أن ينثر الصلبان والصور المقدسة على طول خط طريقه.

يعود أبونان فى ساعة متأخرة وعربته الكارُّو ملأى عن آخرها. فيساعد زوجته فى فرز الزبالة، و يكوِّن تلالاً من القماش، والجرائد، والأكياس البلاستيك، والخردة، وكل ما يمكن إعادة تدويره. الواحى هو المسؤول عن نقلها وبيعها. أما بقايا الطعام فتذهب إلى الزريبة، ولا تُحرق سوى زبالة الزبالة.

ما أشبه الليلة بالبارحة. الأطفال يتكاثرون، بعضهم توافيه المنيِّة، والبعض الآخر يعيش. لطالما رأوه من ذى قبل عائدًا فى وقت الظهيرة، ومعه ابنه يعتلى الزبالة، ثم معه اثنان من الأبناء. لكن قلَّما رأوه مع ثلاثة أطفال؛ إذ إن المولود الثالث الذى رُزق به كانت بنتًا: نادية. يجب ألا تتجول نادية فى الشوارع. يجب أن تُكفل لها الحماية من جميع الأخطار التى تحدق بالعالم، يجب أن تحميها جدران المنزل، يجب أن تعيش فى جلباب والدتها. أى جدران؟ وأى جلابيب لنادية؟ ليس لديها سوى جدران مصنوعة من الصفيح الهالك، كما تغطى الزبالة جلابية والدتها. على نادية أن تعاون والدتها فى فرز الزبالة، وأن تلعب دور الأم مع إخوتها حديثى الولادة: بنتان وولد قضى عليهما المرض، لم يكن التيتانوس، إنما أصابهم ارتفاع شديد فى درجة الحرارة لم يتمكن أحد من تشخيصه بما أنه لا وجود للأطباء فى تجمع العصابات هذا، وطالما أنه تم إرجاع سبب المرض إلى القرين الشرير. يئست أم نان، وتسلل اليأس إلى نادية هى الأخرى. يالها من طفولة تعيسة! طفولة نادية هذه، طفولة مليئة بالعمل، والمسؤوليات، والأحزان.

ظلت الحال كذلك حتى حان ميلاد أحلام التى عادت معها الحياة إلى منزل أبونان. أحلام، فتاة صغيرة، وقوية، على أتم الاستعداد لأن

تحارب العين، والشياطين، والقرينة، وكل من يؤدون إلى الموت ممن يختبئون فى داخل الزبالة. لقد أرجعت أحلام بسمة الحياة إلى المنزل.

حظى أبونان باحترام مجتمع الزرَّابين؛ فكانوا يقدمون له العزاء عند وفاة ولد من أولاده. هذا الثور الشاب سينجب غيرهم، سينجب صبيانًا، صبية كثيرين؛ فمن هو كائن فى السماء يأخذ، ويعطى أيضًا. كل شىء يموت ثم يحل محله شىء آخر. هكذا يواسون الوالد. لم يهنئوه عند إنجاب الفتاة، بل ربتوا على ظهره لمواساته قائلين: "المرة الجاية". لقد كانوا يكنون له حبًّا كبيرًا، وهم على استعداد لأن يشاطروه أحزانه.

لم يتدخل فى خلافات الجيران. أصبح يرتاد القهوة حيث تنشأ رابطة تجمع الزبَّالين أو تفرق بينهم، وتشتد أواصرها. لقد أضحت شبه رسمية منذ أن قام الإنجليز بإلغاء رابطات المهن، وإدخال جمعية الزبَّالين فى طى النسيان. لربما التقى الواحيَّة ببعض رجال هذه الرابطات التى لم نعد نعرف عنها شيئًا. فلا غرو أن اجتماعهم ليس له طابع رسمى، بل يتم بشكل تلقائى على غرار الرابطات التى ولَّت، هكذا فعل الزرَّابون: رابط عائلى، مسقط رأس موحد، قهوة للاجتماع، مما يدعم أواصر أعضاء الرابطة قبل إصدار المحتل الإنجليزى قراراته بفضِّها وبعدها. كل من أتى بعد أول الواحيين هم من الواحات، كل الزرابين قدموا من الصعيد، كل البوابين من النوبة، ليسوا بحاجة إلى قوانين مكتوبة، فقانون العُرف أقوى بكثير.

ارتاد أبونان القهوة تضامنًا مع روح الجماعة، بيد أنه كان يؤثر أن يأخذ قسطه من الراحة إلى جانب زوجته، ويلعب مع أصغر أطفاله، أحلام، أحبهم إليه. لقد جلبت معها الحياة، ينتابه في القهوة شعور كأنه غريب؛ فهو ليس كالآخرين من دير تاسا. كما لم تُحدث أصول أم نان اختلافًا يذكر؛ فقد أصبحت إثر زواجها غريبة عن دير تاسا. لقد غدت ظل زوجها الهادئ.

على الرغم من ذلك فهم يكنُّون لأبونان أجلَّ الاحترام. ذاك الثور الشاب الذى يمارس فنًّا أضفى إلى مشاعر الاحترام مزيدًا من التقدير. كان يصلح العظام المكسورة. لقد غدا "مجبراتى الزرّابين".

لكنه لم يجن المال من جراء ممارسة هذا الفن. لقد ظل ذاك الغريب الذى يقبله بكل احترام أهالى قرية قريبة من قريته: دير تاسا، مسقط رأس والدته، وزوجته.

فى الوقت الذى كانت ترسم فيه الأقدار مصير قبيلة أبونان، كانت تُخَط فيه أقدار قبيلة أخرى، يخرج زعيمها من طين دير تاسا. إنه "مجدِّس"(1).

التقيا فى حفل زفاف أبونان. لقد رغبا فى أداء رقصة التحطيب. لم يساورهما أدنى شك بأنهما يقومان بمحاكاة الحرب الأبدية الدائرة بين الإخوة الأعداء. لن يساورهما الشك أبدًا فى ذلك. فما كان ليقبل أى منهما أن يرتدى قناع الخنزير. هل يعرفان ذاك الخنزير الذى سيكون جزءًا من مصيريهما. لم تتكاثرالخنازير فى بلدهم إلا وقت الحروب عندما أصبح هناك أحفاد للإنجليز.

كانا يتعاركان، فى اليد اليمنى عصا كتهديد باللواط، أبشع الإهانات. لكن تمايل جسديهما على أنغام تقارع أسلحتهما البدائية أشبه بمصممى رقصات مهرة، ينفخ الهواء فى جلابيبهم، ووجوههم العارية تشع ببهجة اللعب. يرقصان للتمتع بالرقص.

---

(1) تُكتب القاف "جيم" فى الأسماء والكلمات الواردة فى الرواية وفقًا للهجة الصعيدية. (المترجمة) .

يُدعى إبراهيم شحاته جريس "مجدِّس".

تزوج فى قريته بدير تاسا، تزوج بجارة له بينها و بين أم نان قرابة. زواج قررته العائلة. يقولون: مكتوب فى السماء. يقولون إنه لم يرها من ذى قبل رغم أنها تسكن قبالته، الباب أمام الباب. إذا صادفها يحيد بنظره عنها، وإذا شعر بوجودها يبتعد. كان يعلم أنها له، ولن يراها قبل أن يباركهما الزواج، لن يراها قبل ليلة الدخلة.

هل علينا أن نصدق مجدِّس؟ نعم، لقد رشَّحوها له. إن نظرة واحدة يلقيها عليها قبل الزواج كفيلة بأن تنزع عنها شرفها. لم يرد مجدِّس أن يُعرِّض بزوجة المستقبل. أنَّى لأحد أن يتخيَّل أنه قاوم مراودة نفسه له بأن يختلس النظر إلى ملامح وجهها، خلف الغسيل المنشور على سطح داره لكى يتحرى أنها مازالت صغيرة، لها عينان، وأذنان، وعشرة أصابع فى يديها، وعشرة أصابع فى رجليها، وأنها ليست صمَّاء أو خرساء أو حدباء ؟

أَوثِقَ برأى أمه التى اختارتها له، وضمنت له جمالها الخلاَّب؟

يداعب حلم الزواج الفتاة الصغيرة منذ نعومة أظافرها، ويُقال لها إن ما يناسبها هو أن تُزفَّ إلى شاب جذَّاب يتقدمها فى العمر. هل لنا أن نتخيَّل أنها لم تحاول قط أن تسترق النظر إلى الزوج الموعود؟

يجب تصديق قول مجدِّس. لم يسبق أن وقع نظر رجل عليها قبل الزواج، حتى عند ذهابها إلى الحقول لتأتى لأبيها بخبز الإفطار، وبالماء من البئر، وإلا لغدت كل نظرة وقعت عليها وصمة عار فى جبين والدها، وزوجها، والعائلتين اللتين تربطهما قرابة النسب.

لقد أعطت الأقدار لمجدِّس زوجة "جدعة"، ورزقته الأقدار أيضًا ببنات، الكثير من البنات: شمس، وراحة، وأمل، وجمالات، وسميرة، وبخاتةٍ، وروايح. "ذلك يفوق الحد"، هذا ما قالته راحة. عندما وُلدت الطفلة السابعة روايح، ضاقت الطفلة الثانية راحة ذرعًا بذلك؛ فهى لم تعد تحتمل العار بأن يكون لها إخوة بنات فقط. فإذا بها تتخذ قرارًا خطيرًا، وتضع المولودة فى لفافة، بعيدًا عن أعين الأهل، ثم تلفها بالشال لتلقى بها فى البئر. لحسن الحظ قابلها الوالد فى الطريق.

- على فين يا بت ؟

- أنا ماشية أغرَّج روايح فى البير.

- أختك الصغيرة؟

- دى بنت يا بوى، الكل بيضحك علينا عشان مالناش أخ.

- روايح دى هدية م السماء. عودى ارجعى البيت. فيه يوم ح تحبيها.

فى ذلك اليوم، رجفت العائلة كلها. كانت روايح بين الحياة والموت إثر لدغ عقرب لها. ارتعدت فرائص راحة أكثر من الآخرين. عصرت الأم الليمون، ووضعت قطرات صغيرة منه فى فم الطفلة المفتوح. لفظت الطفلة السُّم، وبكت الأسرة لشدة فرحتها، وبكت راحة أكثر من الآخرين.

قال الأب لابنته: "بجى بتحبى أختك الصغيرة وكنت عاوزة تغرجيها فى البير؟ فاكرة يا بت؟" أصبحت راحة اليوم جَدَّة، وها هى تجترُّ الذكريات بتأثر بالغ.

لم تمكث بنات مجدِّس طويلاً فى منزله؛ فلديه من الفتيات ما يكفى ليزوج كل عائلات دير تاسا. لقد زوجهن. لم يكُنَّ سوى أطفالٍ، يناهِزن الثانية عشرة والثالثة عشرة. يخيل إليه أنه انتظر طويلاً. تدخل الطفلة فى عالم الفتيات الراشدات عند البلوغ. حينئذ يمكننا الجزم بأنها لم تعد حورية. فمجدِّس يؤمن كأبونان بوجود هذه الكائنات الأسطورية، الجنيَّات أو الحوريات ممن ليس بوسعهن أن يصبحن أمهات. لم الانتظار إذن، وقد تحققوا من الأمر؟ فالبنت همٌّ؛ يجب أن تقرَّ فى البيت قبل أن تجردها نظرة الرجل من شرفها، قبل أن تفقد عذريتها، ولا بأس بقليل من الغش، فلا داعى للانتظار ريثما تبلغ؛ ففى نهاية المطاف ليس هناك حوريات كثيرات.

تزوجت أمل بنعيم، وجمالات بسليمان جندى نصر الله- أولاد عم أم نان – حين بدأت عائلة دير تاسا فى شد الرحال إلى المدينة.

مضى سليمان الذى يصغر والد زوجة المستقبل بعشر سنوات يغامر بمفرده. لقد سافر إلى القاهرة لتأدية الخدمة العسكرية؛ فوجد فى عالم الزرَّابين مأوى له، لدى أقارب مسقطهم دير تاسا. كان يتطلع إلى العيش معهم؛ ففلاح له مصير الزرَّاب فى القاهرة أحسن حالاً من

مصير الفلاح فى الصعيد، فضلاً عن أن أباه يعمل فى المواسم فى عزبة أحد الباشوات، ويتقاضى ثلاثة قروش ونصف القرش، نظيرعمل لم يقم به يوميًا.

لم يعد سليمان لدير تاسا إلا للاستعداد لرحلته الجديدة إلى القاهرة حيث اشترى زريبة، ليرجع إليها برفقه زوجته، وأخيه، ووالده.

قرر مجدِّس، الذى لم يكن يعوزه المال، زيارة ابنته وصهره بمناسبة العيد. رافقته زوجته، وبناته العذارى، وكل محصول الأرض من دقيق القمح، والعيش الشمسى، وصفيحة مليئة بالسمن البلدى الذى أعدته زوجته. كما أحضر ماعزًا عوضًا عن الخروف الذى عادة ما يحضرونه فى العيد.

لا شك أنه كان يشاطر صهره الرأى؛ فبؤس المدينة أفضل من فقر القرية. لقد قرر بدوره أن يبدأ حياة جديدة وسط الزرَّابين. فلديه فدان ونصف الفدان ورثه عن أبيه، بإمكانه أن يشترى حمارين، وبعض الخنازير، وعربة كارو، ومكانًا لفرز الزبالة، وزريبة للحيوانات، ومكانًا آخر للأسرة. كل ما يملكه لتحقيق ذلك هو ثلاثمائة جنيه، المبلغ وافٍ.

لقد أرادت المشيئة الإلهية أن يُنتزع أكل العيش من دير تاسا لينضج خبزهم على نار جديدة وسط الزرَّابين.

هكذا جرَّ سليمان خلفه أهل زوجته مع بناتهم الكثيرة، العذارى، والمتزوجات مع أسرهن، وأبيه، وأخيه الذى سيتزوج بأمل ابنة مجدِّس. هجرة حقيقية من دير تاسا إلى زرائب القاهرة.

لقد ذهب مجدِّس إلى القدس ليتضرع إلى الله، ومن هنا جاءت تسميته: المجدِّس. حلَّ هذا اللقب العظيم محلَّ اسمه إبراهيم، واسم ابنه شحاتة الذى وُلد وسط الخنازير. سمى شحاتة للوقاية من العين، ومن قرينه. من قد يرغب فى إلحاق الأذى بالشِّحاتة ؟ ولنفس أسباب الوقاية هذه، سمى جد أبونان نفسه شحَّات. الحياة هى ثروتهم الوحيدة ؛ فيتعيَّن سترها عن العين بمواراتها فى عباءة الفقر.

لم يُطلق قط على مجدِّس لقب أبو شحاتة، كما جرت العادة. إنها سابقة؛ إذ جعل مجدِّس من هذا اللقب العظيم الذى حظى به والده اسمًا لعائلته.

ليس لشحاتة مجدِّس إبراهيم إخوة؛ فقد رُزق هذا الفلاح بطفل تاسع: بنت هى الأخرى. "نعمة من عند ربنا"، هكذا يقول الوالد الذى يرأس اليوم قبيلة كبيرة.

مرت على ذلك سنوات طويلة حتى حلَّ "سبوع" الحفيد رقم مائة وخمسة لمجدِّس وزوجته: إنه ولد. فيكفى زوجان ليتكاثر عالم الزرَّابين، كما فى رواية التوراة للخلق: "لقد عمَّرت سلالة آدم وحواء ثم سلالة نوح الأرض" .

انتقل مجدِّس من عزبة الترزى إلى أبو وافية ثم إلى إمبابة.

انتقل أبونان من عزبة الورد إلى البراجيل ثم إلى إمبابة.

حيثما كان يذهب الزرّابون، وينصبون بيوتهم الصفيح، كانوا يُطردون إلى مكان آخر، أبعد من المدينة التى كانت تكبر، وتنتفخ كالبصلة التى تزيد قشورها يومًا بعد يوم فتسمن وتسمن، ثم ما تلبث أن تغدو عملاقة، وتمتد إلى كل الأماكن، ثم ما لبث أن رحل عِليَة القوم أيضًا عن القرية، واقتحموا العاصمة، وتكاثر أطفالهم، وتهافت المقاولون عليهم لتشييد البيوت الخرسانية؛ فهم يجيدون التحدث بلغة المال مع المسئولين.

غدت إمبابة أحد أحياء المدينة الحديثة، غدت قشرة جديدة أُضيفت إلي القاهرة، تلك البصلة العملاقة. لم يعد بالإمكان أن تكون إمبابة مكانًا للخنازير. فبعد قضاء سبع سنوات فيها، ذهب أبونان ومجدِّس إلى المطرية، غير بعيد عن مكان الشجرة التى آوت تحت ظلها السيدة العذراء وابنها عيسى وقت الهروب إلى مصر. هل كان قدرهم يشبه قدر العائلة المقدسة؟

كان عليهم نقل خيامهم، والأخشاب الهالكة من مكان إلى مكان؛ فهم يُطْردون إلى حدود المدينة، بعيدًا عن الحقول المزروعة، بعيدًا عن أولاد الناس، وعن أصحاب السلطة.

إنهم يحفرون الأرض فى كل مكان يصلون إليه؛ فيجدون منبعًا للماء، ويحمدون الله على نعمه.

غدت الأوقات عصيبة جدًا بعد أحداث السويس، بل تفاقمت غداة حرب 1967م، لقد توافد لاجئو المناطق المحتلة إلى العاصمة؛ فمن يملك المال منهم مكث فى وسط المدينة، بينما قصد الآخرون الزرّابين. غالبيتهم من المسلمين، لكن من يعبأ آنذاك إن كان هؤلاء الأنجاس مسيحيين أم مسلمين ؟! إنهم يتقاسمون جميعًا البؤس ذاته، ويثيرون الاشمئزاز ذاته.

هناك درجات للبؤس، وبؤس الزرّابين أعلاهم درجة، لهم على الأقل مورد للرزق: الخنزير والزبالة. كان أبونان ومجدّس يربحان من المال ما يكفيهما ليحلما بالمستقبل. فيبيعان الخنازير لتاجر فى وسط المدينة يُدعى مرقص، يبيعها بدوره إلى الأجانب، وإلى قلة نادرة من المصريين سبق لهم أن تذوقوها فى البلاد الغربية. باع أبونان، ومجدِّس، ونعيم، وسليمان جندى نصر الله كل ما يمكن الاستفادة منه مما وجدوه فى الزبالة، لكنهم يبيعونه إلى وسطاء يحصلون على الأرباح الأساسية، لا يهم. على الرغم من ذلك يحصلون هم أيضًا على الأرباح ؛ فلِمَ لا يتحملون بعض الإهانات؟

كان وابل من الشتائم فى استقبالهم، كاللازمة الموسيقية :

يا زبّال! يا زرّاب! يا بتاع الزبالة!

حتى الواحى الذى لم يربِّ الخنازير يحتقرهم، لكن هذا المتخصص فى تجارة الزبالة كان يشترى ما تمَّ فرزه بسعرٍ زهيدٍ، ثم يبيعه، ويتربح منه، شأنه شأن أى إقطاعى.

يا زبَّال! يا زرّاب! يا بتاع الزبالة!

لم يذهب الأطباء إليهم، ولم تُشيَّد الكنائس والمساجد وسط الأنجاس. فيتعين عليهم إحضار الشيوخ، والرهبان من خارج منطقتهم للقيام بالتعميد، وعقد القران، وإقامة مراسم الدفن. فإذا ما ذهب أحد الزرَّابين إلى الكنيسة أو إلى الجامع، ابتعد عنه المؤمنون لرائحته النجسة؛ إذ تفوح منه رائحة الزريبة.

يعرفون أنهم مخلوقات الله. لم نكن بحاجة لأن نخبرهم بذلك. بيد أن أهل المدينة يعتبرونهم شياطين؛ لأنهم يربون الخنازير. فعليهم إذن أن يجتازوا حواجز النار للوصول إلى مملكة الله حيث المستشفيات، والكنائس، والمساجد...و الزبالة.

سارت الأيام عصيبة فى ظلام سنوات الاشتراكية الحالك. لم يحرص أحد على الحد من النسل، بل على العكس من ذلك شاع اعتقاد بأن القوة تكمن فى العدد الكبير، وأن الغرب الشرير يتربص بالشرق المسكين الدوائر بغية إضعافه، وذلك بالحيلولة دون تكاثر عدد سكانه. يقولون ذلك ملء السمع والبصر.

وصل مجدّس إلى القاهرة فى السنوات الأخيرة التى كانت تنهار فيها الاشتراكية. وكانت بناته العذارى يمثلن يدًا عاملة يُعتد بها؛ إذ يساعدن والدتهن فى فرز الزبالة. أما المتزوجات منهن فيعملن على خدمة أزواجهن. لقد غدا أبونان قرير العين وهو يرى عائلته تكبر. لم يجد أحد لدى الزرَّابين حُججًا تناقض تلك الأحكام المسبقة الرائجة آنذاك المتعلقة بالزيادة السكانية؛ فالجميع بحاجة إلى اليد العاملة المجانية، فضلاً عن أن الأطفال غدوا بمثابة عنصر الأمان الوحيد لهم عند الكبر.

لشدة الأزمات التى عصفت بهم فى هذه الأيام العصيبة، فكر الجميع فى الهجرة: فكر أهل القرى فى الانتقال إلى المدينة، وفكر أهل المدينة فى الرحيل إلى الخارج. لقد راودت هذه الفكرة أبونان حتى ترسَّخت فى ذهنه؛ فلقد عرضوا عليه فكرة الذهاب إلى أستراليا. أستراليا، هذا البلد البعيد الرائع حيث الحاجة إلى تعمير مساحات شاسعة من الأراضى، وإلى الأيدى العاملة. قالوا له إنه سيجد لدى وصوله منزلاً، وبقرة، وحمارًا، وثلاثة أفدنة فى انتظاره.

– إنت لا تعرف تجرا ولا تعرف تكتب يابونان. ح تعمل إيه هناك؟

– أتعلِّم .

– ما بيتكلموش لغتك فى أستراليا يابونان .

– ما بيتكلموش عربي؟ بيتكلموا إزاى بَجَى .

- بيتكلموا الإنجليزى يابونان .

- أتعلم الإنجليزى .

كان يبغى السفر بمفرده ليستقر هناك ثم يعود ليحضر زوجته وأولاده. بيد أن أم نان لم تكن ترى الأمور بهذا الشكل على الرغم من أنها قطعت على نفسها يوم زفافها عهدًا بطاعة زوجها. لقد أرسلت نداءً عاجلاً إلى دير تاسا؛ فجاءوا عن بكرة أبيهم، جاء كل من تبقى من أفراد العائلة عند الزبالين، تلبية لندائها بُغية رد أبونان إلى صوابه.

وتعمل إيه "بكوم اللحم" ده؟ مشيرين ببنانهم إلى أطفاله الذين يتكاثرون إلى ما لا نهاية، "اللى بيروح هناك ما بيرجعش".

حلف لهم أبونان بحسن نياته؛ فهو لن يترك "كوم اللحم"، غير أن تفكيره كان ينحصر فى توفير حياة أفضل لهم. كان يفكر فى حياة أفضل لأولاده، ولأحلام الصغيرة. هل كان صادقًا فى قوله؟

يعتقد أبونان وهو فى شبابه اليافع أنَّ بإمكانه أن يمسك بزمام الحياة ليوجهها كيفما شاء كالإمساك بقرنى الثور فى مصارعة الثيران العنيفة، وكأنها الفرصة الأخيرة، كان حكماء دير تاسا يعتقدون أنه يفكر فى بدء حياة جديدة مع زوجة جديدة تصغر أم أطفاله التى أثقل الحمل والعمل الشاق كاهلها.

كان يحلف بإخلاصه لزوجته؛ فهو مسيحى، وإنه لفخور بذلك. فالمسيحى يرتبط بزوجته مدى الحياة ولما بعد الممات، وإلا فما الفرق

بينه و بين المسلم؟ فضلاً عن أنه يحب أم نان. ألم يتلهف على الزواج بها؟ ألم يلاحق والدته لشدة رغبته الجامحة قائلاً لها :"جوِّزينى يامًّا، جوزينى يامًّا". لقد كاد أن يخنقها عندما حصر قدمها بين الطاولة الصغيرة، والحائط لكى تجد له عروسة. لقد أحضرت له من دير تاسا فتاة عذراء جميلة. كانت طفلة بعد. لقد وقعت من نفسه موقعًا خاصًا، واستقر حبها فى قلبه؛ فأنَّى له أن يهجرها؟

ليست ملاعبة أبو نان لأحلام الصغيرة، آخر العنقود، سوى دليلٍ على صدقه.

لم يفلح فى إقناع الوفد القادم من الصعيد، وثنته إرادة قبيلة دير تاسا عن مشروعه. لقد مكث بين الزرَّابين ليكمل حياته الهائمة حول مدينة القاهرة الكبيرة الزاحفة على المزارع حتى غدت عملاقًا أحدب. شبرا هى إحدى تلك المناطق البارزة التى غطت كل الحقول الفاصلة بينها وبين المدينة المجاورة.

هاهم الزبالون القادمون من دير تاسا والبدارى ينقلون مرة أخرى زرائبهم. في هذه المرة شدُّوا الرحال إلى حافة المقطم الغربية، تلك القمة الصغيرة المنفصلة عن السلسلة الجبلية العربية. لقد صدر قرار حكومى يقضى بانتقالهم خلال أربعة أيام.

لطالما عُدّ جبل المقطم منذ أزمنة سحيقة بمثابة محجر يتم فيه تكسير الحجر الجيرى الكبير المستخدم فى بناء أهرامات الجيزة، لا يزال حتى يومنا هذا يُستخرج منه الحجر المتواضع لبناء منازل الأعيان. كانت كهوف الجبل ملاذاً للرهبان المسيحيين، كما آوى تكية البكتاشية وحديقتهم. ذات يوم قام المقاولون بالمخاطرة فبنوا منازل ثانوية على سفح الجبل لأعيان القاهرة حيث الهواء العليل فى فصل الصيف، والشمس الدافئة فى فصل الشتاء. لقد قاموا بالتفاوض مع المسئولين، فأدخلوا الماء والكهرباء. كما خاطر البرجوازيون بالسكنى فى الجبل، بيد أن بعضهم أعرض عن ذلك بسبب كثرة الناموس، فيما رضى البعض الآخر بالحال كما هى عليه، وتزايد الإعمار.

لطالما قُرنت الصحراء بالموت، لكن لطالما أرادت الحياة أن تغمرها؛ فقبل مجيء هؤلاء البرجوازيين كانت هناك مقابر كثيرة ما تنفك تزحف على طول الهضبة التى تحيط بالقاهرة القديمة فى اتجاه المقطم. إن جفاف أراضى تلك المنطقة أشبه بجفاف المقطم. لقد شيد المماليك الذين حكموا مصر لعصور طويلة - وعلى غرارهم

العثمانيون - أضرحتهم الفخمة، ثم شيد الأغنياء أضرحة أقل فخامة، وفى العصور الحديثة بنى اليهود والمسلمون أضرحتهم الخالدة، بينما اكتفى البسطاء من الناس بشاهد، وامتلأت المقابر العامة بمن قضى نحبه من الفقراء. لقد تكونت مدينة حقيقية للموتى تحت سفح الجبل، يقطنها العديد من الأرواح ريثما يحين يوم القيامة، ثم ما لبث أن غزاها الأحياء رويدًا رويدًا. كانوا قلة فى البداية. كان هناك حارس يقيم على كل قبر من قبور الأعيان. هذا الحارس فى أغلب الأحيان فلاح يتم تعيينه على قبر أحد كبار ملاك الأراضى ليهتم بضريح المتوفى؛ حيث تلتقى عنده العائلات التى فقدت عزيزًا لها. بُنيت للفلاح حجرة من الحجر الصلب. لقد أعدَّها ضربًا من الرفاهية؛ فهى ملحقة بباحة صغيرة مفروشة بالورود يتعين عليه العناية بها. حضر الفلاح برفقة زوجته وأبنائه، ثم ما لبث أن لحقته القرية بأكملها. جاءت بعد ذلك الثورة والحروب ضد إسرائيل. لقد رحلت العائلات اليهودية الكبيرة عن البلاد، ثم تلتها عن كثب العائلات المسلمة الكبيرة. زد على ذلك لاجئى المناطق المنكوبة فى قناه السويس الذين توافدوا مع موجات الفلاحين النازحين من شمال مصر وصعيدها. لقد اقتحموا أبواب القبور، وغمروا الباحات المليئة بالورد. أنشأوا المحال التجارية، وشيَّدوا المباني؛ ففى يومنا هذا تعج مدينة الموتى بالحياة عجًّا، فى قلب الصحراء.

هناك طريق تفصلها عن المقطم، ذاك الصخر الجيرى المشقوق. تردد طلاب كلية الطب على هذا المكان المعزول للبحث عن جثث الفقراء المدفونة دون كفن لاستخدامها فى دروس التشريح. كانت هناك ضيْعة صغيرة ترجع إلى ستينيات القرن العشرين، وتضم حرفيين يعملون لصالح تجار السوق. وقد وجد الحرفيون فيها الملاذ عندما بدأت منازل المدينة العريقة فى الانهيار. لقد عبر الزرَّابون هذه الضيعة، وارتقوا إلى بطن الجبل المشرف على قلعة صلاح الدين من الجهة الأخرى، ثم استقروا فى السفح الذى لم يقم أى من المقاولين بإدخال الماء ولا الكهرباء فيه. فلا يوجد شيء البتة فى هذا المكان. لا شيء سوى تلك الصخرة المحلة المتوعدة المكونة من الحصى والرمال. محال أن يحفر أحد للبحث عن منبع للمياه، عن شيء يعطى للحياة بصيصًا من الأمل ليصرع الموت؛ فهم يبغون العيش فى قلب الموت.

كان مقامهم الأول عند سفح الجبل فى مكان يدعى التنجزاوى. بيد أنهم لم يشعرا بالأمان؛ فالأغنياء الذين مازالوا أحياء يتنازعون معهم على هذا المكان الذى تقطنه الأرواح. كم من الشهور أم كم من السنوات مكثوا هناك؟ أمكثوا ريثما تطورت الأحداث فحوّلت هذا المكان القحل إلى مكان جديد؟ لقد أصبحت التنجزاوى ذلك المكان الذى يطلق عليه اليوم اسم منشية ناصر، نسبة إلى ناصر ذاك البدويات لأبونان الذى أصدر ذات يوم قرارًا يقضى بطرد حرفيى القاهرة القديمة إلى مكان أبعد من مكان إقامتهم. لقد أدرك الزرَّابون أنه فى يوم ما سيضطرون إلى الارتقاء إلى بطن الجبل لكى لا يكون لهم من

مأواهم طاردٌ، ولكى لا يكون لهم على هذه الصحراء الجديدة منازعٌ.
فى جبل البدارى الموجود على الضفة الشرقية للنهر فى أسيوط كان يختبئ الهاربون من حكم المؤبد فى المغارات ويرهبون السكان؛ فمحال لأى قوة أمنية أن تعثر عليهم. إنهم المطاريد. أما هم فشأنهم شأن المطاريد: سيكونون فى مأمن فى بطن الجبل، وفى معزل عن الأحياء الذين ينبذونهم.

لم يعرفوا أن هذا الجبل كان آنفًا مكانًا للمعجزات. حتى المثقفين من الناس يجهلون ذلك. يجب التنقيب فى أدب الحروب الصليبية، وبالخصوص فى أعمال الأسعد بن مَمَّاتي[1] الكاتب، والشاعر، والمؤرخ الأيوبى الكبير. فهذه السلسلة الجبلية التى تدعى بالمقطم تمتد إلى سيناء، ذلك المكان المبارك الذى كلَّم الله فيه موسى. فعندما حلَّت الليلة التى كلم الله فيها موسى، توجه الله بالحديث إلى الجبال قائلاً: "سأكلم أحد أنبيائى عن أحدكم". فانتصبت الجبال، وانتفخت غرورًا إلا جبل بيت المقدس الذى انحنى وبدا متواضعًا. سأله الله العظيم الذى كان يعرف السبب: "لم تصرفت هكذا؟" فأجاب: "لتعظيمك، وتنزيهك يا إلهي". فسأل الله الجبال الأخرى أن تعطى لجبل بيت المقدس بعضًا من خضرتها؛ فأغدق عليه المقطم بكل الزرع الذى كان يغطيه".

---

(1) (544هجرية- 606هجرية) من أسرة قبطية من أسيوط. شغل رئاسة ديوان الجيش وديوان المال فى آنٍ واحد فى عهد صلاح الدين الأيوبى. له مؤلفات فى الأدب والدين والتربية والتاريخ والشعر، كما نظم كتاب كليلة ودمنة. (المترجمة).

فى تلك القصة المأخوذة عن الأسعد بن ممَّاتى ما يفسر بؤس هذا الجبل حيث جاء الزرَّابون ليعيشوا فيه رغم أنه مكان تجلت فيه القدرة الخارقة، وانتصب بفخر ناظرًا إلى السماء حيث يكلمه الله لينبئه بخبر تكليمه لموسى، وآوى ابن مريم وشعب الله. ففى ذات النص أسطورة تروى أن السيد المسيح مرَّ بسفح المقطم مرتديًا جبة صوفًا برفقة والدته، فالتفت إليها وقال لها : "يا أُمَّاه ها هى ذى مقابر أُمَّة محمد" .

المقطم، ابن مصر. إنه رمز مصر المجرَّدة من كل شيء، بيد أنها تحتفظ بكرامتها المعنوية، كرامة أرض مقدسة.

لكن لا تزال تلك المعجزة حيَّة فى سيرة قديسى الأقباط المسيحيين، وما كان على الزرَّابين إلا انتظار مجيء أحد الرهبان لمعرفتها.

إن أول من غامر حتى وصل إلى بطن الجبل هم من دير تاسا عدا أبونان، أى شحَّات، الذى جاء من قرية مجاورة. لقد قاموا غير مرة بنقل ما يُؤمِّن مأواهم من الخشب الهالك، والصفيح الصدئ الذى كان شديد الحرارة فى الصيف؛ حتى إن الأطفال كانوا يبكون لشدة تألمهم، وشديد البرودة فى الشتاء؛ حتى إن كل الأقمشة البالية التى يضعونها فوق بعضها البعض لا تكفى لوقايتهم من البرد. غير أن نَفَس الحيوانات له أثر طيب. كان يتعيَّن عليهم إحضار الماء إلى سكان

السهول الواقعة على سفح الجبل، فيملأونه فى خزانات مثبّتة على عجلتين يجرهما حماران. أكبر هذه الخزانات سعته من عشرة إلى اثنى عشر جركنًا يسع ما يقرب من مائة وثمانين لترًا. غير أنه يتعين الانتظار ريثما يعود الحمير من رحلتهم الصباحية؛ فهم ينطلقون عند الفجر فى اتجاه المدينة لجمع الزبالة. إنهم ثلاثة حمير؛ فالثالث يساعدهم على الصعود. لم يكن للحمار ولا للزرّاب أن يحظيا بالراحة؛ فعند الرجوع يجب الذهاب بحمارين لا ثلاثة لإحضار المياه التى تمثل قيمة غالية للحياة، لا سيما لحياة الخنازير؛ إذ سريعًا ما يموتون عندما يصيبهم الجفاف لشدة العطش. يذهبون إلى مكان أبعد من منشية ناصر لإحضار المياه؛ فسكان المنشية ليس لديهم ما يكفيهم من ماء. تستغرق تلك الرحلة أحيانًا أربعًا وعشرين ساعة، وعلى سكان الجبل إحضار المياه ثلاث أو أربع مرات فى الأسبوع. فإن لم يكونوا أغنياء بما يكفى لملء خزان بأكمله - يكلفهم ذلك قرابة جنيه واحد - يشترون من جيرانهم العديد من الجراكن أو حتى جركنًا واحدًا مليئًا بسعر مُرابٍ أمين. لربما يقطن هؤلاء الجيران أسفل الجبل بعيدًا كما تبعد عنهم منشية ناصر. يتكبد الأطفال العناء الشديد عند مزاولة هذا العمل الأبدي؛ إذ يحملون الجراكن فوق رؤوسهم، ولادّخار المياه كانت الخنازير تكتفى بشرب المياه العطبة.

هل تعود هذه الهجرة إلى الجبل إلى عام 70 أم إلى عام 71؟ هل تعود إلى السنة التى توفى فيها ناصر؟ كانت أم نان قد وضعت آنذاك ولدًا، فحضر إذن أبونان بصحبة خمسة أطفال: نان، ورياض،

ونادية، ويانّي، وأحلام، ومترى. مترى هو تصغير لاسم ديميترى. كان يبلغ حينها أربعين يومًا، وأحلام عامين. لقد عاشا بعد أن فقد والداهما ثلاثة أطفال. كانت أم نان وابنتها البكر نادية تخشيان عليهما من الموت. هل يمكن الوقاية من جميع الأمراض، ومن القرين فى ظروف فقر مدقع كهذا؟ كانت لعبة أحلام هى فرز الزبالة، لتحاكى الكبار، ولتساعد أمها كما يُخَّيل إليها؛ فكان ذلك يُشعرها بالأهمية. لقد كانت تجد أشياء مثيرة فى الزبالة: دمية عارية، وأقمشة بالية لتغطّيها بها، وطماطم عطبة لتسد جوعها. زوَّجوها فى عام 1982م رغمًا عنها. كانت تبلغ أربعة عشر عامًا، لكنها لم تعد تريد أن تفعل كالكبار. هل تُعد طفلة فى الرابعة عشر من عمرها ناضجة للزواج؟ كان أبو نان يقول: "ناضجة جوي". هل كانت تبلغ الرابعة عشر فقط؟ هل سيزوجونها إلى ابن زرَّاب مقابل لا شىء ؟ مقابل بعض الأساور الذهبية، شأنها شأن خادمة تعمل طوال اليوم، وتوفر أيضًا خدمة الفترة المسائية. فلنتريَّث، فأحلام لا تبلغ بعد إلا عامين، وتلعب بفرز الزبالة، عامان؟ العمر فى هذه المجتمعات لا يُحسب إلا بالتقريب، كما أن ترتيب المواليد هو محط الشكوك. اكتملت حبات مسبحة مجدِّس مع ولادة ابنته الثامنة. أما عن صهريه نعيم و سليمان جندى فقد رزقا بنعيم وأمل، وهما والدا عزت، و سليمان و جمالات، والدا داود. هل وُلدت صباح قبل داود؟ لم يتعجلا حمل لقب الأم والأب، ذاك اللقب العظيم، بل انتظرا ريثما يحالفهما حظٌ أفضل من ذلك حتى رُزقا بابنهما داود.

كانوا جميعًا طموحين، ويأتون من صعيد مصر؛ فقد قرروا الخروج من قراهم لمكافحة الفقر والصحراء. ما إن تكبر الفتيات بعض الشيء حتى يقمن بمساعدة أمهن فى فرز الزبالة، وحمل إخوتهن وأخواتهن الصغار. تتسلى أحلام بحمل مترى ومداعبته. أما الصبيان فيعاونون آباءهم. يتمتع الآباء بسطوة كبيرة؛ فهم يقررون مصير عائلاتهم. أما القهوة فهى تؤثر فى سعادة العائلة؛ فالقهوة عالم من الرجال يلعبون الورق، والدومينو... أو بالسكاكين. مباركة تلك الأسر التى لم يكن رجالها يرتادون القهوة لكى يحافظوا على علاقة العمل التى تربطهم بزملائهم، من أمثال مجدّس وأبونان. ملعونة الأسر الأخرى. كان نعيم وسليمان يرتادان القهوة لجلب التعاسة. بل نعيم أسوأ حالا من سليمان؛ إذ يعود إلى منزله ثملاً حتى الموت، فيضرب زوجته وأولاده، يهددهم بالقتل بالسكين أو بالمسدس، ويطلق طلقات نارية فى الهواء لإرهابهم أكثر فأكثر. هل سيتخلص فى النهاية من كوم اللحم الذى يثقل كاهله؟ لفرط إدمانه الخمر، أخذ من المال المخصص للمنزل. أما أمل فهى أشبه بالقطة التى تحمى صغارها من القط الهارون، فتضع جانبًا بعضًا من المال لتطعم أطفالها، لكن نعيم يرجع ثملاً، فيبرحها ضربًا. هل تلومه نفسه بعض الشيء؟ إنه كان يحبها، يحب أمل، فيكفى اسمها الذى يحمل فى طياته معنى الأمل. كان يحلو له أن يغازلها قبل الزواج فيلقى على رأسها بقشور البرتقال عند رجوعه من دورة جمع الزبالة. هذه هى طريقته فى مغازلتها، واقفًا على عربة الكارُّو المليئة بالزبالة، ممسكًا بعنان الحمارين الجائعين،

يضحك ملء شدقيه، بينما هى خجلى من ملاحظته لها. لقد راق له خجلها، وفظاظتها أيضًا. كما أنه أخذ من الأهل عهدًا بأن تكون من نصيبه زوجةً. لم يكن يطيق أن يراها تبكى، لكن الخمر جعلت منه كومة من العضلات بدون رأس ولا تمييز، أشبه بوحش كبير سحقه القدر. كانت لذة نعيم فى إرهاب أسرته تضاهى سُخطه.

لقد تقاسم الأخَوان والأختان السكن، وتجارة الورق والبلاستيك. فصل بينهما فيما بعد حائط من الطوب غدا مصدر مشادات لا تنتهى. قبل بناء ذاك الحائط كانت تُشد قطعة من القماش البالى على الحبل لتقوم مقام البرافان.

فى القرية تُبنى الحوائط من الطين والقش فتقوم بالعزل نوعًا ما. لكن هنا، هل لنا أن نتحدث عن حائط؟ فكل مشاجرة، وكل فرحة، تكون على مسمع ومرأى الجميع، ثم ما يلبث الحزن أن يقبع على الجبل بعد ليالى السُكْر هذه، كغداة هبوب الإعصار. يبكى مجدِّس لشدة حزنه على بناته؛ فهو مَنْ زوَّجهما، وهو مَنْ اختار لهما هذين الأخوين الطموحين لكنهما سيِّئا الطباع.

"الفقر هو السبب، نعيم راجل جدع. هى الدنيا اللى خانته" هكذا كان يقول له أبونان.

حلم زرق مترى شحَّات الملقَّب بأبونان بحياة أفضل. حلم بأستراليا. لا يزال يحلم لنفسه ولعائلته؛ فهو يودُّ أن تتفتح الحياة. إنه

يريد الحياة، حياة تليق بجمال أحلام. كانت أستراليا كسراب الجنة فى الأرض، بيد أنه لا يزال قابعًا فى عالم الزبالة والخنازير، يشهد مآسى البؤس.

لا يقارن نفسه بالأغنياء؛ فهو لا يعرف إلا زبالة الأغنياء. كما أن الزبالة هى ثروته، ورأس ماله. إنه يتمنى أن يزداد الأغنياء غنًى ليجمع بقاياهم أكثر فأكثر، فهو يقارن نفسه بمن هم أشد منه فقرًا، كما أنه يكسب ما يفى لإطعام عائلته , بينما يعيش آخرون فى فقر مدقع، ويُقبّل بطن يده ليشكر ربه.

"نحمده و نشكره" : يقولها بصوت عال.

كل شيء عسير على هذا الجبل، لكن هناك نسمة خفيفة فى الصيف، وشمسًا دافئة فى الشتاء. صحيح أنه يعانى من قيظ الشمس فى الصيف، ومن البرد فى الشتاء، إلا أنه يشرف على مآذن القاهرة الفاطمية، وقباب الكنائس، والأهرامات أى كل هذه المنطقة المكتظة بالسكان منذ إنشاء السكة الحديد التى التهمت الصحراء والأراضى الزراعية. يرى أبونان أسطح المنازل المسطّحة، وما بها من أوراق النخيل، والكراسى المكسورة، والخردة بأنواعها، يرى مشهدًا لقريته البعيدة. يخيل إلى أبونان وهو ينظر من أعلى الجبل أنه يرى ماضيه، ويرى العالم بأكمله، يُقبّل مرة أخرى بطن يده، وظهرها ليحمد الله. لكن هذه ليست الحياة التى كان يتمناها؛ فلو أنه ذهب إلى أستراليا لوجد

فرنًا آخر لخبز خبزه، ومدارس وأطباء لمداواة أولاده، ولكان بوسعه أن يدلِّل أم نان أكثر من ذلك.

لقد سئمت أم نان من العمل، ومن الحمل بطفلها حتى يحين موعد ولادته، وإرضاعه لمدة سنتين ثم ما يلبث أن توافيه المنية، وأحيانًا يبقى على قيد الحياة. لقد سئمت من فرز الزبالة، ومن غسل الغسيل تقريبًا بدون مياه أو بدون مياه نهائيًا، ومن الطبخ باستخدام الوابور الذى يسبب تارة حريقًا صغيرًا وتارة حريقًا كبيرًا. ابنه الأخير مترى جميل جدًا، أبيض اللون، ذو عينين زرقاوين. لقد قوى على قرينه اللعين. إنه جميل كبقية أطفال أبونان: نان، ورياض، ونادية، ويانِّى، ونور...

لا يزال ينادى هذه الطفلة بنور. لماذا تكره نور اسمها؟ ترى أن اسم أحلام أرقى من اسم نور، على الرغم من أن النور يشبه الأحلام، فهو لون الشمس. يالها من طموحة أحلام هذه! أى أحلام يمكن نسجها فى ظلال الخنازير والزبالة؟

راود أبونان حلم: أستراليا؛ لأجل أولاده لأحضر قمر أستراليا. لأجل من عاشوا، ولأجل من سيولدون، لأحضر القمر، ولحصل على مكان فى الشمس.

كان لحلمه ثقل كوم اللحم. لقد قتلوا حلمه وهو لا يزال فى المهد مع كوم اللحم، لكن أى متعة كان ليتقاسمها مع زوجته غير الحب، فى ليالى الشتاء الطويلة بدون ماء وكهرباء؟ لم يكن يذهب كل ليلة إلى

القهوة. فى ليالى الصيف عندما يسطع القمر، يسهر طويلاً إلى جانب زوجته عند مدخل العشّة. جسداهما يرتعشان، يرتعشان من السعادة، بينما يركض الحمير الطلقاء بكل سعادة فى ضوء السماء الخافت مع الأطفال المسموح لهم باللعب معهم.

فى عالم تملؤه القمامة، فى قلب الشوارع الصغيرة مجهولة المعالم، المكتظة بالعلب المحفوظة المسحوقة، وبالورق البالى، وبقايا الطعام، وجثث الحيوانات الميتة التى يغطيها الذباب، والبراغيث، والمسامير، وتأكلها الفئران، فى التصاق العائلات الفقيرة ببعضها، فى غياب الخصوصية، كان بإمكان والد أحلام ووالدتها أن يشعلا نار الحب.

كان عليهما إنجاب أطفال، الكثير من الأطفال، لمساعدتهما فى العمل الشاق. للأمان، للمستقبل، للمتعة، المتعة الوحيدة التى كانت لهما.

لم تسنح الفرصة لأبونان للذهاب إلى أستراليا.

حدث ذلك قبل نكسة 1967م.

طرق زبَّالٌ باب خدم السيد هيم، النائب الرسولى للبابا فى الزمالك، فى حى القاهرة الراقى، ليطلب من القس أن يسديه خدمة جليلة؛ فأولاده يحتضرون، ويريد من القس أن يعمِّد له المولود الجديد؛ فتدخل رجل الكنيسة سينقذ حتمًا أولاده من الأرواح الشريرة.

القس : من أين أنت قادم؟

الرجل: من عزبة النخل .

القس: على ما أعتقد أنك قبطى أورثوذوكسى. أما أنا فكاثوليكي؛ فلن يكون بإمكانى تعميد ابنك، لكننى سأتصل بأنبا ساموبل، وسيتولى هو الأمر.

وهكذا اكتشف أنبا ساموبل المعنى بالشئون الاجتماعية للكنيسة القبطية الأرثوذوكسية وجود شعب الزرَّابين، ضحية الأرواح الشريرة، وإهمال الإنسان.

لا تحدد الرواية ما إذا كان المولود الجديد لعزبة النخل قد تم تعميده أم لا، أو ما إذا قاوم هذا المولود الأرواح الشريرة.

بيد أن أنبا ساموبل أنشأ فى المقطم لهؤلاء الزرَّابين جمعية جديدة لدفن موتاهم وفقًا للشعائر المسيحية.

ذهب رجال الكنيسة إلى عزبة النخل لمقابلة الفقراء. ذهب إلى هناك كل من السيد هيم، وأنبا ساموبل، وآباء اليسوعية ثم تلتهم الأخت إيمانويل.

سأل النائب الرسولى الراهبة التى تخالط عِلْية القوم والتى وهبت حياتها للمسيح : "هل بإمكانك أن تعيشى بين الزرّابين ؟"

لم يقدِّر النائب الرسولى نتائج اقتراح كهذا. فبالنسبة إلى الزرّابين كان ذلك بمثابة هزة أرضية فعلية ألقت بهم إلى الساحة الدولية.

تنتمى الأخت إيمانويل إلى المجتمع الدينى الأرستقراطى: راهبات سيدة جبل صهيون، بيد أنها شعرت أنها بعيدة عن رسالتها؛ فهى تعمل لخدمة أطفال الأغنياء.

تود أن تعيش إلى جانب مرضى الجذام، بيد أنهم كانوا يعيشون فى المناطق العسكرية المحظورة على الأجانب والمصريين. لم يكن بوسع أحد أن يقدم يد العون لمرضى الجذام؛ فعرض عليها النائب الرسولى الزبّالين.

عقدت الراهبة الأمل على العيش وسط زبالى إمبابة. ذهب السيد هيم إلى هناك بصفته مرشدًا روحانيًا، وبرفقته طفل من الزرّابين يجمع

الزبالة من الدير بدلاً من أبيه المريض، لكنهم لا يريدون فى إصابة راهبة من راهبات سيدة جبل صهيون.

لذا قرر أنبا ساموبل أن يسهل عليها المهمة؛ فأرسل لها رسولا: الأب صليب. يعرف الأب صليب فى هذا العالم الذى لا يثق "بالغرباء" سواء كانوا مصريين أم أوروبيين، زبالاً طاعنًا فى السن من الإسماعيلية يُدعى عدلى. لقد جمع عدلى ما يكفيه من مال من تجارة الزبالة ليكفل لأطفاله التعليم فى مدارس المبشرين. إنهم يعرفون فى عائلته القراءة والكتابة. لقد عرف عدلى أن التعليم أهم من الثروة لصعود السلم الاجتماعى، وإلى ما غير ذلك؛ فهو لا يصرف إلا الضرورى، ولا يبتعد عن عالم الزبالين الذى يوفر له لقمة العيش. غدا عدلى رئيسهم؛ فهو يعيش بين مرؤوسيه على غرار مرؤوسيه فى عزبة النخل.

ذهب عدلى وابنه الكبير لبيب ليريا للأخت إيمانويل عشة الماعز الصغيرة التى ستسكن فيها. رغم أنهما لا يريانه مناسبًا لقدرها فقد أعجبها. ستعيش المعزتان مع الخنازير، وبذلك ستُضم عشة مجاورة إلى هذا المكان الذى تبلغ مساحته ثلاثة أمتار أو مترين فى مترين، والعشة أكبر قليلاً، فتبلغ مساحتها ثلاثة أمتار فى ثلاثة أمتار، وبهذا يكون المكان أقرب إلى شقة أرضها من الطين المطروق، وسقفها من ورق النخيل الجاف، وحيطانها من ألواح الخشب البالية.

قالت الأخت إيمانويل إنها تنتقل إلى سكن آخر شأنها شأن العروس من الشعب المصرى البسيط عندما تذهب إلى منزل الزوج. فالأخت إيمانويل التى احتفلت بمراسم زفافها إلى المسيح تسمع من خلال نداء الفقراء نداء المسيح، الذى هو بمثابة زوج لها. بالنسبة إليها كما بالنسبة إلى كل مسيحى حقيقى لم يتجسد الله فى فرعون بل فى هيئة رجل فقير مسكين. ذهبت لتستعد لزواجها، لدُخلتها.

ليست هناك للتبشير بالإنجيل. إنما لتجنى ثمار زواجها: نشاط اجتماعي.

نشاط: حملت العربة الكارُّو "جهاز العروس" من كراس ودكك أحضرتها رفيقتها الأخت جيزلين لإنشاء فصل للأطفال، بيد أن الأخت إيمانويل "استولت عليها" لتضعها فى المدرسة التى تعتزم فتحها فى "شقتها". ما فتئت تردد أن الأطفال هم المستقبل، فيجب أن يتعلموا القراءة والكتابة لضمان المستقبل، فتسعى لتحقق ذلك.

لقد أُخذت الأخت إيمانويل بابتسامات الأطفال ونظراتهم التى تشع أملا، والذين طفقوا يرددون كلمة شكرًا، شكرًا على ماذا؟ فهذه الابتسامات، وهذه النظرات هى أدعى بالشكر. لعل الأخت إيمانويل التى تبغى الوصول إلى الله، ولا أقل من ذلك، لعلها وجدته، وجدته فى هذه النظرات، وهذه الابتسامات التى تقول كموسيقى موتسارت: أحبونى، فأنا أحبكم.

لقد عاشت وسط القمامة، والفئران، والبراغيث حياةً رائعة، على حدِّ قولها. يجب أن نصدقها. لقد وجدت هناك معنًى لحياتها. لا شك أنها تعنى بذلك أنها وجدت الله الذى ما فتئت تبحث عنه منذ يوم زفافها الروحانى.

كانت تبلغ من العمر ثلاثة وستين عامًا فى عام 1970م، السنة التى وُلدت فيها أحلام، والتى فاضت فيها روح ناصر. لقد بكاه أبونان والزرَّابون كمن يبكى والده؛ فقد تذكروا منافع الإصلاح الزراعى.

تلى السادات ناصرًا. بيد أن الفقراء لم يلح لهم فى الأفق ما يبشِّرهم بمستقبل أفضل.

فى معترك هذه الأحداث، وصل إلى المقطم قس يدعى فرحات إبراهيم. هل أرسله الراهب سمويل؟ هل سبق له وأن سمع بهذه الراهبة التى غدت ملء السمع والبصر فى العاصمة؟

لقد وصل إلى عزبة النخل فى الوقت الذى بدأت فيه الأحداث تتوالى سراعًا؛ ففى الحادى عشر من فبراير فى عام 1974م وقعت ذات الحادثة المعهودة فى الضاحيات المهمشة، دفعت الأخت إيمانويل إلى أن تسلك مسلك الشحاتة. إنها الخمَّارة، والخمر، والقمار. لعب بأزق وخسر. لم يعرف الشركاء وسيلة أخرى غير السكين لتسوية حسابهم. لقد قتل رجل رجلاً آخر، ذاك بأزق البالغ من العمر ثمانية

عشر عامًا. لقد تأثرت الأخت إيمانويل أيّما تأثُّر، وأرادت أن تحولَ دون تكرار هذه المأساة.

كانت ترى الأخت إيمانويل أن المال هو النقّالة التى تلزمها لرفع الجبال، بيد أن هذا المال ليس موجودًا فى البلاد، ولا يصل بسهولة من الخارج؛ ففى عام 1974م كانت الحكومة تستعد لتصفية النظام الاشتراكى، لكنها لم تكن قد صفته بعد.

لقد جالت أرجاء العالم الفسيح لتجمع المال.

"أنا بحاجة إلى ثلاثين ألف دولار" صرَّحت بصوت عال.

فى روما، لا شىء. فى جنيف، حمَّست شارلوت فلوريس وزوجها. معًا طرقوا الأبواب: المجلس الكنائسى، والمركز الكاثوليكى، والبروتستانت، والكاثوليك فى زيورخ ولوكارنو.

قالت الأخت إيمانويل إنها ستقوم بالسطو للحصول على الثلاثين ألف دولار.

يتصدر عناوين الصحافة فى جنيف العنوان التالى: راهبة طيبة تبغى القيام بعملية سطو.

لم تُثر الدعاية الإعلامية حافظة نقودها، بيد أنها لم تفقد حماستها. فى لندن، وبروكسل، وبالعودة إلى سويسرا كانت تُرى صور من تدعوهم زباليها، وتحكى لهم عن الظروف اللاإنسانية التى يعيشون

فيها، وعن كل المآسى التى من الممكن الحيلولة دون وقوعها إذا ما تم توفير ملعب، ومدرسة، وظروف معيشية مناسبة.

جمعت الثلاثين ألف دولار من الخارج، بينما يتزايد التضخم فى مصر بخطى سريعة حتى غدا الاقتصاد الوطنى فى حالة توتر. لقد ارتفع سعر الأراضى مائة مرة أو مائتى مرة، وارتفع سعر المبانى عشرين أو أربعين مرة.

لم تعد تكفى الثلاثين ألف دولار، فطفقت الأخت إيمانويل تنظم حلقة من أصدقائها فى أوروبا لتلحق بقطار التضخم السريع. أصبح لها فروع فى بلجيكا، وفرنسا، وجنيف. فى الرابع والعشرين من نوفمبر تحدثت جريدة جنيف عن "ملائكة" مدن الصفيح، وعن الزبَّالات وسط الزبالين إشارة بذلك إلى شارلوت فلوريس التى فقدت زوجها، وتركت عملها لتكرس حياتها للعمل مع الأخت إيمانويل.

ثم بعد ذلك اتجهت إلى أمريكا الشمالية.

فى نيويورك توجهت "زبالات" مدن الصفيح لرجل شاب كانتا قد التقيتا به فى القاهرة يُدعى منير نعمت الله، خبير، واستشارى فى إدارة النفايات.

غدا دفتر عناوين الأخت إيمانويل مليئا. كانت إحدى تلميذاتها القدامى منذ قامت بالتدريس فى تركيا سيدة ثرية تقيم فى منهاتن فى الجادة الخامسة. إنها سوفى فلافيدس، يونانية الأصل. بيد أنه فى الجادة الخامسة لا يسمحون بالدخول لأى شخص، فضلاً عن أن الأخت

إيمانويل كانت ترتدى صندلاً شنيعًا ابتاعته دون أدنى شك من زبّالى القاهرة – على حد قول شارلوت. فاستغاثت السيدات الثلاث بمنير نعمت الله الذى شهد بأمانتهن، وأدخلهن فى هذا العالم حيث أغطية السرير المرصعة باللآلئ الثمينة، وأدوات الطعام المرصعة بالذهب الخالص. لقد قوبلن بترحاب، ورحلن ومعهن أول دفعة من النقود. تصادف وجودهما فى واشنطن مع توقيع السادات وبيجن اتفاقية كامب ديفيد. لقد غدت مصر محط أنظار العالم الغربى، وأصبحت سيرة البلد ورئيسها على كل لسان، بطل السلام، و بطل الحرب. الجميع يتحدث عن الأخت إيمانويل، زبّالة تعيش وسط الزبّالين. إنهم يقدمون لها المال. يتزايد السائحون؛ فهم يرغبون فى رؤية عالم الزبّالين، وتدعوهم الأخت إيمانويل لزيارتهم.

ليس للملبس الأهمية نفسها عند الراهبة البلجيكية البرجوازية كما عند ابن الزبّال، بيد أن شارلوت تحاول أن تضفى على مظهر الأخت إيمانويل ما يجعلها تبدو بشكل أفضل. فهى تغسل هندامها المقطوع، وتستبدل به الجديد، وترمى فى سلة المهملات خُفَّها البالى الذى جعل منها موضع شك لدى بوّابى مانهاتن. بيد أنه ليس بإمكان شارلوت أن تتوقع الغيب؛ فها هو طاقم أسنان الأخت إيمانويل يسقط فى الوقت الذى ستظهر فيه على شاشة التلفزيون. على الرغم من ذلك ألقت الراهبة خطابها مصحوبًا بصوت أشبه بالصاجات من جرّاء تصادم أسنانها بعضها ببعض.

تنتقل صور البؤس من يد إلى أخرى، وتعبر أمام نظرات الغرب فترى فتاة صغيرة تُشبه أحلام، يقومون لها بعملية الختان، فتاة تفرز القمامة، وتجد طماطم عطبة فتأكلها. كانوا يبغون إيقاف حركة يدها، وإعطاءها حمَّامًا، وأخذها إلى المدرسة حيث ينبغى أن تكون تلك الفتاة الصغيرة الشقراء. يريدون أن ينتزعوها من وسط الخنازير، والقاذورات. يريدون أن ينتزعوا السكين المجرم الذى يشوه جسد طفلة صغيرة.

تمر الصور من يد إلى أخرى، وتحرك الخيال. لقد اكتشف العالم أجمع منذ أن أعلنت الأمم المتحدة تكريس عقد بأكمله للمرأة، وإلى النهوض بها، الظروف المشينة التى تعيش فيها؛ فيسيطر عليها الأب، وتبتر الأم أو الداية العضو الحميم من جسدها، فيملؤها الرعب فى كل حال من الأحوال.

ومن ثم أعطى الجميع المال للأخت إيمانويل، مال لمحو الصور. لقد أعلنت الأخت إيمانويل على شاشات التلفزيون - تصاحب كلماتها تلك الموسيقى الأشبه بالصاجات التى تُحدثها أسنانها - أن المال هو عصب الحرب.

لقد ردت الصدقة النوم إلى جفون الغرب بعدما كان مشهد البؤس، وبشاعة بتر العضو الجنسى قد أقضَّ مضجعه.

لقد أثار ذلك حفيظة السلطات المحلية، فجعلت تشير بأصابع الاتهام إلى هذه الدعاية المغرضة التى تهدف إلى تهديد السياحة؛ فالعالم كله يتوافد على بلد بطل السلام، بينما توجه الأخت إيمانويل الأنظار إلى ما تريد هى أن تظهره، زريبة كبيرة، وفتاة صغيرة شقراء يتم ختانها، وتفرز الزبالة، وتجد طماطم عطبة، وتأكلها. إنها أحلام التى أرادوا أن يقتلعوها من الزبالة.

لم يدر زرّابو المقطم أنهم كانوا يقيمون فى منطقة تعد من أهم روائع العصر الإسلامى، ذاك العصرالفاطمى الذى يحتفلون بألفيته، ويحلمون بأن يردوه إلى سابق عهده العظيم. تقع عزبة النخل التى استضافت الأخت إيمانويل على الحدود المترامية لحى لا يمثل أهمية معمارية أو تاريخية. وسوف يعكف الفرنسيون على إنشاء مترو الأنفاق ينطلق من ضاحية مجهولة ليمر بعزبة النخل، بينما يشرف جبل أحلام على عاصمة عريقة كانت فى يوم من الأيام تنافس عاصمة بغداد فى الجمال والأهمية، تلك القاهرة ذات الألف مئذنة، الثرية بالروائع التى تم تشييدها قبل العصر الفاطمى وبعده. ألف مئذنة، وألف قبّة، تشهد السماء على رموز نهضة مصر القديمة، البصل، والهبات من الخبز، هذه الرموز المختبئة فى القبور، والتى يتم إطلاقها فى السماء. فلا يخفى على اللبيب أن البصل المتوارى تحت الأرض

كالميت المدفون تحت الثرى يحيا من جديد، وأن الخبز يدعى "عيش" بالعربية، وباللغة المصرية القديمة.

طالبت سيدة مصر الأولى القيام بمشروعات كبيرة بصدد ترميم شارع حظى بمكانة مهمة، ألا وهو شارع المعز لدين الله الذى يحمل اسم مؤسس الدولة الفاطمية العريقة. الشارع ثرى بكنوز الفن، ويكتظ بالفقراء، وينضح بالقاذورات الفقيرة.

قال الأغنياء ممن يتملقون سيدة مصر الأولى: إن هذه العائلات المكتظة فى أماكن العبادة تحط من قدر اسم المعز لدين الله، فضلاً عن أن المعز لدين الله شاعر، وأديب رفيع الذوق، يهوى المحاورات الفلسفية. ما كان له أن يطلق اسمه على هذه الجيوب الملطخة بالفقر المزري.

إنها لإهانة لمدينتهم ذات الألف عام أن يشرف عليها جبل يموج بالزرّابين.

لقد هاجموا من يأوون إلى المساجد، وطردوا البسطاء القادمين من الريف اللاجئين إلى بيوت الله.

فى انتظار يشوبه اليأس لإيجاد سقف جديد، ومع قطع المياه عن المكان المخصص للوضوء، كان هؤلاء البسطاء الذين تم طردهم إلى الشارع يزيدون من اتساخ الأماكن. أما فى خارج المساجد، فى هذا

الشارع نفسه، شارع المعز لدين الله، كانت تطفو على مياه المجارى الحجارة القديمة، الشاهدة على التخريب والتدمير الناجم عن قرون من الإهمال.

اقترحت سيدة مصر الأولى على الزبَّال أن يؤدى عمله ليلاً، طلبت منه أن يختفى فلا يؤذى أنظار السائحين، وذلك لحين إيجاد السلطات المحلية الوسائل الكفيلة بتطويرها حتى ترد للجبل كرامته.

تم تشكيل وكالة معنية بنظافة المدينة الكبيرة وتجميلها لدراسة المسألة. يجب أن تحل الآلات الميكانيكية محل عربات الكارُّو البالية. لقد كانت مهنة الزرَّابين يتهددها خطر الزوال.

لقد خشى أبونان ومجدِّس اللذان أصبحا زعيمين لمجتمع الزبالين من انقطاع مورد رزقهما فى خلال عِقد من الزمن طغى فيه الاستهلاك من جرَّاء الانفتاح الاقتصادى. كانت القمامة تمثل أكثر من ذى قبل ثراءً يتكالب عليه الجميع. فبعد سنوات البقرات العجاف فى عصر الاشتراكية جاء عصر البقرات السمان مع الرأسمالية المتوحشة، فجاءت الأموال من كل حدب وصوب، وتم استيراد المنتجات الأجنبية. لم يقتصد أحد المال بل باتوا يلقون حاجياتهم على غرار الأمريكيين. كانت صفائح الزبالة تزخر بثروات كبيرة يريدون جمعها بواسطة

سيـــارات ميكانيكية كبيرة، لا تميِّز بين المجدى وغير المجدى، بل تلقى بكل شىء فى مقالب الزبالة. إنهم يريدون حرق ثروة الزبَّال!

وصف العائدون من أوروبا وأمريكا الآلات التى تجمع القمامة، وتسحقها، هذه السيارات الأشبه بفك عملاق، فهى تجمع القمامة، وتبتلعها، وتسحقها دون أن تتسخ يد أى إنسان أو طفل أو يختنق أحدهم بفعل رائحة القمامة العفنة. كانوا يحسدون هذا التقدم التكنولوجى، التطور، على حد قولهم، ويرثون لوسائل الزبَّالين البدائية المتسخة، غير المجدية، والمخزية فى بلد حفل بحضارات عريقة.

أنَّى للبرجوازى أن يفهم الأخت إيمانويل التى كانت تثير حفيظتهم؛ لأنها تُرى للغرب جبالاً من القمامة والفقر بدلاً من الأهرامات والتوابيت القديمة؛ لأنها تُظهر الجانب المهين بدلاً من الجانب العظيم للأزمنة الماضية أو لمستقبل قريب يبشر بمشاريع تشييد لأبنية فرعونية؟ أنَّى له أن يفهم أن الزبال لم يكن يؤذى نظر السائح؟

لا يؤذِى الزبَّال نظر السائح؛ فوجوده فى المدينة غير ملحوظ؛ فالسائح الذى يصل عند الفجر يرى كنَّاس البلدية يجر المكنسة متكاسلاً، ويرى هذه العربة الكارُّو الغريبة التى يجرها حماران هزيلان، ويقودهما رجل عفا عليه الزمن وطفل صغير وأحيانًا طفلة. كان السائح يلتقط صورة للذكرى متخذًا من القلعة ومآذنها المدببة على الطراز التركى، أو من جامع الأزهر بمآذنه ذات الرأسين الأشبه

بالبصلة خلفيةً للصورة . كانت تلك الصورة من ضمن الصور الغريبة كتلك التى التقطها لقافلة من الإبل أو لقطيع من الغنم يعبر الطريق للوصول إلى المذبح بين زحمة السيارات، والأتوبيسات، والناس. فكم منهم التقطوا بعدسات آلات التصوير أبونان وأم نان، أو مجدِّس وأحد أحفاده الكُثُر. التقطوا نظرة انبهار لطفل فقير ينبئ بسطوع الشمس.

بيد أن الزبّال كان يؤذى نظر الوجهاء من الناس الذين لا يريدون فقط أن يُظهروا بلادهم من خلال ماضيها العظيم الذى ولَّى، لكن أيضًا من خلال الحاضر كواجهة حديثة على غرار البلاد الأوروبية، أوروبا التى كانوا دومًا مُعجبين بها، والتى تُعد بالنسبة إليهم مثالاً يُحتذى، وذلك على الرغم من الشعارات المعادية للغرب الاستعمارى التى ظهرت منذ الثورة.

هل على الزبَّال أن يزول شأنه شأن السقاة؟

سيتصارع زرَّابو المقطم مع هذا الموت المُعلن، ويوقفون مجرى الهجرة الأبدية.

كان فرحات إبراهيم ممن يطلقون عليهم اسم رسولى، لم يؤمن بوساطة القديسين؛ فعلاقته بالله مباشرة، حتى أنها تكاد تكون على طريقة الفيلسوف كيركيجورد. منذ عامين يصر الزبَّال الذى يمر بمنزله فى شبرا على اصطحابه إلى المكان الذى يعيش ويعمل فيه.

فيحكى أنه ذات يوم سمع صوت الله يدعوه للذهاب إلى هناك. كان ذلك يوم جمعة، لم يكن هناك أى طريق مرصوف يؤدى إلى هذا المكان، كما أن قطَّاع الطرق يعيثون فى المكان. ارتقى إلى الجبل الخالى من الرعاة والمراعى الخضراء مع ابن الزبَّال، ليس هناك سوى صخرة صلبة لا توحى بحياة الرعى. لقد رأى هذا الشعب الفقير، أناسًا يطلقون على أنفسهم مسيحيين، يأتى إليهم مرة فى العام قس ليروى لهم حلقات من مولد المسيح وسيرة حياته. هل كانوا على الأقل يعرفون كيفية الصلاة، هؤلاء الذين يسمون أنفسهم مسيحيين؟ فمسيحيتهم ليست إلا غُربة، ليست إلا ذكرى مقرونة بمسقط رأسهم: أسيوط، ودير تاسا، والبداري؟ لم يكن بحوزتهم بطاقات شخصية؛ إذ إن أهلهم لم يكلفوا خاطرهم ليسجلوا اسمهم يوم ميلادهم. الأولاد أكثر من البنات. هوية شخصية ؟ لِمَ؟ للذهاب إلى الجحيم؟ إلى السجن؟ أو إلى الليمان؟ إلى الجيش؟ إلى الضرائب؟ فعدم ثقتهم بكل ما يتعلق بالحكومة أمر وراثى. لم تكن لديهم عقود زواج، ذاك الرباط المقدس الذى كانت الكنيسة تفخر به فى بلد أصبحت ديانته الإسلام. كان بإمكانهم ألا يلتزموا به، فيتركوا زوجاتهم ليتزوجوا من جديد كما يفعل

أى مسلم. يقومون بختان فتياتهم، وإذا ما وافت إحداهن المنية يوارونها تحت التراب دون القيام بأى شكل من أشكال الدعوى. لم تكن حياتها تساوى شيئًا. كان فرحات إبراهيم يقيس مسافة الطريق التى سيقطعها.

قال القس : "أريد مكانًا لأصلى فيه، ليوحى لى الله بما يتوقعه مني".

كان يريد أن يجعل من عملة برهانًا لمعجزة، ويريد أن يمتلك قوة خارقة للقيام بالعمل الشاق: رفع الجبل، جبل من الفقر، والجهل. لقد صنع أسطورته.

يروى فرحات إبراهيم أن الرب أراه مغارة داخل صخرة تزن ألف طن. فى فجر يوم أحد رجع إلى المقطم، وانعزل فيها كرهبان العهد السابق، وعكف على الصلاة لمدة ثلاثة أسابيع متواصلة. كان يتوجه إلى الرب داعيًا إياه : "أنا لا شيء، لا شيء. لست إلا قطرة ماء فى البحر، لكنى أدعوك لتستجيب لي." فإذا بعاصفة قوية من الرمال تهب، محملة بكل القمامة، فإذا بورقة تقع تحت قدميه. كانت صفحة من سفر أعمال الرسل يتحدث فيها الله إلى بولس الرسول :

"لا تخف بل تكلم ولا تسكت لأنى أنا معك، ولا يقع بك أحد ليؤذيك لأن لى شعبًا كثيرًا فى هذه المدينة" .

الرب معه. يلزمه بالكلام، وإلى عدم الخوف؛ لأن لديه شعبًا كبيرًا على هذا الجبل. كان يخيل إليه أنه يقرأ فرمانًا منزّلاً من السماء.

هناك هذه الجمعية التى أنشأها أنبا سامويل لدفن الموتى وفقًا للشعائر المسيحية. لقد جعل منها فرحات إبراهيم قطبًا للتجمع، فأنشأ مدرسة الأحد، وجعل مقرها فى بيت من الصفيح والخشب الهالك، على غرار عشش الزرَّابين. لقد جاب الجبل بحثًا عن المسيحيين المخلصين. وعند رجوع الزبّالين من دورتهم مع أطفالهم، كان فرحات يتنقَّل من بيتٍ إلى بيتٍ، ويحدِّث الأطفال والبالغين. ويمر بعشة أبونان، ومجدَّس فيدرب صبيانهم الذين كانوا يتبعونه، ويغنون معه ترانيم على أنغامٍ لم تكن تغنيها الكنيسة يعـــرفها فقط مطربوُ الغـــناء الشعـــبى. يسمعونهم وهـــم يقتربون من بعيد ثم يذهبون إلى حدود الزرايب. كان فرحات يتحرك ومعه ميكروفون.

وتشكلت مجموعة كورال من الأطفال يجوبون الجبل فى كل ليلة، وعلى رأسهم شحاتة الابن الوحيد لمجدِّس، وأحفاده عزت، وداود، وأولاد أبونان. كان هؤلاء الصبية يجدون فى الغناء الفرحة التى لم تكن مسموحة لهم فى بيوتهم الصفيح. لقد كان فتات تلك السعادة من نصيب الأولاد. كانت تود أحلام أن تسير مع أقربائها، وتغنى معهم، وتضحك معهم، وما إن تجرَّأت، وكادت تلك الفكرة أن تنبث بها شفتاها حتى كان عليها أن تعرض عن ذلك سريعًا. كان إخوانها الصبيان هنا ليكفلوا لها الحماية، لإعادتها إلى كومة القمامة، إلى الزريبة، إلى حضن أمها؛ فالفتيات لا يحق لهن ترك السجن الذى يقبعن فيه. كان على أحلام أن تعرف ذلك.

هل لعزت[1] مكانة خاصة فى خضم فوضى المشاعرالعاطفية التى كانت تعتريها؟

دومًا ما تردد أحلام : "كنت حيوانًا".

حيوان يود أن يضحك، ويغنى، و لربما يتجرأ، ويُحدث فضيحة فيذهب من كوخ إلى كوخ، ماسكة بيد صبى.

تذهب أم نان مع بناتها للصلاة فى المغارة التى انزوى فيها فرحات إبراهيم لمدة ثلاثة أسابيع. فى وسط جماعة تعتريها الدهشة، شهدت أحلام مشهدًا لسيدة أصابتها الهيستريا. هتف صوت من الجمع: "الشيطان مالكها". وفرحات إبراهيم يتمتم بالصلوات، ويضغط الصليب بقوة على جبهتها ليبعد الأرواح الشريرة. سقطت المرأة على الأرض، وصرخت : "أشعر أن الروح القدس دخل فى جسدى".

ثم نهضت، ويملؤها الارتياح.

هل كان لأحلام أن يعتريها الشك بشأن مشهدٍ كهذا، من شأنه أن يشكل خطرًا عليها، وعلى كل البنات الصغيرة اللاتى لا يحق لهن الضحك ولا الغناء، كما يحق للصبيان؟ وهل كان

---

(1) هذه اللفظة بمعنى لطع بلسانه على الشىء، وهو كناية عن النكاح ؛ وأظن أنها هنا "لحست" إذ إنها قد تكون أصلها. انظر اللسان . (ل ع ز).

باستطاعة فرحات إبراهيم - الذى يعلم ذلك دون أدنى شك - أن يهز سفينة التقاليد وعلى متنها شعب بأكمله؟

كان فرحات إبراهيم معروفًا باستخراج الأرواح، رجل على اتصال مباشر بالله، وبإمكانه أن يرد للكفيف بصره، ويشفي المشلول، ويحرر الناس من الشياطين، والقرين. كان المسلمون والمسيحيون يتهافتون من الهضبة إلى الجبل ليحررهم من الأرواح الشريرة. كيف كان يفعل ذلك؟

"أصلى، فالصلاة تخرج الأرواح الشريرة"، هكذا كان يقول.

ولم تكف أحلام عن الصلاة. لا غرو أن شدة إعجابها بفرحات إبراهيم كانت السبب فى هذا الإيمان الذى حفلت به طفولتها. كان فرحات إبراهيم يبدو لها أكبر من الطبيعة، وأكبر من والدها.

هل كانت صلاتها لإخراج الشياطين التى تسكنها؟ تلك الشياطين التى ورثتها عن والدتها، وجدتها، وجدة جدتها. أكانت تصلى لكى لا تتمكن منها هذه الشياطين، ولا تودى بها إلى الجنون، كهذه السيدة التى شهدت حالتها الهيستيرية؟

مازالت صغيرة جدًّا لكى تطرح أسئلة كهذه، لكنها كانت تصلى، تصلى بكل حماسة، بحماسة طفلة خائفة، خائفة من الشيطان الذى تتخيله أسود اللون ولديه قرون، وألسنة من لهب. من الممكن أن

تحميها الصلاة ويحميها فرحات إبراهيم؛ فكانت تصلى لتشارك فرحات إبراهيم سلطته.

لكن الحياة التى تكبتها بداخلها تتحول إلى شياطين، شياطين لا يمكن لأى صلاة أن تخرجها من جسدها، فتطالب بالحياة التى تُنتزع من أحلام.

لماذا لم يكن مسموحًا لها بأن تغنى الترانيم مع أقربائها؟

يضطلع فرحات إبراهيم أيضًا بمهمة إخراج الشعب من الفقر؛ لذا قرر أن يستغل المعجزة التى حدثت.

حدث ذلك فى عام 979م حين كانت مصر تحت الحكم الفاطمى منذ عشر سنوات، فى عهد الرخاء الذى تلا عهد الجفاف. فلمدة ثلاث سنوات على التوالى لم ترتفع مياه النيل؛ فقضت المجاعة والوباء على الشعب. لم تكن حكومة بغداد المركزية تمد يد العون، بل على العكس من ذلك تستنزف الفلاح. كان المعز لدين الله فى ذلك الوقت أول أمير للأسرة الفاطمية، وهو أديب مرهف الحس، وشاعر، فجعل الأمن يستتب بعد الفوضى. يختار وزراءه من اليهود والمسيحيين، كما كان لديه شغف خاص بالمناقشات الدينية خاصة مع أحد أصدقائه بابا الأقباط أبرام بن زرعا الملقب بالسورى.

يُحكى أن هذا البابا أعطى كل ما يملك إلى الفقراء، كما حرَّم على المسيحيين أن يمتلكوا النساء كسريرات. يا له من قديس! كان فى محيطه رجل يهودى دخل فى الإسلام ليحصل على رضا الخليفة. كان يدعى يعقوب بن كلس، ويكره المسيحيين؛ لأن أحدهم قزمان بن مينا الملقَّب بأبو اليُمن كان يثير قلقه . فأدخل البابا فى مناقشات دينية على أمل أن يفقده المصداقية أمام الخليفة. وافق البابا على اللعبة بمعاونة الأنبا سويرس بن المقفَّع أسقف الأشمونى، المتخصص فى الديانات المقارنة، وكاتب تاريخ البطاركة. أما يعقوب بن كلس فقد اتخذ موسى اليهودى مستشارًا له. بعد أن هُزم عدة مرات قرر أن يستغل آية من إنجيل متًّى: "لو كان لكم إيمان مثل حبة خردل لكنتم تقولون لهذا الجبل انتقل من هنا إلى هناك فينتقل"؛ فقال حينئذ موسى اليهودى وابن كلس للخليفة: "فلتختبر النصارى، فإن لم يكن بوسعهم تحريك الجبل فدينهم باطل".

غير أن الخليفة كان يود أن يحرك الجبل إلى الشرق لتتسع مدينته الجديدة، فتصل إلى بركة الفيل المعروفة الآن باسم الحلمية الجديدة. كان على عاصمته القاهرة أن تنافس عاصمة أمراء بغداد "المغتصبين". يحيط بها قصران فخمان، لهما أسوار مصنوعة من قوالب الحجر المقصوب، وبوابات بها سلسلة من الأروقة المقنطرة، وفى داخل القلعة الحصينة تتكاثر الجوامع ذات الفن المعمارى الدقيق، ومنها جامع الأزهر الأسطورى بمآذنه ذات الرأسين الأشبه بالبصلة، والذى يُعد بمثابة نموذج للجامعات الغربية القديمة. لكن المقطم كان

يسد للخليفة الآفاق، ولتحريكه فبإمكانه أن يلجأ إلى قوة خارقة. فأمر البابا أبرام بأن يثبت قوة إيمانه المسيحى، فليرفع الجبل إذا ما صدق دينه. أما إذا لم يصدق دينه فعليه، وعلى شعبه، أن يتخذوا من الإسلام دينًا، أو عليهم أن يهاجروا بعيدًا عن البلاد، وإلا لأفناهم.

إنه لتحكيم إلهى. دعا البطريرك شعبه، وطلب منه أن يصوم لمدة ثلاثة أيام من الفجر إلى غروب الشمس، ثم انعزل مع القساوسة، والرهبان فى كنيسة السيدة العذراء الموجودة فى القاهرة القديمة والمعروفة باسم الكنيسة المعلَّقة. لقد صلوا وصاموا. فى فجر اليوم الثالث تجلَّت مريم العذراء للبابا البطريرك بينما هو غافٍ.

قالت له : "لا تَخش شيئًا أيها الراعى المخلص. اخرج من باب درب الحديد المؤدية إلى ميدان السوق الكبير، ستجد هناك رجلاً ضريرًا يحمل جرة مملوءة بالماء. إنه رجل صالح، وستجرى المعجزة على يديه".

كانت تعنى سمعان الدبَّاغ. إنه رجل صالح بالفعل؛ فكان يستيقظ عند الفجر ليحضر الماء فى جرة للشيوخ والمرضى قبل الذهاب إلى عمله، كما لم يكن يفوته أبدًا أن يوزِّع الخبز والطعام على النُسَّاك من الرجال والنساء. كان ضريرًا؛ لأنه ذات مرة وهو يُلبس الحذاء لامرأة جميلة وقعت عينه عليها، واشتهاها؛ ففقأ عينه التى ارتكبت هذا الإثم بالمخراز. لقد كان مخلصًا لتعاليم القديس متّى: " إن كانت عينك اليمنى

تعثرك فاقلعها وألقها عنك؛ لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يُلقى جسدُك كله فى جهنم[1] " (متى 5: 28)

قال سمعان للبابا: " لست إلا إنسانًا اقترف خطيئة، لكن بما أن هذه هى رغبة السيدة العذراء فسأرضخ لأمرها." ثم أملى على البابا تعليماته: "فلتذهب إلى الجبل مع الرهبان والقساوسة، والكهنة، ولتحملوا معكم الإنجيل، والصلبان، ولتشعلوا الشموع الكبيرة، ولتملأوا المجامر بالبخور، ولتدعوا الخليفة وحاشيته ليتبعوكم. ولتقفوا عند جهة من الجبل، بينما يقف الخليفة ومن معه فى الجهة الأخرى المقابلة. أما أنا فسأختلط بالشعب لكى لا يعرفنى أحد. ولتقم بالصلاة ثم تردد مع الشعب المجتمع كله بصوت عال وبقوة: "كيرياليسون"[2] أربعمائة مرة، ثم تلزم الصمت لثوانٍ، ثم تصلي، ثم تقوم برسم علامة الصليب على الجبل. سترى حينها عظمة الله".

ردد الشعب بصوت كالرعد "كيرياليسون"، أربعمائة مرة، بواقع مائة مرة فى الاتجاهات الأربعة: شمالاً، وجنوبًا، وشرقًا، وغربًا، كيوم الجمعة المقدَّس فى الساعة التى توفى فيها المسيح. فى قلب الصمت، بينما البابا يصلى، ويرسم علامة كبيرة للصليب على الجبل، فإذا بزلزلة قوية تجتاح الجبل. بعد كل صلاة كان الجبل يتحرك، وشوهدت

---

(1) راجع متى 5: 28. (المترجمة) .
(2) كلمة باللغة القبطية معناها: "يا رب ارحم". (المترجمة).

الشمس تسطع تحت قاعدته المرفوعة. انتاب الخليفة الخوف، وطلب من البابا الكف عن الصلاة خشية أن تختفى مدينة القاهرة.

قال الخليفة للبابا : "إيمانك صادق".

قام الخليفة تكريمًا لهذه المعجزة بترميم كنائس القاهرة القديمة: كنيسة أبوَ سيفين، وكنيسة العذراء التى أنقذت المؤمنين، تلك المعلّقة التى تسود مدينة تحت الأرض شهدت تعذيب الشهداء فى العصر المسيحى الثالث، الشهر الأول من الشهور القبطية، متخذة قلعة رومانية ضخمة تدعى بابيلون قاعدة لها.

في يومنا هذا، يتكون الجبل من ثلاثة أجزاء بينهما هضبة تفصلهم تُدعى المقطم. لقد سمى بالمقطّم أو المقطّع لأنه كان متساويًا، ثم غدا ثلاث قطع بعد حدوث المعجزة، تفصل بينها مسافة.

حدثت المعجزة فى السابع والعشرين من نوفمبر فى عام 979م، الموافق الثامن عشر من هاتور عام 695 فى عصر الشهداء، ويصوم المسيحيون احتفالاً بذكرى هذه المعجزة أيام 25 و 26 و27 من شهر نوفمبر، ثم يتبعونها بصوم الميلاد على مدار أربعين يومًا، حتى عيد ميلاد المسيح فُى السابع من يناير.

لم يكن يعرف الزرّابون قصة المعجزة، لم يَرْوِها لهم أى قسٌ قبل مجيء فرحات إبراهيم. لقد استمعوا إلى قصة المعجزة بانبهار شديد، وآمنوا بها كشدة إيمانهم بالحسد والأرواح الشريرة.

لكنهم لم يعرفوا شيئًا عن المُعزّ لدين الله الفاطمى، ذلك الأديب المرهف الذى كان يهوى المحاورات الدينية، إلا اسم الشارع الذى لم يعودوا يطمعون فيه؛ فلم يعد ذاك الشارع أفضل من حوارى القاهرة القديمة. لم يكن فى شارع المعز لدين الله ما يأملون فى العثور عليه أكثر من القاهرة القديمة؛ فكان أبونان ومجدِّس يكتشفان هنا من هم أكثر منهما فقرًا.

كانا يتوقعان أن تحدث المعجزة ثورة حقيقية تغير مجرى حياتهم. لقد دخلوا فى قصة المعجزة كأنهم يدخلون فى عالم سحرى.

بعد وصول فرحات إبراهيم لدى الزبّالين بأحد عشر شهرًا كانت تُشيَّد كنيسة على سفح الجبل. كنيسة من الحجارة، بها مذبح، وفاصل أيقونى مزدان بالصور التى تقص تاريخ المسيح، والقدّيس سمعان، وجناحان للرجال، وجناح للنساء، ومكان للتعميد، ومقاعد من خشب، ومجامر، وشمعدانات، وبيض نعامة، وقواعد من الرمال لتثبيت الشمعدانات لكى تُطيل النيران صلوات المؤمنين. لقد أعطى الأب شنودة مالاً لبناء هذه الكنيسة ما يوازى مائتين وستة وتسعين جنيهًا. لم تكن هذه الكنيسة تختلف عن كنيسة سكان المدينة الأغنياء.

ذهب الزبّالون إليها ليجدوا الراحة التى كانوا يبحثون عنها فى المخدرات والكحول. كان لكلمات فرحات إبراهيم وقع فى أنفسهم كناى الأساطير السحرى. كان يدعوهم لنبذ الشراب، ونبذ تدخين الحشيش،

ولعب القمار، ويدعوهم لاحترام النساء والأطفال. كان يدعوهم إلى الصلاة. كانوا يطيعونه، وغدت نساؤهم أقل عرضة للنوبات الهيستيرية؛ فلم يعد يخرج الأرواح الشريرة من أجسادهن كما كان يفعل آنفًا.

والكنيسة مُهداة إلى القديس سمعان.

منذ ذلك الحين وتسكن المعجزة فى قلب المقطم.

فى بلد الفقر حيث يُعد الشر والموت من عمل الشيطان، والحسد، وغيرة القرين، أو القرينة، حيث الجنون ملاذ النساء، كان القس يدعو إلى الكلمة التى تُشفى، يعرف بغريزته هذه القدرة التى تتمتع بها الكلمة، كما لو أن هناك ما يربطه عبر العصور بإله مصر القديمة "تحوت"، يدعونه كبير الآلهة؛ لأنه سيد الكلمات الساحرة، تلك القدرة ذاتها التى خوَّلها المسيح لأتباعه يوم حلول الروح القدس[1]، واهبًا إياهم مَلَكة التكلم بألسنة مختلفة[2]. كانت الكلمة التى تلقى للاحتفال بسر القربان المقدَّس تُدخل المستمعين فى جو مفعم بالمشاعر قريب من الصوفية؛ لأنه كان يلفظ الكلمات بكل دقائق الفن كما لو أنه يكتشف مرة أخرى بغريزته الطريقة القديمة للصلاة المصحوبة بالموسيقى، والملفحة بأسطورة حياة فى تجدد دائم. قرر فيما بعد أن يريهم على شاشة كبيرة، وبالأحرف الكبيرة، إشارات الكلمة المكتوبة.

---

(1) العنصرة . (المترجمة).

(2) أى التحدث باللغات الأجنبية المختلفة . (المترجمة).

يأمل دون أدنى شك فى أن يتأثر الزبّالون بالحماسة المقدسة التى دفعت الشباب القدامى إلى المعابد فسكنوها لفكّ الرموز الهيروغليفية، واكتشاف الكلمات السحرية لكتاب تحوت. كان ما ينقص هذا القداس الشافى هو الرقص؛ فنغمة الصلاة تدفع إلى الرقص، ليست تلك النغمة الهادئة الرتيبة للقداس القبطى، بل كان القس ميّالاً لنغمات السود من الأفارقة، ومن أمريكا. لقد طوّرها باستخدام الوسائل الإلكترونية التى بدأت الكنيسة المصرية باستخدامها.

إنه يعرف أيضًا مآسى كل فرد منهم، وأسرارهم الحميمة، يعرف كل تلك الآلام التى يرجعونها إلى الشياطين. لقد قدم لهم يد العون، قدم لهم عونًا ماديًا. أحضر لهم أطباءً يعالجون أجسادهم، وأطباء للروح أيضًا. لقد قرّر أن يجعل الروح القدس فى خدمة الجسد والروح. كان كأصحاب حركة الخمسينية(1) فى لوس أنجلوس فى بداية القرن العشرين، فكان يتوجه بحديثه إلى الفقراء، فيكلمهم عن الغنى كنعمة إلهية، كصحة جيدة تتمخض عن الإيمان، ويلقى إعجاب كل أجيال الزرّابين الذين كانوا يأملون جميعًا فى أن يعيشوا مصير الواحي.

---

(1) جاء فى أعمال الرسل: 1.ولما حضر يوم الخمسين كان الجميع معًا بنفس واحدة. 2 وصار بغتة من السماء صوت كما من هبوب ريح عاصفة وملأ كل البيت حيث كانوا جالسين. 3 وظهرت لهم ألسنة منقسمة كأنها من نار واستقرت على كل واحد منهم .4. وامتلأ الجميع من الروح القدس وابتدأوا يتكلمون بألسنة أخرى كما أعطاهم الروح أن ينطقوا" أعمال 2:2-4.هذا هو أول اختبار لحلول الروح القدس فنال 120 نفسًا معمودية الروح القدس وعلامتها التكلم بألسنة أخرى. (المترجمة).

كان العون المادى الذى يقدمه لهم بحاجة إلى الكلمة أيضًا. عليه أن يؤثر على إرادتهم بقوة الصلاة، ويقضى على الشيطان الذى يظهر بألف صورة وصورة. يريد أن يغير حياتهم. هكذا كان يشرح هدف عمله، بعد القداس، كان يمارس هذه السلطة أيضًا، فيضغط بالصليب الحديد على جبهة ضحية قوى الشر، ويتمتم بالأدعية نفسها على نغمة سريعة أكثر فأكثر، ويزيد من ضغط الصليب على الجبهة. هل لنا أن نتجرأ ونتحدث عن تنويم مغناطيسي؟ لقد كان يستخرج من الرجال أيضًا الأرواح الشريرة. فتتملكهم أيضًا قوى الشر هذه التى تنقض عليهم فى القهوة. فالشيطان يبتعد تحت ضغط الصليب الحديد، والرجل ينهض وكأنه شخص جديد؛ فقد تحرر من الشيطان، وعلى استعداد لأن يواجه حياة جديدة. فلم يعد يرتاد القهوة، ولم تعد زوجته يائسة. هكذا تم طرد بعض الشياطين، فلا يزال هناك الكثير منهم، عدد لا متناهٍ من الشياطين، ناهيك عن القرناء، قرناء بعدد الأفراد.

لايزال الجميع يذكر هؤلاء المجرمين، ممن كانوا يدمنون المخدرات، والذين تحولوا بعد التزامهم بالصلاة إلى زرّابين أمناء.

هل أشبعت قوة الكلمة نهم أحلام فى تعلم كيفية فك رموزها؟ إن أمنية أحلام منذ نعومة أظافرها هى أن تتعلم القراءة، والكتابة، أن تلج عالم الكلمات السحرى. كلمات الطقوس كانت تعرفها عن ظهر قلب، لكن أنَّى لها أن تفك رموز إشاراتها المكتوبة لتتحلى بقوتها، وتطرد الثورة التى تضطرم بداخلها منذ يوم أسود؟ أتُخرج الشياطين التى تسكنها؟

نعم، كان عمرها يناهز ستة أعوام، تلك أحلام الصغيرة، تلك الطفلة الشقراء، ابنة أبونان، وأم نان، عندما قاما بعملية ختانها البشعة كأختها الكبيرة، ووالدتها، وكل نساء قريتها. هل سمعت أحلام الفتيات الأخريات وهن يصرخن من الألم؟ لقد حاولت الهروب؛ فأمسكوا بها من رقبتها كالدجاجة التى يعدُّونها للذبح. لقد قاومت، لكن البالغين هم الأقوى. حدث ذلك فى شهر سبتمبر، عندما ترتفع مياه النيل، وتكتسب التمور الناضجة اللون الأحمر. بالنسبة إلى الفتيات. إنها صحوة الربيع، والخوف من الربيع: يوم أسود.

فى هذا اليوم الأسود، قطعوا الجزء الحساس من بظر الطفلة لحماية امرأة المستقبل من الشهوة الجامحة، شهوة الحب. إنها تذكر والدتها، لقد اشتركت فى تلك الجريمة.

لقد ودَّعت أحلام الطفولة بجرح لا مبرر له سوى جنون عادة قديمة غير مؤكدة الأصول.

هل وضعت لها علامة الحديد المكوى بالنار لكى تمضى حياتها دون أن تعرف الحب؟

الحب؟ لقد عاشت فى غياب الخصوصية مع الناس الفقراء؛ فكانت تنام مع أهلها، وإخوتها على ذات المرتبة، تحيط بها الحيوانات وهى تتناسل. لقد شهدت الحب فى شكله العنيف؛ فهل لها أن تعرف ذاك الحب الحنون؟

كانت تؤدى مهام امرأة، تلك الفتاة الصغيرة الشقراء، ذات الوجه الملطخ بالغبار، ذات الأرجل العارية المعرَّضة لبواقى الزبالة، فتمسك بيد أخيها الصغير، وتحمل الآخر.

كانت تعيش كما هى الحال وسط عائلة كبيرة تكبر، وتحيط بها مجموعة كبيرة من الأقارب والقريبات يصغرنها أو يكبرنها. كان الشارع المليء بالقمامة يجمعهم. لقد أضحكتها قصة مجدِّس الذى لم ير زوجته قط قبل أن تُزف إليه كما أضحكت أبناء جيلها. لربما كانت تغذى هذه القصة الانجذاب الذى كانت تشعر به تجاه ذاك الشاب الصغير المبتدئ الذى يقود كورال الصبيان. فلتصمت، يجب ألا تتلفظ بإهانة كهذه فى حق الحياء. ذاك الحياء الذى يخنق النهار، وأحلام الليل. فى أى عمر تتخيل فتاة صغيرة تلعب بالدمية يوم زواجها؟ فى أى عمر تعرف ذاك الحياء الذى يجعلها تتكتم المشاعر الراقية؟

لا شك أن قساوة الحياة لم تعطها الفرصة ليزهر برعم الحب.

حياتها مطمورة فى القاذورات. مطمورة فى القمامة حتى ركبها، حتى أيديها، وأرجلها العارية؛ فالقفاز يبطئ العمل، هكذا قالوا فيما بعد.

فى كل صباح، من الساعة الخامسة إلى الساعة التاسعة، ثم فى كل مساء، من الساعة الرابعة عصرًا إلى الواحدة فجرًا تفرز الزبالة التى كان أبوها يفرغها فى غرفة المنزل الوحيدة: البلاستيك المقطع، المتراكم، الأوراق المجموعة على هيئة كرة كبيرة، العلب المحفوظة

المسحوقة المتكونة من خمسين أو مائة حزمة، وفقًا للطلب، الزجاج، الأقمشة. كان الواحى يشترى كل ما يمكن الاستفادة منه حتى عظام الحيوانات، يبيعها إلى مصنع صمغ، بينما توضع سريعًا مخلفات الأطعمة فى مقلب كبير بالزرايب. كان يجب أن ينتهى العمل سريعًا لإخلاء الغرفة الوحيدة، للقيام بالطبخ، ثم النوم فيها.

كانت تبلغ أحلام ثمانية أعوام، والأخت إيمانويل لاتزال تجوب العالم لجمع المال، بينما يعتاد الزرَّابون فى الجبل ملاذهم الجديد. لقد خلَّفت الحرائق التى نشبت فى عام 1976م، البؤس الكبير. عادة ما كان إشعال الوابور فى الغرفة الوحيدة التى تُعد مكانًا للسكن، ولفرز الزبالة، هو سبب المأساة. ويهرع الجيران لإسعاف الأم التى أصابتها حالة الذعر؛ فيتمكنون من تقليص الخسائر. فى هذه المرة أتت النار من مكان آخر، من تلك الفتحة الكبيرة، الفرن الذى يبتلع زبالة الزبَّالة ليحرقها. لقد انتشرت النار بسرعة شيطانية، تنتقل من عشة إلى عشة، وتضرمها البضائع المحفوظة لإعادة التصنيع: أكوام الورق، وقطع البلاستيك، والأخشاب بكل أنواعها، بل ازداد الأمر سوءًا بسبب القمامة العفنة المتراكمة فى الشوارع حتى غدت كنار جهنم. لم يكن يكفى مخزون المياه الذى قامت كل العشش بتجميعه؛ فبعض الجراكن نصف فارغة، والمياه العطبة مخصصة لرى ظمأ الخنازير. لقد دام الحريق يومين على التوالى. كانت الكارثة كبيرة؛ فقد اشتعلت العربات الكارُّو، وهُدمت البيوت، وشُوِّيت الخنازير، وشُوهت الحمير. لقد تحول كل ما ربحه الزرَّابون منذ رحيلهم من أسيوط إلى رماد.

لقد عاشوا وسط الرماد والقمامة، وناموا تحت سقف مُرصَّع بالنجوم الجميلة، ثم ما لبثوا أن استجمعوا قواهم. لم يبق لهم سوى الحياة، لقد تركتها لهم النار، وكانوا يحمدون الله على ذلك، لكن بعد

ستة أشهر نشب حريق آخر، فى العام نفسه (1976)؛ فبعد حريق يونيو، اندلع جريق ديسمبر. لقد غدت هذه النيران ذكريات أحلام.

ذكرى فقر مدقع، ذكرى حريق ليس بمقدور الختان أن يحتويه، أكثر اضطرامًا من نار الحب.

إنه مشهد يائس استقبل تلاميذ مدرسة الآباء اليسوعيين الذين كانوا يعلمون أولاد الأعيان. يُقال إن الآباء اليسوعيين يبسطون سيطرة الكاثوليكية، وعلى الرغم من الشك الذى كان يداخلهم فإنهم يعهدون إليهم بأولادهم؛ لأنهم ما كانوا ليضمنوا لهم تعليمًا أفضل من ذلك. يكتسب تلاميذهم الإحساس بالمسئولية الاجتماعية؛ فبما أنهم ولدوا أغنياء؛ فعليهم أن يخففوا من معاناة فقر الآخرين. كان الأب عيروط قد أسس مدرسة الصعيد. يأخذ دومًا التلاميذ إلى قرى الصعيد ليتعرفوا إلى الفلاحين، وعلى ظروفهم المعيشية، وها هو الفلاح يقف على أبواب مدينتهم ليعيش فى مأساة أفجع من مأساة الريف: تجريده من كل شيء حتى من كرامته الإنسانية فقط لأنه يربى الخنازير.

تتفاقم الفضيحة منذ اليوم الذى رحل فيه زرَّاب ليطلب من السيد هيم خدمة يسديها إليه، ومنذ اليوم الذى شرعت الأخت إيمانويل فى طرق جميع الأبواب لجمع التبرعات.

كان هانى يناهز عمره اثنى عشر عامًا عندما ذهب هو وزملاؤه من مدرسة الآباء اليسوعيين مع الأب بولاد لرؤية الزرَّابين فى عزبة النخل؛ حيث ملتقى الزرَّابين الذى احتفلت فيه الأخت إيمانويل بزفافها الروحانى إلى المسيح. لقد عاد من هذه الزيارة غاية فى التأثر؛ حتى إن وجهه الأسمر غدا شاحبًا لهول ما رأى. كانت الكلمات تقف فى حلقه، ولا يقوى على سرد ما رآه.

أطفال. أطفال. أطفال.

ذباب. ذباب. ذباب.

لقد رأى أيضًا الخنازير والماعز وسط هياكل الحيوانات الميتة، وشم الرائحة الكريهة للقمامة المتعفنة، مر بالنار التى تحرق القمامة غير النافعة.

كيف كان بمقدور الأخت إيمانويل أن تشاطرهم عيشة كهذه ؟

فى المقطم، غداة الحريق، كان فى انتظارهم ما هو أسوأ من ذلك!

لم يكن لتلاميذ الآباء اليسوعيين أن يتخيلوا وجود بؤس بهذا الشكل. لم يكونوا يعقلون أن المرض لا يداويه الطبيب: التيتانوس، والرمد، والإسهال الأخضر الخطير...أما من أحد يعلِّم هؤلاء المساكين الوسائل الصحية الأساسية؟ أما من أحد يشرح للأمهات أنه ليس على أبنائهم أن يأكلوا الطعام من الزبالة ؟ قالوا لهم إنهم اعتادوا ذلك. شعر تلاميذ الآباء اليسوعيين بفظاعة العار الذى كان يترقبهم؛ لقد علموا أن

هؤلاء الناس يقومون بختان الفتيات. نعم، لقد شوّهوا أحلام، طفلة أبونان الشقراء لكى لا تعرف نار الحب. لقد أصيب شباب مجتمع القاهرة الراقى بصدمة أخرى؛ فكيف يُسمح فى بلدهم بتطبيق عادات كهذه؟

ظل تلاميذ الآباء اليسوعيين فى المقطم حتّى حلول الليل. لقد رأوا نار الأرض تلمس نار السماء التى تبتلع النهار. عند سفح الجبل يحرقون المخلفات التى لا يمكن الاستفادة منها. تصعد ألسنة اللهب إلى شمس متوحشة. هناك رائحة كريهة تنبعث من منظر ملطّخ بالدماء. هل هي نار دانتي؟ نار تولكين[1]؟ نار جهنم ؟ يُقال إن وادى هينوم[2] كان مقلبًا لزبالة بلدية القدس فى عهد المسيح. يُقال إنه كان هناك معبد مُهدى للإله الفينيقى مولوك، وإنه كان يتم شيْ الأطفال الأحياء لتكريمه.

كم طفلاً تم حرقه حيًّا؟ بخيت، عزت، خليل، أحلام، صباح، سامية، كان هؤلاء الأطفال يعيشون فى جهنم.

---

(1) **جون رونالد رويل تولكين Tolkien** (1892 – 1973): فيلولوجى إنجليزى وكاتب روائى، وأستاذ جامعى. *عرف بسلسلته الملحمية* ورواية *The Lord of the Rings سيد الخواتم*. (المترجمة)

(2) ويدعى وادى الربابة، وهذه الكلمة مشتقة من العبرية، وكانت تدل أولاً على اسم مكان يدعى وادى هينوم يقع إلى الجنوب من سور القدس الحالى. "The Vale of Hinnom". (المترجمة)

هل قصُّوا على تلاميذ الآباء اليسوعيين نشوب الحريق؟ لم يكن لدى بخيت، أخو أحلام سوى عدة سنوات. لديه ذكرى بشعة لهذا الحريق محفورة كالحديد الحامى فى ذاكرته، بينما كانت تطبخ إحدى الأمهات على الوابور؛ فإذا بثوبها يشتعل ثم الخشب الهالك فى عشتها ثم امتدت إلى العشش المجاورة ثم ما لبثت أن اشتعل الجبل كله. "لا"، لم تكن هذه هى بداية الحريق؛ فكل شىء بدأ من بطن الفرن، اشتعال داخلى لزبالة الزبالة، هذا ما اتفق الخبراء على تسميته فيما بعد بتكعيب الزبالة. لم يكن لديهم لإطفاء الحريق سوى المياه العطبة المخصصة للخنازير، و"الأقمشة البالية".

بعد عودتهم إلى المدرسة، طلب منهم الأب بولاد أن يدعوا لكى يكون الله فى عون المستبعدين فى الأرض.

فى كنيسة المدرسة، دعوا معًا.

لم يكن القس قد فكَّر فى أن يضطلع بمهمة التعمير، لكن بناء الكنيسة دفع الزبَّالين إلى الرغبة فى بناء المنازل. كان الزرَّابون حتى ذلك الحين ينتقلون من مكان إلى آخر، ويعيشون حياة مؤقتة. لم تكن هاتان الهضبتان الصغيرتان إلا خطوة فى تاريخ هيامهم الطويل. يخشون من أن يتم ترحيلهم مرة أخرى من أرض لم تعد لهم. أنَّى لهم المجازفة باقتصادهم الصغير لبناء أسوار للحماية، بينما لم يكن مصيرهم سوى الهجرة الدائمة؟ كان عليهم على الرغم من ذلك أن

يقوموا ببناء أسوار جديدة، لإيجاد سد لنار الوابور. كان الرعب الذى خلَّفه الحريقان يستوجب ذلك.

ذاع صيت عمل إبراهيم فرحات فى قلب الزرايب : كنيسة على قمم أعظم مدينة من القرون الوسطى. كان الزرَّابون يذهبون إلى الكنيسة مع عائلاتهم، وهم يرتدون أجمل الملابس. الرجال يجلسون فى جانب، والنساء فى الجانب الآخر. يعبقون برائحة البخور، ويدخلون فى عالم الحنوت كما لو أن صور الجنة تمر أمام أعينهم، جنة فى قلب جهنم التى يعيشون فيها. والخمر الخفيف يأخذهم إلى المشاعر الروحانية. هل للفقراء من سبيل آخر غير الدعاء ؟

بعد القدَّاس ما يلبث الزرَّابون أن يعودوا سريعًا إلى هموم حياتهم اليومية. إن تغير الحياة يلزم وقتًا طويلا ليتحقق، ويتركون هذا الوقت ينقضى على مهل. كانت الكنيسة تقترح نموذجًا، وفكرة، وتبدى رغبة فى بناء أسوار صلبة. الكنيسة هى بيت الله. كان عليهم أن يفكروا فى منزل يتوافق مع إمكانيات الإنسان الفقير.

كانوا يشتغلون بمهنة قديمة لم يعد يزاولها أحد. سينحتون الحجارة؛ فالحجارة لا تشتعل.

فى الخامس عشر من يناير عام 1978م، حلم سمعان البسيط أن المسيح اختار فرحات إبراهيم لكى يخدمه كقسيس فى الكنيسة الجديدة.

كانت لفرحات إبراهيم زوجة وطفلان: صبى، وفتاة: ألبير وماري. لم يكن هناك ما يتعارض مع منحه الدرجة الكنسية؛ فلم يكن لأب أورثوذوكسى أعزب أن يكرس نفسه لذلك.

أراد أهله أن يزوجوه فى فترة مراهقته لوريثة شابة. يرفض ذلك، إنه مثالٌ يُحتذى به. يقول للصديق الذى يرضخ للعُرف، ويتزوج قبل أن ينهى دراسته: " لما يبقى سنك خمسة وتلاتين ح تبقى أب لفريق كرة قدم" .

يريد أن يفرض شروطه بوصفه قسًّا؛ فيتعين على امرأته أن تكون علي مستوى ثقافي، وروحانى معين. عليها أن تؤمن بالله، وأن تكون متعلِّمة. أهله يبحثون له إلى جانب الثروة عن الجمال الذى يُقاس فى بلاد الشمس الحامية بدرجة بياض الجلد، كان يسخر من ذلك. من الضرورى أن تتحلى بالصفات التى يحتاج إليها القسيس؛ فهو يضطلع بمهمة رفع الجبال. كان يريد أن يمارس معها قوة الكلمة، ويلاحق إبليس حتى فى أماكنه الأكثر سرية، ويقضى على إمبراطورية الشر.

لقد رأى الجميع زوجة القسيس كل يوم فى شوارع المقطم. لقد ساعدت فى القضاء على ثقافة الصمت التى تسجن النساء، والأطفال فى أبشع أشكال التبعية. التبعية للبؤس، بل وأسوأ من ذلك التبعية للرجل الذى يعيش فى البؤس، التبعية للعادات التى تتوارثها الأجيال. لقد أدخلت هى وزوجها أمل المعجزة فى المقطم. كانا يحييان الأمل.

كرَّسه البابا بنفسه قسًّا. لقد مرت أربع سنوات منذ أن خُيِّل إليه أنه يقرأ فرمانًا من السماء. لقد اتخذ من سمعان اسمًا له، كاسم سمعان الدبَّاغ الذى جرت المعجزة على يديه، الرجل الذى رفع إيمانه الجبل.

سعاد إبراهيم، زوجة راهب جبل الزبَّالين، أبونا سمعان. لم تطلب سوى العمل باسم المعونة الجماعية. لقد جمعت فى المكان نفسه كل المعلومات اللازمة لحسن سير الأنشطة المختلفة. كانت تتغلغل بهدوء بين الأسر بحجة الخدمة الدينية، فتعطى لهم دروسًا أساسية فى النظافة، وتدوِّن الاحتياجات الطارئة، وتكتشف المواهب المدفونة. كانت أمًّا عالمية، يناديها الجميع ماما سعاد.

هل كان أبونا سمعان، وماما سعاد يجسدان على الهيئة الإنسانية ما كان يُقال قديمًا عن الإله، والإلهة، أسطورة مهملة منذ أن فرضت المسيحية نفسها قبل الإسلام على بلد عريق ؟

لم يكن خليل سوى طفل عندما تركت الأخت إيمانويل "قصرها" فى عِزبة النخل لكى تزور الزرّابين فى الجبل. تقترن هذه الذكرى بفضيحة. ففى هذا اليوم كان جالسًا فى القهوة مع الرجال، فإذا بامرأة - لم يسبق لها مثيل – تأتى لتجلس معهم على الطاولة، وتصافحهم بيدها.

قالت لهم الراهبة البلجيكية فى لكنة عربية "مكسَّرة": "أنا أختكم".

فى ذلك الوقت كانت الأخت إيمانويل قد حصلت مع 58 زبّالا على دبلوم محو الأمية. لقد كانت فخورة بأنها تستطيع أن تكلمهم بلغتهم.

كل شىء مسموح للأجنبية، لكن بالنسبة إلى طفل لم يتعوّد أن يرى امرأة خارج حرم عائلته، كانت الصدمة جد كبيرة. لم يعد يعرف خليل ما قالته لجماعة الزرّابين، لكن ما يذكره هو خرق ذلك الوجود النسائى للعادات فى المكان المخصص للرجال، حتى أنه يذكر زى الراهبات الرمادى الذى يغطى الرأس، والصليب الحديد الذى كانت ترتديه.

لقد انتشر خبر الفضيحة من عشة إلى أخرى؛ حتى أن النساء والفتيات اللاتى لم يكن لهن الحق فى الظهور أمام الناس يذكرن صدى هذه الفضيحة المكتومة.

كانت جالسة تحكى فى القهوة، يحيط بها الرجال.

"عاوزنى أحكيلكم بالتفصيل عن المشاكل اللى مريت بيها؟"، هكذا قالت للمعلمين وهى تبدأ الجمل بكلمة "ياللا"، وتضحك ضحكة كبيرة تدعو إلى الحياة . لقد عادت من جولتها حول العالم، وها هى ذى النقود ترن فى جيبها. كانت ترغب بشدة فى الحصول على أرض لزبّاليها، لكى يلعب أطفال الزرّابين كرة القدم مع أطفال الأغنياء. لم تكن الأرض للبيع؛ لأنها ليست مسجلة فى سجل المساحة – على حد تأكيدهم لها – ثم ظهر بعد ذلك سبب آخر: ستصنف كموقع أثري! عندما تم توقيع العقد فى عام 1975م ظهرت مشاكل جديدة.

أضافت قائلة: " المشاكل فى مصر ما بتخلصش".

ثم طفقت تحكى. لقد اعترض شيخ قرية مجاورة على ما يعتقد أنه مشروع إنشاء كنيسة، ونظم مظاهرة أمام المنشآت التى لم تكن سوى مستوصف، ثم ما لبث أن قرر شيخ القرية المجاورة أن يفرح لمشروعات الأخت إيمانويل، لكن نسى المهندس المعمارى أن يطلب تصريحا بالبناء. فجابت الأخت إيمانويل كل مكاتب الوزارات، وجعلت تطلب تدخل السلطات العليا – بطرس بطرس غالى بشخصه – ذاك الدبلوماسى الذى اصطحب الرئيس إلى القدس. كادت أن توقظ الموتى ليتدخلوا لأجلها.

"تقدروا تعملوا زيى؟" سألَت مرارًا الأخت إيمانويل الزبّالين الذين كانوا ينصتون إليها بفضول وإعجاب. هل كانوا مقتنعين أنه ليس هناك ما يثنيها عن عزمها؟

تلك زيارة خفية تعلن عن زيارات أخرى... لقد كانت الأخت إيمانويل مشغولة جدًا بحياتها الثنائية: زبّالة فى عزبة النخل، وعدّاءة على مستوى العالم تبحث عن المال فيستقبلها الأغنياء، وتختار العيش مع الزرّابين المساكين، فتمر سريعًا بهم، وتعود بخطوة متيقظة، وعلى عجلة من أمرها كما لو أنها تستعد لتباعد رجليها بين المقطم وقلعة صلاح الدين، لتطلق العنان، ولتعبر البحار، وتعود بالسرعة نفسها، وهى دوما ما تكون بين الحياتين، بسرعة الضوء.

كان قسيس الزبَّالين يشاطر الأخت إيمانويل همَّها: تعليم أطفال المستقبل، ومحو الأمية. إنه يمكث فى المقطم، و يطور عمله ببطء شديد. بدأ بالكنيسة، وحديقة الأطفال، والمستوصف، تلك هى نقطة البداية.

إن الشغل الشاغل لأبونا سمعان هو دفع الصبيان إلى الذهاب إلى المدرسة، لكن واجهته صعوبات جمَّة. فإقناع الأهل بإرسال الصبيان إلى المدرسة أمر عسير جدًّا. عزت، حفيد مجدِّس، عليه أن يساعد أباه؛ فهو أكبر أولاده. والفتيات؟ لا طائل من ورائهن؛ فليس بإمكانهن أن يتعدَّين حدود عششهن.

لم يساور أحدًا شك فى تعطش أحلام الشديد للتعلم؛ فهى تذهب إلى الكنيسة شأنها شأن الشباب ممن كانوا يسكنون المعابد القديمة، ويملأهم النَّهم الشديد لفك الرموز الهيروغليفية المدونة على الجدران. تنظر أحلام إلى الكلمات التى تمر على الشاشة كأنها أسرار تبغى أن تميط عنها اللثام؛ فرغبتها الشديدة فى قراءة هذه الكلمات وفهمها تضاهى رغبة أجدادها القدماء.

لكن أحلام مصيرها الزواج. "إيه فايدة الجراية والكتابة؟": هكذا يقول والدها.

لقد أرى أبونا سمعان للصبيان ولأهلهم آفاق مستقبل ذهبى ينتظر الشباب المتعلم. دعاهم للتحلى بروح الثورة. لِمَ تم إنشاء مدرسة

إذن؟ أليس لتأمين تساوى الفرص بين الفقراء والأغنياء؟ لم يؤثر أحد فى مجدِّس، وأبونان. سيعيشان، ويموتان جاهلين، فلم يختلف أولادهما عنهما؟ لكن ما على القسيس إلا أن يعظ فى قلب الصحراء.

لقد لحق بأبونا سمعان الكثير من الفشل، بيد أنه حقق بعض الإنجازات. فقد امتلأت حديقة الأطفال، لكن المقاومة باتت ضارية. "وليه يروحوا المدرسة الحكومية؟ ليه ينزلوا من الجبل إن ما كانش للمّ الزبالة؟" هكذا يقول الزبّالون الزرّابون. لقد شرَّع لهم عزت الباب فى المقطم؛ فخاله شحاته، ذاك الولد الوحيد الذى رُزق به مجدِّس من بين مجموعة كبيرة من البنات، يكاد يكبره ببضع سنوات، وليست له أم واعية لتستوعب حُجَج الخادم الذى غدا قسيسًا، بينما تغرس أمل – التى تزوجت مبكرًا – فى نفس عزت – أكبر أولادها– الطموح فى التعلم. لقد عملت بالليل أكثر من النهار؛ فلم يحسن العمَّال فرزالبلاستيك. وها هى ذى تُعيد العمل الذى قاموا به، فتأخذ ما تبقى من الفرز، وتبيعه فى الخفاء دون علم زوجها. وجد عزت نفسه يرتدى الجديد من الثياب، وتكفَّل به عمه فتحى. كان يصل إلى باب المدرسة عند بزوغ أشعة الشمس الأولى، على عربة الزبَّالين الكارُّو التى يجرها حماران، فى حين ينتظر الحمار الثالث أسفل الجبل للصعود .لا تزال أبواب المدرسة مغلقة فى هذا الوقت من الصباح، مما يثلج صدره؛ فلن يراه أحد بصحبه عمه الزرَّاب. وينتظر البوَّاب الذى تظهر عليه أمارات التعجب؛ فهو يرى هذا الطفل يحضر باكرًا فى كل يوم.

يفعل عزت ما بوسعه ليكون ملتزمًا، آملاً فى أن تضمن له المعارف التى تحتويها الكتب الأمان الذى يفتقده؛ فهو يتفادى فى المنزل ضربات الأب، وفى المدرسة سخرية الصبيان. فإذا ما سأله زملاؤه عن محل إقامته، يجيب : "منشية ناصر". يبدو له هذا المكان القحل الموحش الذى يقطنه الحرفيون ممن يعماون لمحال الأسواق القديمة التى يرجع تاريخها إلى العصور الوسطى، يبدو له مشرِّفًا؛ فهم يشتغلون هناك بالمواد القيمة كالألومنيوم، والنحاس، والذهب، والجبس، ويصنعون الأحذية، والسجاد، والأثاث. إنهم يطلقون على منشية ناصر اسم العزبة. كم من العظمة والثراء توحى بها كلمة عزبة! لم يقل لهم عزت إن عليه الارتقاء إلى بطن الجبل ليصل إلى منزله، الموجود فى عالم الزرَّابين، فى الزرايب.

لقد تعلم فى المدرسة أسرار الأرقام، وبينما هو يجرى الحسابات مع والده؛ فإذا به يكتشف بعض الأخطاء فى الحساب. منذ ذلك اليوم ونعيم مقتنع بجدوى ذهابه إلى المدرسة؛ فيجب الاستثمار فى التعليم.

وسرعان ما راج الفكر الذى اقتنع نعيم به حتى سار على نهجه داود – قريب عزت – وأولاد أبونان، وأولاد زرَّابين آخرين جاءوا من البدارى، ودير تاسا. لقد زاد يومًا بعد يوم عدد مجموعة التلاميذ الذين ينزلون من أعلى الجبل، معًا واجهوا المجهول. لقد صادفوا فى طريقهم "قطّاعًا للطرق" ينهالون عليهم بالضرب، ويستولون على حقائبهم، وكتبهم، ومصروفهم. لقد تعلموا الدفاع عن أنفسهم.

تبعتهم أجيال جديدة من الأطفال. لم تعد أمهاتهم تسعى إلى التحايل لانتزاع عدة ساعات من عملهن الشاق فى الزبالة. أكثر ما يبحثن عنه هو إخفاء بؤسهن، كتلك السيدة المتدينة من دير تاسا. فابنها خليل إبراهيم يبدو أنيقًا حتى يُخيِّل إلى من يراه أن أناقته فطرية؛ فهو بارعٌ فى فن الكلام. وإذا ما ارتدى ملابس جميلة، لن يساور أحدهم الشك فى أنه ينحدر من شعب الزرَّابين. لا أحد...

عزت، وخليل....متى تجرّآ على الإفصاح عن أصلهما، وقالا إنهما أبناء زبَّالين زرَّابين؟ فلكل منهما قصة يرويها. عزت، أبلى بلاءً حسنًا فى فرضه المدرسي؛ فأجاد وصف حياة الزرَّابين فى المقطم بأسلوب بديع، فسأله المدرس عن مصدر تلك المعلومات المفصَّلة، فقال بزهو: "أنا ابن زبَّال بيربى الخنازير، وبساعد أبويا فى شغله".

لقد اعترف دون أن ينتبه إلى ذلك.

لا شك أنه اكتشف فى ذلك اليوم ميله – أو حبَّه – للكتابة.

لقد تعلم الصبية الذين ينزلون كل يوم من أعلى الجبل للذهاب إلى المدرسة، ويلتقون بأصدقائهم عند سفح الجبل، أن يتصدوا لـــ "قطَّاع الطرق"، ولألسنة أهل المدينة. لقد اكتسبوا الثقة بالنفس. فى يوم من الأيام، قرروا تكوين فريق لكرة القدم، فلعبوا مع تلاميذ اليسوعيين أو ضدهم.

تحسدهم الفتيات؛ فهن مستبعدات من كل الألعاب، ومن كل المغامرات. الفتيات؟ لطالما بكت أحلام لتذهب مع يانّى، ومترى إلى المدرسة. لقد رغب الأب فى أن يذهب الصبيان إلى المدرسة. فلِمَ هذه التفرقة يا أبونان؟ يُظهر أبونان أصابع يديه العشر، ويقول: "هى صوابعى زى بعضها ؟ لأ ؟ أمَّال إيه ؟ فيه الكبير، والصغير، والفجير، والغنى، والبنات، والصبيان. لو كل حاجة زى بعضها تبجى مصيبة، دى تبجى نهاية الدنيي!" .

كل من توسَّط لأجل أحلام سمع هذه الإجابة.

هذا هو مصير الفتيات. لقد بكت صباح قليلاً، وجمالات أيضًا. هما بنات أخين تزوجا بنتى مجدِّس. بكيا لتنزلا من أعلى الجبل مع عزت، وداود، ولتحملا على ظهريهما حقيبة عوضًا عن الجركن على رأسهما. لا طائل من وراء بكائهما؛ فمن المحال التحدث مع صهرى مجدِّس؛ فهما يفكران كأبونان: على الفتاتين أن تلزما المنزل، وتمكثا فى حجر والدتيهما ريثما يختار لهما الأب زوجًا ليذهبا من سجن إلى سجن آخر.

راودت أحد الزرَّابين الأشد فقرًا فكرة تعليم ابنته. كانت سامية ستحظى بهذه المزية لولا سرقة أحدهم عربة أبيها الكارُّو وحماره فى ميدان التحريرفى اليوم نفسه الذى كان سيلحقها بالمدرسة. لم يتوقع هذا الرجل الجدع الذى يجمع الزبالة من شارع هدى شعراوى ضربة كهذه

من مطاريد البدارى. إنه يجوب الطرقات دون أن تصحبه ابنته سامية؛ فمن المفترض أن تعاون والدتها فى أعمال المنزل: تفرز الزبالة، وتطعم الخنازير، وتُحضر الماء. بيد أن سامية تفضِّل أن يصطحبها أبوها فى جولاته؛ فعلى الأقل يُعلِّمها الحساب. لماذا لم يصطحبها فى ذلك اليوم الذى سرقه فيه لصوص المدينة؟ "ده القدر. ده المكتوب". هكذا يقول المؤمنون.

اشترى بكل المدخرات المخصصة لدفع رسوم مدرسة سامية عربة كارُّو جديدة، وحمارًا جديدًا. اضطر لذلك اضطرارًا لكى يعيشوا.

كبر جيل جديد من الزبَّالين. هل فات أحلام القطار ؟

ظهرت على ساحة المقطم شخصيات جديدة. أولاً : الشاب الذى قابلته الأخت إيمانويل فى نيويورك، إنه منير نعمة الله، خبير واستشارى فى توزيع النفايات.

طلبت منه الأخت إيمانويل التدخل بشأن الزبَّالين. لقد علم أن البنك الدولى بصدد إنجاز مشروع من شأنه أن يخدم التقدم والبيئة.

إنهما حدثان متزامنان، وخاض منير المعركة.

لم يثق به الزرَّابون. ماذا على الزرَّابين أن يتوقعوا من شاب برجوازى، وُلد غنيًا، من تلاميذ الآباء اليسوعيين، وقادم من نيويورك؟

انتشرت الشائعات بسرعة حتى وصلت إلى النساء. نعم، إنه خريج مدرسة الآباء اليسوعيين، يعيش حياة الترف فى أمريكا البعيدة.

هل هم بحاجة إلى استشارى على هذا المستوى الراقي؟ أبونان، ومجدِّس، وكل هؤلاء الفلاحين القادمين من الصعيد؟

لقد وصل بصفته ممثلاً لمكتب استشارى برأسه، وأطلق عليه اسمًا على هيئة رموز بأحرف أجنبية: E.Q.I. E : Environement تعنى بيئة، وQ : Qualité تعنى الجودة، وI : International تعنى الدولية. جاء منير يحمل بشائر ربيع جديد، بيد أنه كان يعمل منفردًا.

لقد وصل ومعه الكثير من المال.

لم يثق الزبَّالون بهذا المال، بل ساورتهم الشكوك؛ لأنهم يأتون من الصعيد، ولأن الفقر علمهم ألا يثقوا بأحد. ألم ينصحهم مستشارو الحكومة بأن يتخفّوا قبل أن يستبدلوهم بالوسائل التكنولوجية الحديثة؟ لقد قال لهم منير إنه يملك منذ عام 1981م أموالاً من البنك الدولى لتحسين ظروفهم المعيشية، ولرصف الطرقات، لكنهم اتهموه برغبته فى حرمانهم من زبالتهم، ومن خنازيرهم، وتشجيع البرنامج الذى يرمى إلى طردهم إلى الريف مع مال البنك الدولى!

سارت مارى على نهج منير نعمة الله؛ فهى عالمة اجتماع مرموقة، استشارية فى مجال التنمية، ولديها ابنان من تلاميذ الآباء اليسوعيين.

هانى وراجى هما الصبيان اللذان اصطحبهما الأب بولاد معه ليريا بأعينهما البؤس المطبق الذى يعيش فيه شعب الزرّابين. ذهبت الأخت إيمانويل إلى مدرستهم لتحدثهم عن غنى الفقراء، وضرورة مدهم بثروات أخرى. ها هما هذان الشابان اللذان يحضّران رسالة الدكتوراه يجدان أنفسهما مضطرين لتأجيل دروسهما الجامعية فى الخارج لتأدية الخدمة العسكرية. إنهما يائسان، سيمضيان عامين لخدمة علم الوطن، عامين غير محتملين بالنسبة إلى طفلين مسالمين ومدللين.

لا يتخيل أبونان ومجدّس مدى قلق هذين الشابين المتورطين فى فخ الخدمة العسكرية، بيد أن لهما الحق فى أن تساورهما الشكوك: أنّى لهؤلاء البرجوازيين أن يفضلوا خدمة الزرّابين على الخدمة العسكرية؟ هل كانا على اتفاق مع مبعوثى الحكومة؟

لقد تواجهوا. كان بينهم انعدام الثقة؛ فزعماء القبائل يغيرون على سلطتهم، فالجميع ينادونهم "المعلّمين". ألم يسيروا بشعبهم من قرى الصعيد إلى جبال العاصمة، فصقلوا قوتهم خلال الهجرات المتكررة، المرة الأولى عند إقامتهم فى إمبابة، والآن فى قلب العاصمة؟ يبلغ راجى الثانية والعشرين من عمره. أما هانى ومنير

فيكبرانه ببضع سنوات. كانت مصداقيتهم فى خطر؛ فعليهم التفاوض مع هؤلاء "المعلّمين"، عليهم أن يلعبوا معهم الطاولة، ويثبتوا أنهم لا يعملون لصالح السلطات.

لقد تصرف منير بسرعة، واقتنص راجى الفرصة للرفع من شأنهم لديهم؛ فالمقاولون يحضرون ليستغلوا محاجر المقطم. والمحافظة تسمح لهم بهدم صف طويل به مجموعة كبيرة من الملاجئ تم بناؤها بالطوب، إثر نشوب الحرائق الكبيرة.

بدأ يحف خطر الهجرة الأبدى الذى يهدد حياة الزرَّابين. تفاوض راجى مع المحافظة، وكسب قضية الزرَّابين، فرسم خريطة المكان، ومسار الشوارع، وأطلق عليها أسماء العائلات الكبيرة. هذا العمل الهندسى الكفء كفيل بأن يضفى على المبانى المتواضعة الصبغة الرسمية، فأبعد بذلك خطر الهجرة الأبدية، أو على الأقل أجّلها. لقد أوشك أن يصبح بطلاً.

ثم ما لبث أن انعكس عمله العظيم على كل الفريق من الشباب، حتى أن "المعلمين" فى المقطم صاروا يطلقون عليهم لقب " دكتور"، ذاك اللقب المشرّف. لقد استشعروا من طريقتهم فى لفظ اللقب نبرة جديدة، تُكِنُّ لهم كل الاحترام والثقة.

لقد شرحوا للمعلمين – هؤلاء الرجال الأقوياء الذين تخطوا ظروف الحياة القاسية – أنهم لا يبيِّتون النية لمنازعتهم على سلطتهم، أو لفرض أفكار الحكومة عليهم؛ فهم هنا ليضمنوا لهم الأمان، وليوفروا لهم مصادر الغنى.

وقالوا لهم إن عليهم التنسيق فيما بينهم للتصدى للسلطات. فيما عدا ذلك، فإن نظامهم هو الأفضل على الإطلاق.

لم يعد لانعدام الثقة وجود بينهم.

ظهرت بشائر العمل الذى نظمه أبونا سمعان، وأصدقاء الأخت إيمانويل؛ فتم إنشاء حضانة للأطفال بمثابة أول مدرسة للأطفال، وتم توفير العناية الصحية الأولية، وإعطاء حصص لمحو الأمية، والتدريب على الحياكة؛ حتى غدا ترددهم على الكنيسة أكثر من ترددهم على القهوة، وظهرت بعض أمارات الرخاء؛ فقد تكاثرت الخنازير، والماعز بل وحيوانات الحظيرة أيضًا: الدجاج، والأرانب، والحمام، والإوزّ، والديك الرومى، كانت تنازع أطفال الزبَّالين الذين يتكاثرون بدورهم على الأماكن الحيوية، ثم جاء البقر فيما بعد. ونظرًا لأن قمامة المدينة وفيرة ؛ فهى تُطعم عددًا غفيرًا من حيوانات الحظيرة الصغيرة.

لم يكن بالإمكان رفع الجبل، إلا أنهم نجحوا فى هَزِّه.

قال الاستشاريون الشباب: "إحنا ممكن نعمل أحسن من كده ونبنى مؤسسات مثلاً. من غير المؤسسات إحنا هَمَج ".

أُنشئت جمعية حول "أبونا سمعان"، أسسها أنبا ساموئيل لدفن موتى المسيحيين، مُسجَّلة قانونيًّا فى وزارة الشئون الاجتماعية، وحوَّلها أبونا سمعان إلى ملتقى للأحياء. لِمَ لا يحولها إلى برلمان محلى صغير يكون بمثابة وسيط بين الحكومة، وشعب الزرَّابين؟

شقَّت الفكرة طريقها. إذن يجب إنشاء مجلس إدارة جديد للجمعية، وإجراء انتخابات.

وانبرى الجميع يزاولون نشاطًا كبيرًا. لقد أمسك أبونا سمعان، ممثل الكنيسة المحلى، والمعيَّن رسميًّا بوصفه رئيسًا لجمعية الزبَّالين بزمام الأمور فعلى الأقل وثقوا به . يتعيَّن أن يكون ثلاثة أرباع المرشحين من الآباء ممن لديهم عائلة كبيرة، أى من هؤلاء "المعلمون". لا يعرف "المعلمين" القراءة، ولا الكتابة، ويعتقد الجميع أنهم بحاجة إلى التعليم. فقرروا اختيار أعضاء الربع الأخير لبرلمان الجمعية من خارج قاطنى مدينة الصفيح: رجل شرطة، على سبيل المثال، أو ضابط فى الجيش، وسيتم تقليدهم مناصب رئاسية لضمان احترام البرلمان لهم.

يضطلع أبونا سمعان أو أحد أعضاء فريق منير بمهمة تعيين شخصيات ذات كفاءة، أو ذات وجاهة قادرة على التحدث بأكثر من

لغة، وعلى التواصل مع العالم الخارجى. لم يتبق إلا تشكيل أساس البرلمان.

تعهد "المعلمين" الذين لا يعرفون القراءة، ولا الكتابة، باحترام النظام الانتخابى، ومزاولة الديمقراطية. أجروا الانتخابات. كان عدد أهالى دير تاسا كبيرًا. لقد ربحوا. ربحوا لكن باتفاق ضمنى. اختاروا بعضهم بعضًا وفقًا لقانون متعارف عليه منذ زمن بعيد، عندما كانوا يعيشون فى القرية؛ فليست هناك حاجة إلى قوانين خارجية لإنشاء مؤسساتهم.

عمل أحد الخمسة المنتخبين فى المجلس التأسيسى كموظف لدى الجمعية، وتقاضى أجرًا نظير ذلك؛ فتم استبعاده من مزاولة أى عمل آخر. يُدعى إسحاق، ويتميز عن غيره من "المعلمين" بمعرفته القراءة، والكتابة – وهو أمر نادر عند الزرّابين فى عام 1982م – إذن هناك مشكلة فى استبداله بشخص آخر.

درج الناس فى القرى على التجمع تحت ظل شجرة لعقد اجتماعاتهم. كان أبونا سمعان بمثابة شجرة الجمّيز التى يلتفون حولها لتبادل الآراء. جرت العادة فى القرى أن يتحدث كل من يعنيه الأمر، فيتغير الرأى من فم شخص إلى آخر حتى يصلوا فى نهاية المطاف إلى الرأى المشترك. يرجع القدامى الذين يجتمعون للتشاور إلى منازلهم فيستشيرون أبناءهم، وأقاربهم، ونادرًا ما يستشيرون زوجاتهم،

وبناتهم؛ فليس لهن الحق فى الإدلاء بالرأى إلا من حين لآخر، ثم يرجعون بآراء جديدة. لم يكن يتم ذلك دائمًا فى هدوء، كما أنه ليس بإمكان أحد أن يفرض الهدوء على فلاحى الصعيد. ففى أُثناء المفاوضات يجب توقع ارتفاع الأصوات، والقيام بحركات التهديد. حتى أنه يخُيِّل إلى من يشهد هذه المفاوضات أنه يحضر مجالس للحرب. لقد لفظوا اسم "المناقشات" بنبرة تنم عن الاحتقار، لكن الشجرة التى كانت تدور حولها المجالس جذورها ضاربة فى الأرض؛ فالمناقشات تفضى فى النهاية إلى نتيجة.

فى أثناء أصعب المفاوضات يتوصلون فى النهاية بهذه الطريقة المؤقتة، وغير المنطقية إلى وفاق.

فى قلب الصحراء كان أبونا سمعان كالشجرة، تُتمتمُ حوله الكلمات فى داخل الجمعية ذات الجدران السخماء .

لقد توصلوا إلى وفاق، لا يعبأ أحد إن لم يعد يفهم أى منهم شيئًا.

لقد حلَّ منتخَبٌ خامس محل إسحاق، لكن ظل إسحاق المستشار الخفي؛ فهو يحظى بثقة أبونا سمعان، ويعرف كيف يمرر نظام الزرَّابين غير الرسمى عبر الطرق الرسمية للحكومة البيروقراطية المعقدة وغير المتوقعة.

لقد صدقت الشائعة؛ فلم يمسك "المعلمين" بزمام الحكم إلا ليخدموا مصلحتهم. لا شك أنه التفسير الشائع للديمقراطية. لقد فهم سريعًا هؤلاء الشباب ممن تحركهم حاجتهم الكبيرة للعدالة الاجتماعية

تلك الطبيعة الإنسانية، وانحنوا أمام سلطتها الكبيرة. لقد استفادوا من إنشاء هذه المؤسسة.

لقد أظهر بعض الأعضاء البارزين من الربع الأخير للبرلمان إخلاصهم، وجدواهم، بينما لم يحضر الآخرون الاجتماعات. ولكى يضمن منير نعمت الله سير العمل الجيد للجمعية وضع تحت تصرفها العمال الأكثر كفاءة.

هل رشح مجدِّس نفسه للانتخابات هو وصهراه فى الوقت نفسه؟ لا شك أنه عدل عن ذلك؛ فهو ليس من دير تاسا إنما من البدارى. إنه غريب فى عالم الزرَّابين؛ فهو أشبه بالبطة السوداء التى لا تشبه سائر البط، فينعتونها بالقبح؛ لأنها مختلفة؛ حتى وإن كانت فى جمال البجعة. بيد أن أبو نان رجل جميل بالفعل، فجسده كالثور، قوى، وشاب، مفتول الشارب، عيناه الواسعتان تشعان ذكاءً و دهاءً، جبهته متسلطة، ويعتمر عمامة أنيقة. لا يزال يرقص رقصة حرب الإخوة الأعداء، ويحرك العصا بخِفة، وينتفخ القفطان القطن الرمادى الذى يرتديه بهبوب الهواء، ويشرق وجهه بالمتعة. لكنه من البدارى، يختلف عن الآخرين، يكاد يكون الأخ العدو، لكنهم يتقبلونه بل يحترمونه. لو علموا بقصة الأسطورة لجعلوه يرتدى وجه الخنزير.

رغم أنه يعتمر العمامة نفسها، ويرتدى الجلابية نفسها، فقلما يجلس مع الصعايدة الملتفين حول "أبونا" سمعان لينهالوا عليه بمطالبهم.

أطلقت الأخت إيمانويل خطتها الخاصة بتوفير ألف مسكن، وجمعت المال لذلك، وشحذت عزيمة معجبيها فى كل أنحاء العالم. لقد تناثرت صور الزرّابين المساكين فى العالم أجمع، وغدت صورة الأهرامات، وأبو الهول، والمعابد، والكنائس، والجوامع مظلمة.

لقد ولّى عهد انعدام الثقة، وبدأ يرتسم مستقبل أقل ظلمة. يعرف الزرّابون فى المقطم أنهم يدينون بذلك لمنير، وأخويَه هانى وراجى، ويدعون الله لهم بدوام الصحة، ويعترفون بالجميل لله، ولمنير، وللأخوين: راجى الذى شرع فى الإجراءات، وهانى الذى أكملها. فبدونهم لغدوا على طريق الهجرة الأبدية.

لم يكن لهؤلاء الشباب أن يغامروا فى العشش؛ فهم يعرفون بالفطرة أنه لا يجوز لهم الدخول على النساء؛ فماما سعاد هى المعنية بالنساء.

ليست عادات الزرّابين غريبة عنهم؛ فالعائلات المصرية سواء غنية كانت أم فقيرة تتبع نفس الهيكل الهرمى للسلطة، ولديها القيم

المتشددة نفسها التى تتوارثها الأجيال؛ إذ تنتمى فروع الشجرة العائلية إلى جذر واحد، وتتشكل وفقًا للبلد، ولتاريخه، ولحقبة ما قبل التاريخ. الفرق هو أن هذه العائلات تعانى الفقر، والجهل، والاستبعاد. لم تخلف وراءها أجيالاً من الرجال المتعلمين، ذوى ثقة بأنفسهم تسمح لأطفالهم، ولا سيما للفتيات بالتحرر من سيطرة الأب، إنها سيطرة بدون منازع، يمارسها أبونان ومجدِّس، ويورِّثانها أبناءهم، وأصهارهم. إنها سيطرة عمياء، لا تُطاق.

لديهم حق قوى، حق شبه مقدَّس فى الوجود فى مراكز القيادة. لديهم هذا الاعتقاد الخاطئ، ويطالبون بهذا الحق فى المجال العائلى، وفى العلاقات العامة.

حتى إن بدت جمعية الزبَّالين ظاهريًا قائمة على نظام الديمقراطية والانتخابات فإنها لا تزال تخضع لنظام شبه إقطاعي؛ إذ يستفيد منها على وجه الخصوص آباء وأجداد العائلات كبيرة العدد فى مدينة الصفيح، حتى إنها أصبحت معقل "معلمين" دير تاسا. على غرار اليونان القديمة، يستبعد النظام الانتخابى النساء، والعبيد، والأجانب. لعل ذلك يُعد من آثار الهيلينيين الذين احتلوا البلاد فى يوم من الأيام. أما فى المقطم، فالعبيد هم الحمير والنساء.

عليهم الانتظار عشر سنوات ريثما تظهر سيدة لا تأبه لمبدأ السلطة الأبوية السائد فى هذا المجتمع، ولتكون عضوًا فى المجلس. تُدعى ليلى كامل، برجوازية، من الطبقة الغنية، ثم ما لبثت أن قدَّمت

استقالتها بعد ثلاثة أشهر لتذهب إلى الجهة الأخرى من الزرايب حيث سيوجد فيما بعد رمز التقدم: مصنع للسماد، هنا ستتعلم الفتيات أنشطة تخولها سلطات.

لم يفكر أحد بعد فى تغيير سلطة الآباء.

تزوجت كل بنات مجدِّس، مبعثرات هنا وهناك فى زرايب العشش المجاورة. أهدى أبونان إلى أبنائه الكبار براعم من النساء تساعد أم نان فى القيام بعمل الفرز الشاق، وتملأ المنزل بالأطفال. لقد "أعطى" أولى بناته نادية إلى عائلة أخرى من الزبَّالين الزرّابين، لكنه ينعى همّ أحلام؛ فهى تبلغ الآن الثالثة عشر من عمرها، وجاءتها الدورة الشهرية منذ عدة أشهر، عليه أن "يستتها".

تود أحلام الذهاب إلى المدرسة، بيد أنه ليس مسموحًا لها ذلك؛ لأن المدرسة "بتبوظ البنات"، على حد قول أبونان، وأم نان، والأصداء التى تتردد فى كل مكان. ما على أحلام إلا أن تواجه مصيرها: الزواج. بيد أنها ترفض هذا المصير بكل ما أوتيَت من قوة. كتب لأحلام؟ يا لها من فكرة حمقاء! لم يكن حتى لأبونان أن يفكر فى ذلك. لطالما دافع عنها أبونا سمعان وزوجته سعاد، واستشاطا غضبًا، وانفعلا ضد تلك السلطة المشوبة بالجهل. لقد كانت الطفلة جميلة، وتشع ذكاءً، فلِمَ لا تذهب إلى المدرسة؟ فمنذ ذهب إخوتها إلى المدرسة و هى تبحث فى القمامة عن كنوز جديدة: قلم، ممحاة بالية، وورقة خالية؛ فهى ترسم، وتصر على يانّى، أقرب الإخوة إليها فى العمر، أن يكتب لها اسمها، والأرقام، وحروف الأبجدية.

وتقول له : "لو عاوزنى أعملك كباية شاى، اكتب لى كلام على الورقة دي" .

وتقلد كتابته بعناية ؛ فلم لا تذهب إلى المدرسة ؟

كل من تدخَّل لصالح أحلام، ذهبت جهوده أدراج الرياح. وتعنَّت أبونان ليجعلها فى خدمة أمها؛ فلن يطلق سراحها إلا ليزوجها.

ذهب أبونان إلى القرية ليرى ما سيعود عليه من ربح من الأفدنة الخمسة التى أعطاها الرئيس عبد الناصر لوالده. توطدت صداقة بينه وبين رفيق له فى السفر، أحد الزرَّابين من الجبل، أُحد "البلديات"، ربطت بينهما صداقة. ولشدة انشغاله بهمٍّ زواج ابنته وكدليل على هذه الصداقة، تعاهدا على أن يزوج أحدهما ابن الآخر لابنة صديقه. هكذا وجدت أحلام نفسها موعودة للزواج، هكذا "وُهبت" أحلام.

"أبوكى عايز كده"، كانت تقول لها ذلك والدتها التى سبق لها أن خضعت لإرادة والدها.

لقد طلبت أحلام الحق فى التعبير عن رأيها؛ فأسكتوها. "البنت مالهاش كلمة".

لقد خضعت نادية، و ثارت أحلام. لِمَ تُحرم الفتاة من حقها فى إبداء رأيها؟

لم لا يتمتع بهذا الحق إلا الأب؟ عليها أن تتكلم كى تقود مصيرها، مصيرها هى. إنه مصير أحلام و ليس مصير والدها.

كانت قد تعلمت أن ترضخ لله، و لوالدها دون مناقشة ؛ فلم إذن هذه الثورة التى لا طائل من ورائها؟

الفتاة التى ترفض أن تتزوج من قريبها بعد أن قال الأب كلمته فى هذا الشأن ترتكب جريمة شنعاء.

قال الأخ: "بهدلت شرف العيلة!".

قال الأب: "دى مرَّغت كرامتى فى التراب".

الجريمة تؤخذ بالعقاب.

"تستاهل إنها تتقطع إربًا إربًا".

يجب حبسها فى المنزل.

هذا هو المصير الذى ينتظر الفتيات العاصيات.

تسعى أحلام لإقناع أبونان باللين، والحُجة. إنها تريد أن تذهب إلى المدرسة؛ لأنها تهاب الزواج. ليست كهذه التعيسة التى تهوى من لم يختره لها أبوها، ليست كليلى، تلك التى تحمل اسم صاحبة أسطورة حب مجنون ليلى. فالخوف هو ذريعتها الوحيدة، ورغبتها فى الحياة أيضا. أنَّى لها ألا تسترهب الزواج وقد طرقت مسامعها حكاية تلك الفتاة التى قطعها زوجها بالسكين إربًا إربًا؟ تلك الطفلة المسكينة التى "أعطوها" لعائلة مجنونة، كانت على شفا الموت لآلاف المرات. حماتها وأخت زوجها يحمِّلانها الطوب الأحمر، فتحمل الطوب الأحمر طوال

الوقت، كمية كبيرة من الطوب. ويسن زوجها السكين أمامها، ويقول لها : "حجطعْك حتت زى الفرخة".

لشدة خوفها أُجهض الحمل.

ولشـــدة التعب أُجـــهض الحمل مرة أخرى بعد أن عاش المولود – وهولا يزال نطفة – ثمانية أشهر فى بطنها.

فرّت إلى أهلها لتجد عندهم الملاذ.

تقول لهم : "أنا خايفة، ده بيخوّفنى بالساطور".

وأهلها يسخرون منها.

"ده بيهزر معاكِ. يالاً ارجعى لجوزك. دى الرجالة كلها بتجُول الكلام ده. ما تصدجيهوش، ده بيهزر" .

كانت تقو ل لهم : "أنا تعبانة جوى".

بيد أنهم أعرضوا عنها وصكّوا آذانهم؛ فهى لم تعد ملكهم، لقد "أعطوها" لزوجها. عادت إلى أدراجها وهى ترتعد فرائصها، إنه الخوف مرة أخرى.

لقد قتلها ليلاً، وعجّلوا بدفنها لكيلا يقوم الطبيب الشرعى بفحصها.

وبعد تلك الحادثة بسنتين، وعندما همَّ بالزواج مرة أخرى قامت قريبة له بإدانته:

هل تعرف أحلام هذه الحكاية؟ كل بنات الجبل تُزف إلى مثل هذا الشهريار. وسرعان ما تُزوَّج الفتاة إلى شهريار قبل أن تفقد عذريتها ؛ فيُفقدها عذريتها. ويالها من ضربة حظ إذا ما كان هذا الشهريار رجـــلاً بالفعل. على أحلام أن تتزوج، لقــد قرر أبوها ذلك، لا ريب أنه يحسب نفسه يتصرف تصرفًا حكيمًا.

تزوجت أحلام وهى فى الرابعة عشر من عمرها. وقد رفض أبونا سمعان مباركة هذا الزواج، وقال: "مش ممكن تجوِّزها. دى صغيَّرة"، لكن أبونان قال كلمته. لقد غدا زواج أحلام مسألة شرف، شرفه هو. لقد أحضر قسيسًا من إمبابة.

قال أبوها: "أنا دلَّعتها جوى وجبتلها فستان أبيض عشان فرحها". هل كان الإنفاق على الثوب الأبيض بغية إضفاء روح البهجة على تلك المجزرة؟

هل شهدت الأم والداية فض عذريتها؟ هل شعرتا بالفخر عند إظهار المنديل الملطَّخ بالدم للشهود، كدليل على رجولة الزوج، وشرف الأب، والسلوك الحميد للأم؟ فبدون ذاك المنديل الملطَّخ بالدم لا شرف لأى فرد من أفراد عائلة الزوجين.

لن تنبس أم نان ببنت شفة؛ فما لها أن تفصح عن سر ليلة العرس هذه، كما أنه من المحال سؤال أحلام عن أسرارها ؛ فحاجز الحياء مدرَّع، لا يمكن اختراقه ؛ إنه يحمى السر. لقد أنقذ الدم الشرف.

لن يتسنى لأحد معرفة ما إذا كان الدم يأتى من مهبل الطفلة، أم من معدة الدجاجة؛ أكان تدفقه من جرَّاء الاغتصاب، أم بفعل الحب؟

لقد تزوجت أحلام، ولم تحدث فضيحة.

ذهبت لتعيش فى منزل زوجها،على بُعد مائتى متر من منزل أبيها. على الرغم من ذلك بدا بعيدًا كبلد المهجر. لم يحمل اسم شارعها اسم *المعلم* كسائر الشوارع، بل حمل اسم تلك الفتحة التى تُحرق فيها زبالة الزبالة حيث اندلعت الحرائق الكبيرة التى أفزعت شعب الجبل: شارع الفرن، إنه الشارع الرئيسى، أطول شارع فى الحى كله. لقد انتقلت أحلام إلى أبواب جهنم. وسَط رجال العائلة الجديدة، تتحاشى أحلام بصعوبة بالغة نار الرغبة الجامحة . دون تاج العروس، ودون الفستان الأبيض، دون بركة الزفاف، يتهددها خطر الاغتصاب فى كل صباح ومساء، بيد أنها قاومت، قاومت اللهيب فى كل صباح ومساء.

ليس زوج أحلام برجل شرير. إنه يكبرها ببضع سنوات؛ فهو طفل وقع فى براثن البؤس. ويكفى أن يراه الناس مع حماره ليكتشفوا ما بداخله من كنوز الحنان. الحمار صديقه، أعز صديق له. لم يضربه قط، بل يطعمه ببطن يده ويربِّت عليه باليد الأخرى، وقال فيما بعد إن الحمار يبادله تلك الصداقة. يُفرغ زوج أحلام قمامة شارعين، أحدهما فى الشعرية، والآخر فى سوق الزيتون، فيفرغ يومًا قمامة الشارع الأول ثم فى اليوم التالى قمامة الشارع الآخر. أحيانًا يغلبه النوم وهو فى العربة الكارو؛ فيقوده الحمار، ولا يضل الطريق أبدًا. يسلك يومًا

الشارع الأول، وفى اليوم التالى الشارع الآخر، ويكفل له الحمار الحماية أثناء نومه، ويرعاه.

قالت أحلام : "كان بيعاملنى أوحش من الحمار".

قالت فيما بعد لزوجها عندما غلب حنانها على غضبها :"ما بتعاملنيش بحنيّة ليه زى حمارك؟".

لأحلام صديقة من أيام الطفولة، قريبة لها، تُدعى ليلى ابنة سميرة، الابنة الخامسة لمجدّس، التى يُطلق عليها اسم أم ليلى.

لم تكن سميرة قد بلغت بعد عندما زفّها أبوها إلى صبى غير مستقر الأحوال، يكاد يكبرها ببضع سنوات. صار أطفال سميرة يموتون واحدًا تلو الآخر بسبب التيتانوس، وزوجها يفرُّ منها. يظن الجميع أنها ملعونة، وتسكنها قرينة، يخالونها عفريتًا. البعض يمنعها من دخول منازلهم، خشية أن يصيبهم النحس. لم تنجُ من المرض إلا ابنة واحدة، ليلى؛ مما أكّد مخاوف شعب الزبّالين. تبلغ ليلى عمر أحلام لكن لم يبغِ أحد الزواج بها بسبب العفريت الرابض فى بطن والدتها.

ترددت آن مارى كامبو – وهى أختٌ تناصر العلمانية فى رابطة جمعية يسوع التى تأسست فى أوائل القرن – على الأخت

إيمانويل التى دعتها غير مرة لزيارتها قائلة لها: "تعالى، تعالى، تعالي".

منذ ذلك الحين وهى تتردد على المقطم. فى بادئ الأمر كانت تحضر كمتطوعة مرة فى الأسبوع مع كاريتاس[1] للقيام بفحوص طبية فى عام 1948م . ثم جاءت لمدة ستة أشهر فى خلال سنتين مع رجل وزوجته الفرنسيين اللذين كانا يعملان للجمعية، وظلت تحضر بصفة مستمرة حتى تمت إحالتها إلى المعاش فى فرنسا.

سرعان ما فهمت آن مارى كامبو أن الظلال تنطوى على حقيقة أكبر من الحقيقة ذاتها فى عالم الفلاحين الزرَّابين. لقد فهمت ذلك عندما استنتجت مصير أم ليلى الملعونة التى تسكنها الأرواح الشريرة؛ لأن أطفالها يموتون، ولأنها لم تُرزق إلا ببنت.

كانت حماة أم ليلى دَاية، وتظن آن مارى كامبو أن هذه القرابة من شأنها أن تؤهِّل أم ليلى لترجمة لغة الأرواح، ولغة الميكروبات؛ فبدأت بترويض هذا العفريت الرابض فى بطن الفتاة الخامسة لمجدِّس، وقالت لها: "قيمة البنت زى الولد"، وهكذا حملت سميرة بكل فخر لقب أم ليلى، وبدلاً من أن تشعر بأن عفريتًا يسكنها، شعرت وكأن حكمة جديدة تسكنها، حكمة قطفتها من شجرة المعرفة.

---

(1) جمعية "الإغاثة الكاثوليكية" وهى جمعية خيرية أنشئت بموجب قانون عام 1901م. (المترجمة)

ثم ما لبثت أن اصطدمت الأخت آن ماري كامبو بانعدام ثقة العائلات بها، وفتحت أبواب المنازل عنوة بصحبة أم ليلى. إنهم بحاجة إلى الأخت آن ماري؛ فكانوا يَدّعون أم ليلى تدخل إلى منازلهم.

لقد كوّنوا معًا فريق عمل. كانت آن ماري كامبو تفرض وجود تلك "الأم المسكينة التى يسكنها العفريت"، بينما تباشر آن ماري كامبو عملها وتداوى الجراح، تتحدث أم ليلى بلغة الخزعبلات، وتقول وهى تلمز فى خفية: "الست دى خواجاية مش فاهمة حاجة. ما علينا. لازم تغسل الجرح، وتطهره. أنا وإنت ممكن نشوف العفريت بس هى ما تشوفوش عشان خواجاية، والحقنة بتجيب أجل أى عفريت".

كانت أم ليلى مُقنعة؛ إذ إنها لشدة معرفتها بالعفريت قبل أن تقوم بترويضه، وتحويله إلى ميكروب، تتعرف على وجهه البشع، فتكتشفه عند الأم التى يجف اللبن فى ثديها، وتقوم بعمل العديد من العقد فى سلسلة لإبعاد العفاريت، أو تزور قبر من مات خلال الأسبوع لتتزود بالحليب الغنى، وتلاحقه لدى من تظن أنه أصابه مس كالذى أصاب صاحب هذا القبر. هناك عقاقير تشفى من المرض، واحتياطات صحية لتجنب المرض، وإبعاد الموت. أما عن العقم، "طب نخاف ليه؟ ما هو عددنا كبير وكفاية للأرض"، تلك هى الدروس التى تُعاد مرارًا وتكرارًا دون كلل أو ملل.

تقوم كل يوم أم ليلى وآن مارى كامبو بجولة فى المنازل، وتستمعان فى الشوارع إلى الأمهات، والآباء، والأطفال. تتحدث آن

مارى بصراحة، وتعبر عن رأيها بلغة عربية "مكسَّرة" كالأخت إيمانويل، كما لو أنها تغرس التفكير السليم فى أرض يجتاحها الخيال الجامح.

لقد قاتلنا معًا كل الشياطين المجتمعة فى مجتمع الزرَّابين؛ فعلى سبيل المثال: عليهما أن يعلما النساء أنه لا خوف على الصرة من الماء، ولا يجب قطع الحبل السرى بمقدار ثلاثة قراريط من جهة، وثلاثة قراريط من الجهة الأخرى، وعقد الطرفين بشدة، وتغطيتهما بالكحل ثم اتهام الشياطين، والحسد، والقرين، والقرينة بالقتل المتعمد مع سبق الإصرار والترصد. إنها لمعجزة أن يعيش المولود بعد سبعة أيام، سبعة أيام تشق خلالها البكتريا طريقها إلى جرح الحبل السرى، وتتكاثر، وتهاجم الجهاز العصبى، وتقتل الرضيع قبل أن يأخذ حمامه الأول المقرر له فى اليوم الأربعين؛ فمقاومة التيتانوس تتم بالحقنة، وليس عن طريق الخزعبلات، فيأخذ الرضيع حقنة واحدة فى الشهر لمدة شهرين ثم حقنة ثالثة بعد ستة أشهر.

وتضاعف الاحتفال بالسبوع فى الجبل، فيوضع المولود فى الغربال لكى يمر من خلاله القرين، أو القرينة. لقد تم القضاء على التيتانوس.

لقد قضت حقن أخرى على أمراض أخرى، تلك العفاريت الخطيرة التى لا تكل، وتتكاثر.

لقد أهّلت هاتان السيدتان نساء كثيرات: تسع، إحدى عشرة، أربعون، خمسون ... يُكررن الحركات، ويُرددن النصائح، و يؤهّلن نساء أخريات.

إنهن يكافحن العادات البالية، والشياطين، وختان البنات، وزواج الأطفال، والحمل المتكرر، والعنف، والسلطة الأبوية، ويخترقن قانون الصمت الذى يأسر الفتيات بتقديم المشورة خلسة للعائلات.

لقد جاءت آن مارى كامبو، وكوّنت جيشاً من النساء اللاتى يقاتلن العفريت، بيد أنها لا تزال تشهد العديد من المآسى، والقليل من السعادة.

لقد قابلت أحلام فى إحدى جولاتها، تلك الفتاة التى تنبض بالحياة، والتى سريعًا ما دخلت قلبها. لقد زوّجوها، و"أعطوها" لعائلة لا تعرف إلا لغة الضرب. لا تنفك أحلام تردد أن الحيوانات تُعامل بطريقة أفضل منها؛ فحماتها تغير من شبابها، وجمالها، وانجذاب زوجها إليها؛ فترهقها فى العمل المستمر، ولا تسمح لها بالطعام إذا جاعت، وتضربها، بل تدفع ابنها أيضًا إلى ضربها. تتمنّع عنه أحلام بجسدها، فيبرحها ضربًا بكل ما أوتى من قوة السُخط.

ماذا حدث إذن فى ليلة العرس كى تغدوالمضاجعة فعلة شنعاء بهذا الشكل؟ فجمالها يفوق جمال الأميرات فى الأساطير، وتعاستها

تفوق تعاسة الخادمات فى روايات الساحرة الطيبة. هذا هو مصير أحلام التعس.

هل يساور أبونان الشك فى تعاسة ابنته؟ إنها التعاسة التى قدَّرها لها.

هل يتعمَّد أن يتجاهلها عندما تلوذ بالفرار إلى بيت أهلها، وهى أسيرة حماتها؟ فأبونان يطردها من بيته.

لم ترد سوى الذهاب إلى المدرسة كى لا تغدو كالحيوان، وها هى كما لم تكن من ذى قبل، كالحيوان المتوحش الذى يدافع عن جسده بأظافره، وبأسنانه، فتصيبها الهستيريا، ويتملكها شيطان رجيم كالنساء اللاتى أخرج أبونا سمعان العفاريت من أجسادهن.

تلمح من بعيد هؤلاء الاستشاريين الشبان وهم يتحدثون إلى "المعلمين". بإمكانها أن تهرب من الأسر لتطلب منهم أن يطلقوا سراحها، لكن ظلت شكواها حبيسة فى دخيلة نفسها. لم تهرب إلا لتلوذ ببيت أبيها الذى يردها إلى بيت زوجها.

"مش كفاية جبتلك الفستان الأبيض؟"

"الدنيا مش سهلة"

"ماحدش بياكلها بالساهل"

هكذا يقول أبونان للفتاة التى تبحث عن الملاذ فى منزل أبيها.

تذكر أحلام عنزة أبونان ولمسات حنان أبيها لها؛ فهى تطيعه طاعة عمياء، ولم تترك لجارها الفرصة لأن يقتنصها.

ليس لأحلام أن تتعلق بوالدها كتعلق العنزة به.

إنها تعيش مصيرها، مصير تقليدي.

عندما دخلت الشابة هبة الخولى إلى المنازل كى تخرج النساء من جحورهن، كانت أحلام تجرّ زبالة أهل زوجها.

تكاثر المتزوجون فى جبل المقطم؛ فهم يتزوجون قبل فترة الصيام وبعدها. يقول الأب إن على الزوجة أن تخضع لزوجها كما خضعت سارة لإبراهيم، وأن تحترم الحقوق المفروضة عليها، وأن الرجل مسئول عنها بعد أهلها. تحدث عن نوح الذى عمَّر العالم. لقد سها عنه ذكر الحب. يجب أن يكون هناك القليل من الحب لملء المنازل بالأطفال.

فى هذه الأيام التى يفضل الناس فيها الزواج، وجدت ليلى حفيدة مجدِّس زوجًا لها. لقد وُلدت من بطن يربض فيه عفريت، فعليها أن

ترضخ للقدر. بما أنه هذا هو الزواج الذى يفرضه المصير للأبد على النساء فى السرَّاء والضرَّاء.

أحلام وليلى، صديقتان، استمرت صداقتهما مدى الحياة، وجمعت التعاسة بينهما.

عادت الأخت إيمانويل إلى المقطم ذات يوم لتُنشئ فى عالم الزرَّابين مصنعًا للسماد من شأنه أن يغير مجرى حياة الجبل. اختارت الراهبة البلجيكية موقعًا فى قلب مجتمع الزرَّابين بمحاذاة الشوارع التى لا أسماء لها، ولم تُعمَّد بعد، تلك الشوارع التى يسكن فيها مجدِّس وأبونان عند نهاية الشارع الرئيسى الذى يُطلق عليه اسم شارع الفرن.

ستعاود الأخت إيمانويل الشروع فى الإجراءات لإنشاء هذا المصنع، وستعترضها الصعوبات نفسها، لكنِ فى هذه المرة يساندها منير نعمة الله وفريقه. مصنع لتنقية السماد وتحليله، ذاك هو طموح الأخت إيمانويل. سيستفيد منه الزرَّابون، لا سيما وأن الزرايب المكتظة بالخنازير ستصبح مصدرًا للربح الكبير.

لم يعد ينظر الزرَّابون باستنكار إلى تلك الراهبة البلجيكية الجريئة التى لا تتوارى عن أنظار الرجال.

لقد شهدوا قدوم راهبة أخرى لم تكن أجنبية تُدعى تاسونى سارة.

وقد وجدت لها الأخت إيمانويل عملاً فى الوقت الذى جاءت فيه لقضاء إجازتها لمدة خمسة عشر يومًا فى الدير، لكنهم قالوا إنها على الأرجح صرفتها عن العمل.

جابت تاسونى سارة - التى تبلغ من العمر ثلاثين - عامًا مع الأخت إيمانويل طرقات أوروبا وأمريكا. لقد جمعت التبرعات، وأدارتها، وها هى ذى قادمة لتُنشئ مستوصفًا، ومدرسة للأطفال وسط زرايب الجبل، كما أنها قامت أيضًا ببناء ملاذ متواضع لها وللأخت إيمانويل قريب من المكان المزمع فيه إنشاء مصنع السماد. إنه متواضع بالفعل، بيد أن الزرَّابين عدّوه ضربًا من الرفاهية المفرطة؛ إذ إن الراهبتين قامتا بوضع حوض معقَّم لاستعمالهما الشخصى.

عندما أُحيلت الراهبة إيمانويل إلى المعاش، خلفتها تاسونى سارة؛ فهى بمثابة المحاسِبة، ووزيرة المالية الفعلية؛ فتولَّت إدارة مجموعة المدارس والأماكن الترفيهية، الأشبه بالإمبراطورية التى تم إرساؤها بعد صبر طويل بفضل الحملة الرنَّانة التى قادتها الراهبة البلجيكية والتى كادت تضع نهاية لمهنة الزرّاب.

لقد نعتوا هاتين الراهبتين بالعِناد، بل إن الراهبة المصرية كانت أكثر تعنُّتًا من البلجيكية؛ فسرعان ما انتشرت فضيحة تاسونى سارة فى

مجتمع الزرَّابين؛ إذ إنها التحقت بالكنيسة رغمًا عن أبيها. لقد درست لدى الراهبات الناطقات بالفرنسية، وحصلت على دبلوم التجارة، ودرّست اللغة الفرنسية؛ ففى حوزتها ألف سهم لتصوِّب نحو السماء.

كانت تُدعى تهانى العُبير. لقد عارضت أباها، وأصبحت تاسونى سارة، وتعنى تاسونى باللغة القبطية: الأخت.

هل بوسع أحلام أن تعارض رغبة أبيها كما فعلت تاسونى سارة؟ لم ترد أحلام أن تصبح راهبة، فإن ما ترغب فيه ليس شيئًا يُذكر، فرغبتها الوحيدة هى أن تذهب إلى المدرسة.

إنها تسكن فى الجهة الأخرى من الزرايب. كيف قابلت الأخت إيمانويل؟ إنها تحتفظ بصورة للأخت إيمانويل، ولا تزال تذكر تلك الطاقة الكبيرة التى تتمتع بها، القادرة على تحطيم أسوار السجن، سجنها.

لا شك أنها قابلت الأخت إيمانويل عند أبونان إذ عهدت الهروب من منزل الزوجية. هل حدثتها كما هى عادتها عن أهمية الذهاب إلى المدرسة؟ لقد وعظت تلك الراهبة البلجيكية فتاة ما لبثت أن اعتنقت فكرها. ماذا قالت تاسونى سارة لتلك الطفلة المرأة؟

تتحدث هاتان الراهبتان بثقة، ودون حرج فى حضرة الرجال. إنهما تمدان أحلام بأفكار تدفعها إلى التمرد. أثار ذلك قلق الزرَّابين؛ فهاتان الراهبتان القادمتان ومعهما رياح الحرية تثيران الاضطراب فى

نظام القيم المتعارف عليها، وعلى الزرَّابين أن يمنعوا ذويهم من احتذاء هذا المثال السيِّئ؛ فيمنعوهم باللكمات.

لم تستسلم أحلام؛ فهى أبِيَّة، مستميتة فى دفاعها عن نفسها. وفضلاً على ذلك فهى تمتلك سلاحًا: تمتنع بجسدها.

وبحوزتها سلاح آخر، الأمل. لقد استقرت الأخت إيمانويل مع تاسونى سارة فى مأواها الصغير لتغيِّر مصير الزرَّابين، ومصير أحلام. لقد جاءت ومعها فكرة جديدة.

كانت آلة السماد بمثابة ضمان، ضمان للتغيير.

يمتلك الاستشاريون الشباب عربة جيب، ويصطحبون فى جولاتهم الاستكشافية أصـــدقاء لهم يمكنهم تقديم المســـاعدة بطـــريقة أو بأخرى فى مشروع السماد.

مَن جذب يسرية إلى الشوارع المليئة بالزبالة المتعفنة، وأشلاء الحيوانات؟ راجى أم هاني؟ "حطى رجلك هنا على الصخرة دى، نطى فوق البِركة" ... تتبع يسرية التعليمات، وتتنقل من صخرة إلى صخرة؛ لتتجنب العقبات؛ فإذا بها تسقط فى قلب جبل من القمامة المتعفنة، غير بعيد عن عشة أبونان. قال الشباب إنها لن تعود أبدًا. لقد عادت يسرية، عادت لأنها وقعت فى القمامة؛ فيسرية تحب التحدي.

لقد عادت فى المرة الأولى وقد تملَّكها الانبهار بمنظر المقطم المهيب. إنها تقف فى المكان المزمع فيه إنشاء مصنع السماد الذى يشرف على مدينة القاهرة. يتوقد غروب الشمس فوق مساجد القاهرة، وأهرامات الجيزة. تحت أقدامها، تقتات النار من القمامة. الأرض والسماء تحترقان. وعوضًا عن الكهرباء، هناك ضوء النار الأحمر الذى يشعل الشمس ثم ضوء القمر والنجوم.

الماء قيمته كبيرة كقيمة الشامبانيا العتيقة. غدت الشوارع أو ما يقوم مقامها مكانًا للغائط، والنساء لشدة حيائهن ينتظرن الظلام لقضاء حاجتهن. زبالة مقالب القمامة تغطى روث الحيوانات وغائط الناس، فتأكلها الماعز، والخنازير، والحمير، وطيور الحظيرة. نيران...مرة أخرى نيران... تحترق على أبواب الأكواخ لتقضى على ما تبقى منها. كانت المخلَّفات مبعثرة فى الزرايب أو معرَّضة للشمس فى منثر عام، فى كل مكان رائحة كريهة عفنة وعطبة.

منذ عام 1983م ويسرية تعمل كمحاسبة، وكحافظة نقود ...لقد أرسلتها العناية الإلهية!

فى هذا الجحيم سيتم إنشاء مصنع السماد. لقد تم التفاوض حول سعر إيجار الأرض؛ فالثمن باهظ ودراسات الجدوى فى طور التطبيق. لكن واجهتهم مشاكل لا متناهية على المستوى العلمى، والتقنى، والاقتصادى، وعلى مستوى الإجراءات الحكومية؛ فهو أول مصنع من

هذا القبيل، النموذج الوحيد لذلك هو المصنع البدائى لمقلب القمامة العام فى شبرا، فضلاً عن قلة عدد الخبراء المتمرسين على هذه التقنيات.

لكن الأخت إيمانويل اتصلت بالشركة السويسرية للإخوة بهلر.

تمثل آلة السماد هذه أمل المستقبل، وأمل التغيير.

مرت عشرة أعوام اغتيل خلالها رئيس وخلفه رئيس آخر، وتغيرت سيدة مصر الأولى. لم يعد يعيش زرابو المقطم فى الجحيم؛ فقد أدخل مقاولو شركة النصر الماء والكهرباء وصرف المجارى، كما قاموا بتوسيع الشوارع ورصفها.

أنشأ أبونان ومجدِّس بالأسمنت المسلح عمارات دعامتها قوية بإمكانها أن تحمل أربعة طوابق بها شقق لكل صبى بل أكثر إذا لزم الأمر فى حالة زيادة عدد أفراد العائلة. وبنى مجدِّس الذى لديه ابن واحد شققًا أخرى ليعرضها للإيجار. علت أسوار المنازل بمناسبة عقد زفاف أو إثر ربح غير متوقَّع. وتبقى أسياخ الحديد التى تتجاوز أسطح المنازل شامخة تتجه نحو السماء، فى انتظار تغطيتها بالأسمنت لبناء جدران جديدة من الحديد المسلح وأسطح جديدة تحمل بدورها مجموعة من أسياخ الحديد لجدران جديدة وأسطح جديدة.

زيَّن أبونان ومجدِّس الجدران بصور القديسين التى حصلوا عليها يوم الأحد من كنيسة القديس سمعان، وذلك لحماية الأبنية الجديدة من الحسد والقرين، ولتحل محلهما البركة فى هذا المسكن الجديد.

هناك مكان للأولاد فى منزل أبونان بيد أن الفتيات، ولاسيما أحلام ليس لها مكان؛ فلم تعد الفتيات المتزوجات ينتمين إلى أسرة أبونان. وتوجد فى بناية أبونان شقتان لكل ولد من أولاده، وينتظر بخيت والأخان الصغيران ريثما يكبرون ليتخذ كل واحد منهما زوجة ولتغطية جدرانهم بسطح لهم.

بنى حمو أحلام هو الآخر منزلاً بطوب من الأسمنت المسلح. لكنه خصص لزوجة ابنه هذا المكان المظلم المعرَّض للدخان المنبعث من حرق الصفيح بالجوار منهم، والغبار الذى يحدثه المارة . فأحلام تثير حفيظته بكبريائها وتمنُّعها عن ثعالب المنزل وابنه يثير احتقاره؛ فهو لا يقوى على إثبات رجولته. لم يبد أبونان استعداده لأن يجزل لهما العطاء.

الخنازير فى منزل أبونان أحسن حالاً من أحلام فى منزل أهل زوجها.

ولأن أبونان لم يغامر لاقتراض المال؛ فما من جديد سوى هذا المنزل الذى يعلو من حين لآخر ليُضاف إليه دور جديد. فى أسفل البناية توجد عشتة القديمة، وبين الأعمدة هناك مكان واسع للزبالة

والزريبة العائلية؛ فأبونان لم يجبر خنازيره على التكدُّس كى يترك مساحة لمصنع صغير.

فى خلال عشر سنوات طويلة، رأى أبونان صفوة المجتمع المصرى من المسيحيين والمسلمين. فمنير يعيِّن خريجى الجامعات الأجنبية وجامعات الأقاليم؛ إذ يجب أن تتوفر جميع الكفاءات لتحسين صورة الزبالين: من مهندسين مدنيين، ومهندسى ميكانيكا، ومهندسى المخلَّفات، ومهندسى الصرف الصحى، وأطباء بيطريين، ومتخصصين فى الإنتاج والغذاء الحيوانى، واقتصاديين، وعلماء أنثروبولوجيا...

تم شغل الوظائف على الطريقة الشرقية، أى عن طريق المعارف والأصدقاء والعشم، وعاد المغامرون من جامعات كورنل وستانفورد إلى البلاد.

عادوا من أمريكا ومن بلاد أخرى.

واصطحبهم أحد الاستشاريين فى السيارة الجيب.

لأجل تعمير هذه الصحراء الجرداء بحثوا عن مصادر للمال لدى البنك الدولى واللجنة الأوروبية وفورد وأوكسفام[1] وكاريتاس وأصدقاء الأخت إيمانويل[2]. أخذوا أيضًا المال من البرجوازى القاطن

---

(1) Oxfam (oxford famine relief committee): منظمة غير حكومية تكافح الفقر والمجاعة والظلم. (المترجمة).

(2) Asmae (Les Amis de Sœur Emmanuelle): منظمة غير حكومية تكافح الفقر والظلم وتقدم المعونات المختلفة. (المترجمة)

فى العاصمة، ومن المهاجرين الذين كونوا ثروة فى الخارج فيغدقون على الكنيسة بالمال ويدعمونها بكل ما أوتوا من قوة تضاهى مشاعر الغربة؛ فالمسلمون يؤدون الزكاة والمسيحيون يدفعون العشور؛ لكى يبارك لهم الله ويجزل عليهم بفيض نعمه.

لقد منحوا الزبَّالين المال الذى حصلوا عليه من هذه المصادر.

قالوا للمعلمين:"ممكن حتى تستلفوا فلوس".

تورع "المعلِّمين" فى البداية.

فأول ما يتبادر إلى ذهن فلاح ابن فلاح هو قصص المرابين. فلا يمكنهم أن ينفقوا مالاً ليس مالهم، وكلمة دين تقترن بصورة الحبس والتجريد من كل شيء والبؤس المطبق.

لقد خاضوا التجربة، واستخدموا القرض، للقيام بصناعات صغيرة وربحوا. واكتشف الفلاح ابن الفلاح معنًى آخر لكلمة الدين؛ فهو يعنى الثروة. ولا ينفصل المرء عن ثروته أبدًا؛ ولذلك فقلَّما ردُّوا ديونهم. لقد استثمروا المال فى أماكن أخرى. هل سعوا لدفع ثمن الأرض التى بنوا عليها منازلهم الجديدة من الأسمنت المسلح؟ هل ضمنوا مستقبلهم؟ هل أبعدوا تمامًا شبح الهجرة؟

يعتقدون أن الأرض أصبحت ملكهم بالفعل، والأفضل أن يكون المال فى جيوبهم على أن يكون فى خزانات الدولة أو فى هذه المصادر التى ينهل منها الاستشاريون الشبان.

الهجرة الأبدية، لم تعد تراودهم هذه الفكرة.

لقد تزاحمت الخنازير لتخلى مكانًا للصناعات الصغيرة، بل وتركت لها أحيانًا المكان برمته.

فى هذا العقد نشأ مصنع السماد الذى كان يمنِّى بالمعجزات. لقد احتفل الجميع ببدء تشغيله. فأسرع الزرَّابون بثيابهم الجديدة لحضور حفل الافتتاح. لم تُدق الطبول، ولم يُعزف بالناى، ولم يرقصوا، لكن حضر بعض الأعيان، وألقيت الخطب فى وجود كل من الأخت إيمانويل، وتاسونى سارة، ويسرية، ومستشارتها مارى المخلصة التى حضرت خصيصًا من جنيف إلى القاهرة لتشهد الاحتفال بحدث كبير كهذا.

تم إنشاء مبنى للمكاتب الإدارية الخاصة بالمصنع وبصيانة تلك الآلة الثمينة. ويسكن الدكتور عادل المتخصص فى علم البيولوجيا

والمكلَّف بفحص الجودة، فى شقة صغيرة؛ فالتركيبة الكيميائية للمنتج تأخذ فى الاعتبار جودة الأرض والاحتياجات الزراعية.

لقد غيَّر المصنع وقع حياة الزرابين فغدت حياة جديدة، تكاد تختلف عما قبلها، لكنها مقرونة بكلمتى البيئة وعلم الحفاظ على البيئة. يقولون إن هذا يعد تطورًا فى مجال الصحة، وإنها خدمة أسدوها إلى الإنسانية؛ فلا يمكن الاستغناء عن الزرَّابين، لا غنى للبلد عنهم؛ فبدونهم لاختنقت المدينة من الزبالة.

ترددت كلمتا البيئة وعلم البيئة، كلمتان فيهما سحرٌ. لقد تغيَّرت صورة الزبال، فلم تعد سلبية، وحدثت المعجزة.

رويدًا رويدًا أفرغوا الزرايب من المخلفات الكثيرة وملأوا بها عربات الكارُّو التى تجرها الحمير، يقودها فى غالب الأحيان طفل صغير. يُلقى رمل الزرايب فى أرض واسعة؛ ليختمر قبل أن يدخل الآلة التى تحوِّله إلى سماد. فيتم تحليل المنتج، وإثراؤه بالمواد اللازمة لأرض ليس بها طمى، ثم تتم معالجة المخلفات مرة أخرى حتى لا يتبقى منها شىء مفيد.

ينظرون إلى الآلة وهى تعمل بفخر شديد. عندما يُسألون عن الطريق، لديهم علامتان. كنيسة أبونا سمعان، والمصنع فى الجانب الآخر من شارع الفرن.. الفرن، يجدر بهم أن ينسوه.

ليس بالإمكان أن يُناط بالمعلمين مسئولية إدارة المصنع الذى غدا مفخرة المقطم. تُعد هذه التجربة جديدة، وواعدة؛ فهى تضمن عائدًا لهم، بالإضافة إلى أنها تُموّل مشاريع أخرى، عدد لا متناهٍ من المشاريع. لكن ربما يمكنهم أن يعهدوا بتلك المسئولية إلى أطفالهم الذين ذهبوا إلى المدرسة، شريطة أن يقوم متطوعون أكفّاء بمتابعتهم عن كثب، متطوعون من خارج مجتمع الزرّابين، قادرون على فرض أنفسهم على المستوى التقنى والإداري.

فى عام 1984م تم إنشاء جمعية الشئون الاجتماعية فى المنطقة المحيطة بمصنع السماد. فى تلك السنة تم إضعاف شوكة "المعلمين"، هؤلاء الآباء المتسلطون الذين يفرضون سيطرتهم على أولادهم، وزوجاتهم، وبناتهم، ويسحقونهم، تلك السيطرة التى ورثوها أبًا عن جد.

لقد بزغ نجم فى هذه الجمعية الجديدة. إنه عزت نعيم، حفيد مجدّس، ثم ما لبث أن بزغ نجم آخر؛ خليل.

"من دير تاسا". هذا بالطبع ما يردده أبونان؛ لكن سيَّان عند أحلام إن كانا من دير تاسا أو البداري؛ فهما صبيان، وهذه هى مزيتها. أما هى، فلا شىء، مجرد فتاة، حيوان. لم يطرأ على بال البرجوازيين والأجانب فكرة تشغيل الفتيات.

هل تقبل أحلام مصير الفتيات إن زُوِّجت لذاك النجم، عزت؟ لم تصدق أباها قط حين عدَّد لها مزايا الشباب القادمين من القرية المجاورة، وعزت، ذاك الشاب الوسيم الحاصل على الثانوية العامة، والمقيد بالجامعة لدراسة التجارة، لربما راقها، لربما فضَّلت نجمًا يصغره، ينتمى إلى الجيل الثانى، صديق أخيها الصغير بخيت: خليل، مايز، عادل.

لا ريب أنها غارت فى طفولتها من عزت ومن كل الصبيان؛ لأنها لم تتمتع بحقوقهم نفسها. فهى تغار من عزت؛ لأنه ولد، ولأنه يحق له بذلك الذهاب إلى المدرسة، ولأنه يصعد إلى النور، بينما تغوص هى فى غياهب الزبالة، تغار أم تثور؟ إنها تستشعر الظلم الكبير الواقع عليها؛ فالعالم كله يتضافر لكى ينمِّى لدى الصبيان الرغبة فى التوجه نحو الشمس الساطعة. فيحضر البرجوازيون وأصدقاؤهم الأجانب من أطراف المعمورة ويبدون ثقتهم بعزت. كما تبذل الأمهات قصارى جهدهن لكى يرتدوا أحلى الثياب. لقد تفاخر عزت بأنه ابن زبال، وبدا خليل محبًّا للحياة وللاستمتاع بها. فأمَّاهما تريدان أن يسطعا كالنجوم. وخليل أكثر اهتمامًا من عزت بمظهره الذى يميزه عن غيره، ليس هندامه فقط هو ما يميزه، إنما أيضًا مصروف الجيب الذى تعطيه

له والدته فى الخفاء، دون علم الأب، دون أن تبخل عليه: جنيهان فى اليوم، ليعتقد أهل المدينة أن الزبالين مليونيرات. أما زملاؤه فمنهم من يعمل أبوه فى السكة الحديد، ومنهم الموظف، ومنهم من لا أب له. لقد أمضى مرحلة الإعدادية فى غمرة ثم فى الضاهر. ويحمل فى حقيبته بالونة يبلغ ثمنها جنيهًا واحدًا. فرحٍ التلاميذ باللعب بالبالونة، فمن يربح منهم يقدم مشروبًا لزملائه؛ لقد تحلّى خليل بشيم النبلاء؛ فلديه من المال الوفير ما يغدق به على زملائه. فهو ليس بخيلاً. وقد أُخذ الجميع بكرمه أكثر مما أُخذوا بمواقفه النبيلة وطلاوة كلامه.

"الفلوس دى كلها جات لك منين ؟" .

"أمى بتدينى اللى أنا عايزه"، يجيب زملاءه ويملؤه الخيلاء.

تقيس أحلام الزمن الذى يبعد بينها وبين جيل أخيها؛ فعند بلوغه الثالثة عشر كان خليل يجذب الفتيات اللائى يلقاهن فى الرحلات المدرسية؛ لأن الفتيات فى عمر خليل حصلن على حقهن فى الذهاب إلى المدرسة. عشر سنوات، عقد من الزمن يفصل بين أحلام وأخيها. إنها ثورة!

يجب توضيح معنى جذب خليل للفتيات؛ فهو لا يحق له الخروج على قواعد اللياقة. إنه متحدث بارع، ويتمتع بالجاذبية. إنه يكتفى بالحديث كأنه محب هائم، هائم بالأرض الأم وبكل بناتها. كلماته كالقارب الشمسى، تفعم بالسعادة. من يراه يحسبه يسكن فى قصر

وكأنه ابن أمير، كما أنه يهوى الاكتشافات، فيذهب إلى السينما والمسرح.

ماذا عن نتائجه الدراسية؟ متوسطة. لقد تم قبوله فى القسم الفرنسى. أما التلاميذ الجادون فيُقبلون فى القسم الإنجليزي.

لا يهم؛ فجميلة هى تلك الحياة الاجتماعية التى تتيحها له المدرسة. وعندما يبلغ السادسة عشر من عمره سيدخل المرحلة الثانوية. ليس هناك إلا أولاد فى مدرسة الضاهر. سينتظرون الفتيات عند خروجهن من المدرسة. خلال عشر سنوات هبَّت رياح الثورة على الجبل. أصبحت هناك أماكن للطبقات المتدنية فى المدارس الحكومية، أماكن للفتيات والصبيان على حد سواء. يكفى إقناع الأهل أو التعنت معهم. إن مستوى التعليم ضعيف، بيد أن هناك طموحًا فى تعليم شعب بأكمله. الصبيان يكفلون الحماية لأخواتهم البنات، ويصطحبونهن إلى منشية ناصر. وعليهم الرجوع قبل الساعة الخامسة عصرًا فى الصيف وقبل الساعة الرابعة عصرًا فى الشتاء. إنهم حماة الشرف؛ إذ ينوبون عن آبائهم.

يذهب خليل وأصدقاؤه أحيانًا مشيًا على الأقدام إلى وسط القاهرة. ويستغرق الطريق ساعتين ونصف الساعة، ساعتان سيرًا على الأقدام لرؤية أضواء المدينة. بالنسبة إلى ابن زبال سبق له أن اصطحبه أبوه فى جولاته، يكاد يكون هذا المشوار بمثابة فسحة. سيذهبون إلى السينما فى حفلة الساعة الثالثة؛ لأنه ليس على الأولاد

أيضًا الرجوع فى وقت متأخر؛ فشوارع الأحياء الفقيرة مدلهمة ويحفها الخطر. تخاطب الأنوار خليل عند خروجه من السينما وتُمَنِّيه بمتع الليل.

السينما، منذ أن دخلت الكهرباء إلى الجبل وطغت أنوار التلفزيون على ظلام الجبل، تراود خليل قصص الحب على الطريقة الأمريكية، فيجمح خياله ويعيشها فى أحلامه؛ فخليل رومانسى، وتهوى الفتيات رؤية أنفسهن فى عينيه الهائمتين.

فى يوم من الأيام أفصح خليل لزملائه عن أصله. لم يصدقه زملاؤه. كيف لهذا الطفل المهذب، المهندم والكريم، أن يكون ابن زبال؟ كان يسكن وقتئذٍ مع أهله فى شقة جديدة فى بناية تملكها العائلة. لقد دعا زملاءه لزيارته، ولرؤية حياة الزرابين. نعم، حياتهم مع الخنازير، والماعز، والحمير، والكلاب، والقطط، والزبالة. واستقبل أهل الجبل أهل المدينة القادمين من الأحياء الفقيرة. لم يذهب الزبالون إلى أحيائهم لجمع القمامة حيث يحوم الماعز والقطط والكلاب حول الزبالة المبعثرة، وتنفجر مواسير المجارى من حى إلى آخر لتغرق الشوارع؛ فما الفرق بين حياتهم وحياة الزرابين؟ الخنزير؟

لا يزال يذكر الوقت الذى لم يزرهم أحد فى عششهم. لم يعرف إن كان ذلك احترامًا لهم أم تقززًا منهم. ها هم اليوم يعيشون فى منازل جدرانها من الأسمنت المسلح، منازل نظيفة، مطلية بالجير، مزينة بالصور المقدسة. إنهم الآن يستقبلون البرجوازيين بكل فخر،

كما أنهم يتباهون بمصنع السماد الفريد الذى يعمل بغية حماية البيئة. إن إكرام الضيف أمر مقدَّس، وإنها لنعمة من الله أن يتسنًى لهم إكرام الضيف. لم تتمتع أحلام بهذه الميزة. إن السنوات التى شهدت التقدم فى ظل شعار حماية البيئة نسيت أن تجعل مكانًا لأحلام.

تقارن أحلام نفسها بالحمار، أتعس الحيوانات. ليس لأحلام إلا ميزة واحدة عن الحيوانات؛ فلم يأتِ أى راهب لتشكيل جمعية معنية بدفن الحيوانات الميتة؛ فهى ليست مسيحية. وعندما تموت تملأ أشلاؤها الشوارع مع الزبالة والذباب، ويغطيها دخان النيران الصغيرة، التى تحرق هذه الأشلاء الفقيرة مع القاذورات التى لا يمكن الاستفادة منها.

الحمير مع القطط والكلاب الضالة، دون تمييز بينهما، دون أى اعتراف بالجميل لعمل الحمار الذى قام به على مدى سنوات طويلة. ولخدمته المستمرة دون انقطاع.

فى اليوم الذى شعرت فيه أحلام بالغيرة من الحمار الذى يحبه زوجها تساءلت عن قيمتها مقارنة إياها بالحمار.

إنها لا تعرف قريتها إلا من خلال الحكايات التى يسردها أهلها. لم تعرف حقول القمح والذرة؛ فهى غريبة عنها، ولا يمكن للزرابين أن يزرعوها فى الصخر الجيرى، لكن توجد هنا حيوانات كثيرة كتلك الموجودة فى الريف، وحيوانات الحظيرة، خنازير بالطبع، وبط، وديك رومى، ودجاج، وحمام، وجاموسة لدى ميسورى الحال. أما الحمار الذى يحمل المتاع الثقيل، فلا يمكن الاستغناء عنه، شأنه فى ذلك شأن الزوجة والأطفال، يستلزم جر العربة المليئة بالزبالة من أسفل الجبل إلى أعلاه وجود ثلاثة حمير. وتتكلف الحمير الثلاثة أكثر من تكلفة

الزوجات والأطفال. كما يجب ضربها بالسوط مرارًا وتكرارًا حتى آخر نفس. يُعَد زوج أحلام أكثرالأزواج حنانًا مع الحمار. بيد أنه من المبالغة مطالبته بتوفير قبر له. أما الاعتناء بصحته فهى مسألة أخرى. وقيمة الحيوانات غالية كقيمة الزبالة؛ فالجاموسة تدر الحليب، والماعز والأرنب والدجاج هى مصدر للغذاء، والحمار يتحمل مشقة العمل. لكن نظريًا، ليس هناك ما يدعو للتدخل فى حياته، حتى أن فكرة مداواة الحيوانات تجعلهم يضحكون ملء شدقيهم. وماذا عن عدِّهم؟ لكن ... الحسد؟ هناك خزعبلات كثيرة، وأحكام مسبقة. هناك أيضًا بخل الفقراء. لقد قست الحياة عليهم، وهم يقسون على الحيوانات؛ فهم ناكرون للجميل تجاه حميرهم أكثر ما هم ناكرون لجميل زوجاتهم.

فى يوم من الأيام، أصاب وباء الحمى القلاعية جيلاً من الخنازير الصغيرة؛ ففكر الزرَّاب فى فك حافظة نقوده ودفع مبلغًا رمزيًا لطبيب بيطرى لضمان حماية حيواناته.

وصل الدكتور أيمن. إنه شاب أعزب، مسلم، يهوى الطبيعة، ويتأثر بشكوى الحيوانات التى تتحدث إليه بلغتها الخاصة. لقد ذهب وتملأه الحماسة ليخفف من وطأة الحياة انعيسة التى تعانيها الحيوانات وأصحابها.

انتقل من عشة إلى عشة، ومن منزل إلى منزل، ومن زريبة إلى زريبة. قاد حملته الطبية الوقائية وسط الزبالين . بيد أنهم فضَّلوا ترك حيواناتهم تحتضر على أن يعطوا هذا الطبيب مالاً.

تحضر حيوانات المقطم المريضة إلى عيادته كل يوم، عدا الجمعة، وتنتظر فى باحة تقوم مقام صالة الانتظار. الحمار المصاب بالجَرب، والدجاجة المصابة بمرض مزمن فى الجهاز التنفسى، والعنزة الصغيرة المصابة بانسداد فى الأمعاء، والخروف الذى تلتهمه الميكروبات، كل الحيوانات تحضر إلى عيادة الدكتور أيمن.

يُدعى نمرود. إنه أحد الزرابين، ويملك العديد من الحيوانات الأليفة. إنه ممن أدركوا أهمية العيادة البيطرية. حضر ذات يوم مع جاموسته المصابة بالحمى القلاعية. هناك قاعة مخصصة لفحص الحيوانات الكبيرة التى تدر الحليب. دخل القاعة بكل هيبة حتى إنه ليخيل لمن رآه أنه معاون الطبيب. وضع أرجل الجاموسة فى الحديد، ووضع رأسها فى المقبض. إنها تعانى، تلك الجاموسة المسكينة، فدرجة حرارتها تبلغ 39 درجة مئوية. إنها تقاوم، وتتبول، وتخرج الريح. إنها تثير الشفقة! لكن كل هذا العذاب لصالحها.

هل سيعذب نمرود ابنته "لصالحها"؟ هل سيقيدها بالأغلال إذا ما اكتشف يومًا ما أنها واقعة فى حب ميلاد، ابن أبونان ؟

لم يُدفن الحمار الذى شغف زوج أحلام بحبه كما يُدفن المسيحى. لقد وجد مكانه فى الزبالة العامة.

ليس لأحلام الحق فى التعبير عن رأيها، رغم أن الله وهبها الكلمة، ولا تعلم ابنة نمرود أن أباها سيحرمها حتى من حقها فى الحب، كما أن الأمهات يعلمن الفتيات ألا يرفعن أصواتهن.

لم تجد الفتيات حتى الآن طبيبهن البيطرى، فالدكتور أيمن لا يستمع الآن إلا لشكوى الحيوانات.

أراد زوج أحلام، لدى رجوعه من الخدمة العسكرية، أن ينجب منها طفلاً. رفضت بكل ما أوتيت من سلاح. الأظافر، والأسنان، والصراخ. ما زالت تذكر السيدة التى يسكنها الشيطان، وتذكر حركاتها الهيستيرية. لقد قلدت هذه الحركات. ليس لها الحق فى "الكلمة"، لكنها تقوى على الصراخ. وماذا عن الفضيحة؟ إنها تستخدم أسلحتها الفتَّاكة.

ليس أمامها حل آخر.

جسدها ملكها. إنه بمثابة حصنها المنيع، تدافع عن كل الفتحات، ولم تثنها الضربات عن الدفاع عن نفسها.

لقد حوَّل الزبالون جحيمهم إلى مَطهَر، بيد أنها لا تزال فى الجحيم، وإلى جانبها زوجها الذى انتابته أزمة الربو.

خرجت من الجحيم مفعمة بقوة الحياة، بفعل معجزة. لاذت بالفرار إلى أهلها لتحتمى بزبالة أبونان، ولتفرزها مع نساء المنزل. من امرأة كالأسد تحولت إلى سيدة جميلة كإلاهات الزمن الغابر، استغلت كل وسائل الإغراء لتستميل أبيها فتظل بجانبه ولا يردها إلى زوجها.

أحلام جميلة. إنها تدرك ذلك، فلا تمر دون أن يؤخذ الناس بجمالها. ومنذ أن وصل الماء إلى هذه الصحراء لم ير أحد وجهها يملأه الغبار. تغطى شعرها بمنديل. بالكاد يمكن تخمين لون شعرها. إنها شقراء وعيناها عسلية اللون، وابتسامتها المشرقة تنبئ بأحلام تسكن بداخلها. لم تعد تلك المرأة الطفلة. لقد نضجت. إن تمنُّعَها بجسدها عن شهوة زوجها ورغبته فيها يكفل لها الحماية لمستقبل غامض، بعيدًا عن الجحيم الذى تعيش فيه. لقد استطاعت أن تخطف من عمرها سنتين، سنتين قضاهما زوجها فى التجنيد. "كفاية سنتين"، هذا ما قاله أبونان، ثم ما لبثت أن عادت إلى الجحيم، وعادت من جديد لتتقوقع فى داخل سجن جسدها.

أوصتها ماما سعاد أن تلزم الصلاة، كما يقول الآباء اليسوعيون لتلاميذهم. قالت لها إن يسوع يحبها ولا يحب فقط الإنسانية. ماذا عساها أن تفعل أكثر من ذلك، ماما سعاد؟ لعل الصلاة تملأ نظرة أحلام بذاك النور الذى يشع، ولا يزال يشع فى قلب الجحيم.

لا تنفك أحلام تردد: "كنت بهيمة"، "البهيمة لها قيمة عنى"، لكن هناك دائمًا ذاك النور المشع من نظرة عينيها.

لماذا لم تكن تحب اسم نور ؟

ليست أحلام على استعداد لأن تستسلم، ولم يكفِها حب يسوع لها. فبداخلها قوة الحياة. يا لها من معجزة قوة الحياة تلك! تحلم بالذهاب إلى المدرسة، وبتعلم القراءة. لكن أى حلم آخر يختبئ فى داخل أعماق نظرات عينيها؟

وعند زيارة إخوتها لها، لا تتصرف كالأسد.

يحب بخيت المكوث عندها فى أيام الإجازة؛ لأنه لا يستطيع اللعب بالكرة مع خليل وتلاميذ الآباء اليسوعيين. لقد كُسرت ساقه مرتين، وقام أبونان – مجبراتى الجبل – بتجبيرها. إن صحته ضعيفة؛ فليس بوسعه أن يمارس مهنة الزبالة.

تحدوه الرغبة فى أن يصبح فنانًا، وإذا ما حظى بالفرصة، فسيذهب إلى مدرسة الفنون الجميلة.

يشارك بخيت أحلامه مع أخته أحلام، وينبئها بأخبار العالم الخارجى. لقد لاحظ أن أخته لا تأكل عند الجوع؛ فيذهب إليها مصطحبًا معه أحد إخوته، يانِّى أو مترى ومعهما دجاجة أو بطة،

ويطلبون منها طبخها مع الأرز وبعض الخضرة معًا، بعيدًا عن أنظار عائلة زوجها، فيملأون البطون بما لذَّ وطاب.

هناك جوع يحل محل جوع آخر؛ فأحلام تشتهى اللعب بالكرة مع تلاميذ الآباء اليسوعيين، كما أن بوسعها أن تحل محل بخيت فى اللعب ؛ فهى قوية، وتتازعها نفسها إلى اللعب والذهاب إلى المدرسة. هناك الكثير من الأحلام التى تدور فى خلدها، وتصيبها بالاضطراب. ليتها تنتمى إلى الجيل الذى يكاد يصغرها ببضع سنوات.

شعرت وكأنها عجوز نيفت على الستين. لقد حَمِلَت على الزواج، وعلى زوجها وأهل زوجها وأبيها. إنها تدافع عن نفسها كالذبابة التى وقعت فى شرك خيوط العنكبوت، بيد أن هناك حلمًا آخر بات يراودها ويرد لها شبابها، فإذا بهذا الحلم يرتسم على شفاهها عندما يحدثها بخيت عن أخبار الجمعية، وإذا بها تبتسم وتتراءى فى مخيلتها صورة الشباب البرجوازيين الذين يحيطون "بالمعلمين"، ويسدون إليهم النصيحة ولايجرءون على الدخول إلى العشش. تتخيلهم، وتخاطبهم، وتقول لهم ما ينبغى عمله لتغيير العالم، لكن إذا ملكوا مال الأرض كله، هل بوسعهم إخراجها من جهنم وإرسالها إلى المَطهَر؟

ستنتظر لسنوات عديدة، ستنتظر لترتوى من العلم، لكى لا تجد نفسها حيوانًا بين الحيوانات.

في يوم من الأيام، تركت هبة الخولى جامعة كورنل. لعلها استجابت لصرخة أحلام، تلك الصرخة التى تطل من أعماق عينيها، ودخلت فى عشش المقطم، وبحثت عن الأمهات، ربات البيوت، والسيدات من جيل أحلام. هناك عدد غفير منهن. أخذت على عاتقها مسئولية شاقة: إخراجهن من بيوتهن. قالت لهؤلاء السيدات، لربات البيوت اللاتى لسن رجالاً. إن هناك وسيلة لإخراجهن. أرسلتهن إلى الجمعية، وقالت لهن: إنهم سيعطونهن كالرجال قروضًا للقيام بالمشاريع. يالها من فكرة جريئة فى عالم تغدو فيه الحركات البريئة مشينة، بل بمثابة فضيحة! هل سيجرءون على طلب قروض من الجمعية ؟ لكن قيل لهن إنهن سيتعاملن هناك مع الرجال. أنَّى لهؤلاء السيدات أن يتخيلن تجارة يدرنها مع الرجال غير تجارة الزواج ؟ وماذا إن لم يسددن الدين ؟

لم يجرؤ أحد أن يقول لهن إن الرجال لم يألوا بالاً لسداد قروضهم فى الإقدام على عمل كهذا.

ثم ما لبث أن ازدهرت الفكرة فى أذهانهن، كما تزدهر الورود ليرحل الشتاء. لقد خرجن من الجدران السمحاء التى تحيط بهن، وألقين بأنفسهن فى عالم مجهول.

لقد تجرّأن، واكتسبن ثقة بأنفسهن. ليس فى الجمعية سوى هؤلاء الرجال الذين يعتمرون العمامة، ويرتدون "جلابية" قطن سوداء اللون أورمادى فاتح. وها هى الزهور البهيجة – التى ظلت مدفونة لسنوات طويلة – ها هى تظهر وسط أجسام الفلاحين الضخمة.

هل ذهبت ليلى لتقدم مشروعها الخاص بفتح محل صغير؟ هل ادخرت مالها الخاص؟ لقد فتحت محل بقالة فى منزل جدها مجدَّس.

فليلى التى خرجت من البطن الذى تسكنه الشياطين هى أقرب صديقة لأحلام. دكانها ليس بعيدًا عن المكان الذى تتعفن فيه أحلام. هناك طريق تفصل بينهما؛ فالبقالة توجد عند ناصية شارع أبونان.

لم تخبر أحلام أحدًا بالجحيم الذى تعيش فيه؛ فالحياء يخنق الكلمات، لكن ليلى هى صديقتها المقربة ودكانها هو المكان الذى تقصده لتهرب، ولتستنشق الهواء، ولتبحث عن الصداقة، ولتجد ورقة وقلمًا.

الورقة والقلم، يمنحان بعض السعادة، فترسم بعض الكلمات التى علمها إياها أخوها يانى. وتنسى نفسها وهى تكرر كتابة هذه الأحرف، كالدرويش الذى يكرر اسم الله لآلاف المرات. وعندما تحضر ثعالب المنزل، تخفى أحلام بسرعة الورقة والقلم لتتفادى الضربات.

إنهما كزهرتين فى المرعى، أخذتا بأزهار المدينة.

فى بادئ الأمر ظهرت هبة كأولى بشائر الخير. ليست هبة سوى الهدهد الأول، ثم ما لبثت شوارع الجبل أن امتلأت بالمتطوعات

المرتديات الزى الغربى. لقد التقتا مارى أو الأخت إيمانويل فى صالونات القاهرة الثرية، وذهبتا للفرجة ولربما للمساعدة. نظرت إليهما فتيات الزرّابين بفضول وبإعجاب شديدين. لا شك أنهما تفكران كما يفكر الرجال: "البنات المصرية دى الجاية من بلاد برة فاكرة نفسها تجدر تعمل كل حاجة". لربما اعتقدن أن هؤلاء المصريات اللاتى دللهن القدر واللاتى يرتدين الزى الغربى، وبتسريحة شعرهن كالأجانب ينتمين إلى عالم آخر؛ لأنهن ذهبن إلى "بلاد بَرّة". إذا قيل لهن إنهن قادمات من القمر لصدقوهن. يجب أن تأتى من القمر كل من تريد أن تخرج هؤلاء النسوة، زوجات الزرّابين اللاتى عانين الحمل المتكرر وعمل الزبالة المضنى. يجب القدوم من القمر؛ لإثارة نظرة الإعجاب هذه، إنهن ممشوقات القوام وجميلات.

لقد رغبت فتيات الزرّابين وزوجاتهم فى كشف النقاب عن البرجوازيات لمعرفة أسرارهن، ولسرقة بعض السلطة التى يتمتعن بها، وكى يشبههن بعض الشىء.

ترى أحلام القمر يكشف لها عن سر ما، تستشعره فى قلب القمر؛ فهو يثير لديها تلك الغيرة القاتلةِ التى تفتك بقلبها. إنها تغار من عزت وخليل، ومن البنات اللاتى يصغرنها ببضع سنوات، وقدرن على مواجهة الأب، وشرعن فى تعلم القراءة والكتابة. فهؤلاء الفتيات، بنات الزرّابين، يشبهن قليلاً البرجوازيات. لم يعد أحد بإمكانه منعهن من الذهاب إلى المدرسة، حتى الأب لم يعد بوسعه ذلك.

رأت أحلام المتطوعات يسرن فى شارعها، ومنهن من توقفت لتبادل أطراف الحديث معها. أطلقت عليهن بصورة عفوية كلمة "طنت" بالفرنسية، وأحيانًا أخرى كلمة "أبلة". أما الرجال الذين رأتهم فيما بعد فقد أطلقت عليهم لقب دكتور.

لقد شهدت ظهور أولى السيدات العاملات فى مجال المقاولات اللاتى تصدين لتقاليد الماضى، وشهدت نجاح المؤسسات التى عملن على إدارتها؛ فهؤلاء السيدات سددن المال الذى اقترضنه، بل إنهن أكثر حرصًا من الرجال على سداده، كما أنهن قمن بتجديد القروض ووسعن مجال تجارتهن؛ فمنهن من قامت بتجميع الشمعدانات، ومنهن من أنشأت نظامًا لتأمين الماعز من المرض والموت.

تكاثرت الأضواء والماعز حول أحلام.

ستحلو لها عيشة كهذه، بل إنها ستطلق العنان لخيالها.

أطلقت أحلام العنان لحلمها. فى ليالى الصيف، نظرت إلى القمر والنجوم. حديثها إليها يشبه مناجاتها لمريم العذراء، وليسوع على الصليب، وللقديس سمعان، ولكل القديسين.

عملت هبة لمدة سنتين. وقبل رحيلها عن الجبل، أرادت أن تسلم الراية لمن بعدها.

اعتادت هبة أن تدخل إلى البيوت، وتتحدث إلى الأزواج وتخبرهم بكل ما يمكن أن تقدمه زوجاتهم لمساعدة النساء المعدمات. أخذت عقولهم بطلاوة حديثها وجاذبيتها، وانتزعت كلمة "نعم" منهم انتزاعًا؛ ففى قرارة نفسه وجد الرجل أنه لا بأس بالنموذج الذى تمثله، ولم يتساءل إن كانت طبيعتها ملائكية أم شيطانية، فلن يعرف أحد ذلك. فالمال رجَّح الكفة: لا جرم أنها ملاك.

لقد أطلقت أحلام العنان لحلمها. انتظرت أن يحين دورها فى تعلم القراءة والكتابة، فى اقتراض المال...ضاعت أحلام فى الحلم.

لم تذهب هبة إلى عائلة حماة أحلام؛ فعلى أحلام أن تنتظر ريثما تأتى نساء أخريات لإخراجها من السجون التى تعيش فيها.

عجَّ عالم أحلام بالحروب الصغيرة.

وتحت ظل شجرة الجميز حيث تدور الأحاديث، تكاثرت المجالس لحل الأزمات.

لقد تسببت السوزوكى فى إضرام العديد من الحروب.

هناك سيارتان خاضتا المغامرة فى طرقات الجبل الوعرة: عربة الشحن التى يملكها مرقس، ذاك التاجر، تاجر الجملة الذى يحتكر بيع الخنازير، والسيارة الجيب التى تملكها جماعة منير. لم يفكر أحد قط فى أن تلتقى السيارتان فى يوم من الأيام أمام بيت أبونان، وتتسبب فى الزحام مع الحمير والباعة المتجولين. لم يفكر "المعلمين" قط فى إمكانية زيادة عدد سيارات الشحن والفوضى التى قد تسببها.

فطرقات الجبل صُممت لكى تسير فيها عربات الكارُّو التى تجرها الحمير... لكن لم يبغ البرجوازيون سيِّئوا النية وموظفو الحكومة وسيدة مصر الأولى رؤية الكارُّو والخنازير وآثار الزرَّابين فى المدينة بالقرب من شارع المعز لدين الله الفاطمى، بل إن الحملة التى قادتها الأخت إيمانويل جرحت كبرياءهم كما لم يُجرح من قبل.

طالب هؤلاء البرجوازيون الطيبون باستخدام وسائل لجمع القمامة أكثر تطورًا، وروعوا من حدوث فضيحة، واستنجدوا بالحى الذى أبدى استعداده لوضع حد لنظام الزبَّالين، لكنه علل سبب عدم تدخله بافتقاره إلى الوسائل المادية. أنَّى لهم الحصول على الآلات

اللازمة، والسيارات الكبيرة، ذات الفك الضخم، التى تجمع القاذورات وتضغطها وتطحنها وتبتلعها؟ استنكر "المعلمين" كل ما قدمته الوكالة الرسمية من حلول، وأصروا على الخروج إلى العمل. فالشمس تغيب وتسطع، وهم - كعادتهم - ينطلقون قبل شروق الشمس للقيام بجولتهم اليومية، ويعودون إلى الجبل فى وقت الذروة، متسببين فى الزحام الذى ضجر منه الحى، والبرجوازيون، والسائقون، والزرّابون أنفسهم. من المحال أن يستمر وضع كهذا. لقد غدا منظر العربة الكارُّو التى يجرها الحمار المتهالك فى طرقات القاهرة المزدحمة بالنسبة إلى البرجوازيين والمسئولين عن السياحة أمرًا مشينًا يؤذى أنظارهم يوميًا. هل نشاهد منظرًا كهذا فى باريس أو فى لندن؟ ليت بالإمكان إفراغ العاصمة من الزبالة! لكن... هيهات! فالأحياء التى ترجع إلى العصور الوسطى، والتى تؤوى الروائع المعمارية للعصور المسيحية والطولونية والفاطمية والمملوكية لا تزال غائصة فى الزبالة، ولا يستفيد منها إلا الماعز والقطط والكلاب الضالة؛ لأن هذه القاذورات عديمة الفائدة. والمسلمون المتدينون يروعون بالفضيحة كلما مروا بباب النصر، ذاك الباب العظيم على مدخل شارع المعز لدين الله حيث أسواق الخضار، والفواكه، وجبال من القاذورات. إنها لفضيحة مروِّعة: فالواقع الحزين لهذه القاذورات العامة يلطخ ذكرى ذاك الخليفة، الأديب المرهف، الذى اهتم طوال حياته بالجمال. أما المسيحيون فقد روعوا أيضًا بالفضيحة؛ ففى طريقهم إلى الصلاة فى مصر القديمة عليهم المرور بجزر مليئة بالزبالة والماعز والقطط والكلاب الضالة لكى يصلوا إلى تلك الشوارع المنخفضة، التى لا تدخل إليها السيارات، والغنية بالكنائس القديمة،

المبنية على الطريق التى سلكتها العائلة المقدسة، والتى يحلم الكثير من عاشقى الجمال بتحويلها إلى سان بول دى فانس[1]. الفضيحة : زبالة الزبالة، الزبالة تربيع. لكن هذا هو الوضع؛ فالزرَّابون يرون فى ذلك عدلاً. فما الداعى إلى جمع الزبالة الفقيرة؟ إنهم لا يتقاضون أجرًا على ذلك، وكل ما يأخذونه من الزبالة هو ما يمكنهم الاستفادة منه حتى وإن حصلوا على المال نظير "تعبهم وشقاهم" فعليهم فى نهاية الأمر إعطاؤه إلى الواحى. إنها لحرب أخرى بين الرأسماليين ومستهلكى الزبالة. والجميع يعرف – حتى إن لم يذهبوا إلى الزرايب – أن الزبَّالين لا يعتنون بشوارعهم، وأن جبال القاذورات التى يقومون بحرقها أمام أبواب منازلهم تتسبب فى انبعاث غازات ضارة، وتؤدى إلى الإصابة بالجيوب الأنفية، والالتهاب الرئوى، وتندلع بسببها الحرائق. لقد أظهرت حملة الأخت إيمانويل الرنَّانة كل ذلك.

تسبب نظام الواحيَّة والزرَّابين غير الرسمى فى الفضيحة فى كل أنحاء القاهرة الكبرى.

قالوا لهم إنه لا غنى عنهم للحفاظ على البيئة فكيف يرون أن الناس تستشيط غضبًا.

---

(1) توجد فى مقاطعة الألب ماريتيم، وهى تشتهر بالكاتدرائية (القرن الحادى عشر، والسابع عشر، والثامن عشر) المقترنة باسم الرسام والنحات الفرنسى هنرى ماتيس (1866-1954م) ورسوماته على نوافذ الكنيسة فى عام 1951، وهى مركز تجارى ومنطقة سياحية مليئة بالمعارض الفنية .(المترجمة) .

بدا الموت المعلن للزرَّابين وكأنه شبح يلوح لهم فى خضم الجدل المثار حول القضية. كيف لا يهابون الشبح؟

أمـــا فى جمعية الزبَّـــالين عـــند أبونا سمـــعان، فـــقد تشاجـــر كل مـــن الإقطاعيين ومستهلكى الزبالة حول حقوقهم فى القاذورات الغنية وازدادوا تعنتًا حيال استخدام الآلات.

قال "المعلمين": "ما ينفعش من غير البهايم" .

"البهايم" هى الحمير بالطبع! لكن عليهم أن يتنازلوا عنها، وأن يطوروا من أنفسهم لكى يستمروا.

فى يوم من الأيام، ظهرت السوزوكى بين الزرَّابين.

حدث ذلك بعد المفاوضات المضنية واستهلاك المقاومة. وبما أن الحى أبدى استعداده للقضاء على نظام الزرَّابين فى جمع الزبالة – حتى وإن لم يصدق أحد ذلك بالفعل – فقد قرر الزرَّابون والواحية القيام بالمبادرة وإنشاء شركتهم الخاصة.

لقد تفاوض المعلم إسحاق، اليد اليمنى لأبونا سمعان مع المسئولين، وتفاوض الاستشاريون الشباب بشأن تمويل العملية.

وضع المجلس الذى يضم كل الأطراف المعنية نظامًا للملكية المشتركة يخدم حى الزمالك والمنيل بمدينة القاهرة، تلك هى التجربة الأولى التى امتدت فيما بعد إلى العاصمة كلها. واستثمر الواحية الأكثر ثراءً من الزرّابين مبالغ كبيرة. ولم يتغير شىء سوى أن مسئولية الزبالة باتت منوطة بالشركة، ويقوم الزرّابون بجمع القمامة والواحية بجباية المال. والجديد هو أن الواحية وافقوا على دفع رسوم جمع الزبالة، ووفرت الشركة عشرين شاحنة.

لكن ما لبثت الشركة أن شُلّت حركتها من جرّاء اشتعال الحرب مرة أخرى بين الرأسماليين ومستهلكى الزبالة، وذلك على الرغم من المفاوضات المضنية بشأن تمويل سيارات النقل. وعلى الوفاق أن يتم فى إطار مفهوم خطير: الشركة؛ مما يعنى وجود نية للتنسيق البيروقراطى المختلف تمامًا عن النظام ذى الصبغة غير الرسمية الذى يسير عليه الواحية وبوابو العمارات والمستأجرون والملاّك والزرّابون لفض خلافاتهم بشكل فردى. لقد أصبحت الشركة على شفا الإخفاق. فالواحية يقبضون المال دون إعطاء وصولات بذلك، مدَّعين أن المستأجرين المستفيدين من الخدمة لِمَ يقوموا بدفع المال. وبالتالى لا يصل المال إلى حيث يجب أن يصل، ووجد الزرّاب نفسه مضطرًا إلى دفع مصاريف النقل بنفسه كى يُبقى على زريبته. فالنظام الرسمى المفروض عليه تسبب فى إحداث الفوضى الكبيرة.

وآل الأمر إلى أن الوكالة المعنية بجمال القاهرة ونظافتها وكّلت الشركات الخاصة بالاضطلاع بمسئولية الزبالة. وها هى تتسبب فى

إضرام حرب جديدة! لقد اتحد كل من كانوا أعداءً لسنوات طويلة لكسب المعركة، وكونوا شبكة من العلاقات غير الرسمية تربط بين الواحية والزرَّابين وبوابى العمارات والزبائن من المستأجرين والملاك، حتى غدت سلاحًا يشهرونه أمام هذه الشركات؛ فالبوابون القادمون من النوبة، والذين تربطهم علاقات أقوى من تلك التى تربط زرابٍّى دير تاسا وقفوا أمام العربات المجهزة الحديثة. وبالاتفاق مع البوابين، جاء الزرَّابون لجمع الزبالة.

وعندما حصلت هذه الشركات على نصيبها من السوق، تعاملت من الباطن مع الزرَّابين. ماذا كان عساها أن تفعل مع الزبالة؟

وحفَّز هذا النصر النسبى الذى حققه أبونا سمعان؛ فدفع بجمعية الزبالين إلى طرقات الأحياء المعدمة التى تضم الآثار المعمارية المسيحية والإسلامية، والتى تؤوى الزرَّابين أنفسهم. ووكَّل أبونا سمعان المعلم إسحاق بالتفاوض مع الحي، وأصبحت هناك طرق جديدة للزبالين يجمعون منها القمامة ويعملون من الباطن نظير مبلغ يتقاضونه من الحى، وأصبح لكل طريق موظف يتابع مباشرة العمل فيها؛ ففى الحكومة يتم تعيين الكثير من الأيدى العاملة نظير أجور ضئيلة.

فى البداية سارت الأمور على ما يرام؛ فقد اشترت الجمعية بالمنحة التى كانت بحوزتها سيارات لتوفير عملية الانتقال لتقديم خدمة

متجددة كل يوم؛ مما جعلها تحظى بمكانة مهمة؛ فمساهمة بسيطة من المستخدمين تكفى لتغطية مصاريف العملية.

وواجهوا المشكلة نفسها: كيف يمكن إقناع الزبّالين بدفع المال؟

فيجب حرق زبالة الزبالة، زبالة الأحياء المعدمة وزبالة الزرّابين أنفسهم. فالمقلب القريب موجود فى عين الصيرة، ذاك الحى الذى كانت تمر فى قناته مياه النيل لتوصيلها إلى القلعة؛ فهذا الحى يربط بين القلب النابض لمصر المسيحية بمصر الإسلاميْة. ويبغى المتيمون بالجمال إنشاء متحف الحضارة المصرية فى هذا الحى. كيف يمكن السماح بوجود مقلب زبالة فى عين الصيرة؟

لقد روع البرجوازيون بحدوث فضيحة!

رويدًا رويدًا غزت الشاحنات شوارع الجبل الوعرة. فلم يكن هناك فى البداية سوى العربة الجيب والسوزوكى. وامتد زحام الوديان إلى جبال المدينة الكبيرة، واشترى الزرّابون الأغنياء عربات خاصة بهم. أما الأقل منهم غنًى فقد استأجروا العربات للاستفادة بوسائل المواصلات. وألقوا بالزبالة تربيعًا خلف الجُرف أو بعيدًا فى الصحْراء. ويقترح الحى مشروعات كثيرة لمْ ينفذ أى منها.

بعد حل أول شركة، أنشئت العديد من الشركات، منها ما تم إنشاؤه بالفعل، ومنها ما ظل حبرًا على ورق. لا يهم، لكنها كثيرة، ويملكها فرد واحد، مما ينطبق على النظام غير الرسمى الذى يسير عليه الرأسماليون ومستهلكو الزبالة منذ أمد، منذ أن غزت الزبالة العاصمة كغزو الجراد.

قيل فيما بعد إن شحاتة، ابن مجدِّس، يمتلك شركة. قيل ذلك فى السر خشية الحسد. لا جرم أن أبونان هو من أطلق الشائعات. فهو يشعر أنه مستبعد؛ لأنه قادم من البدارى. شحاتة يرأس شركة: هذا لا يعنى البتة أنه يمتلك مجموعة كبيرة من الشاحنات؛ فهو بكل بساطة يضطلع بدور الوسيط بين الواحية والصعايدة القادمين من دير تاسا والبدارى، والوكالة المعنية بجمال القاهرة ونظافتها.

أما الأكثر فقرًا من بين الزرَّابين فلم يلتفت أحد إليهم، وظلوا يسيرون بالعربة الكارو والحمار فى أكثر شوارع القاهرة ازدحامًا متحملين بأنفسهم المخاطر التى قد يتعرضون لها. وصدر فى 2 يناير عام 1988م قانون بمنع الزبَّالين من مزاولة عملهم. لقد أصدر الحى قرارًا بتحديث نظام جمع القمامة. واستسلمت جمعية الزبَّالين، وخسرت المعركة. تغاضى بعض الضباط عنهم، والبعض الآخر فرض عليهم غرامة أو سحب الحمار والعربة الكارو أو أرسل الحمار إلى حديقة الحيوان أو دمر العربة الكارو واستخدم خشبها لإشعال النار وخَبز الخبز وللتدفئة فى فصل الشتاء.

لقد أفل نجم الحمار والعربة الكارو.

سيتطلب الأمر بعض الوقت من أبونان ليساير الوضع الجديد. يرى أبونان أنه بإمكان مجدِّس أن يقترض من "المعلمين"؛ لأنه من دير تاسا. وماذا عنه؟ يشتكى ابنه مترى من عدم إمكانية الحصول على تمويل لشراء عربة كارو وحمار لنقل قاذورات الزرايب إلى مصنع السماد.

يعلم أبونان أنه سيحين الوقت الذى لن يعد باستطاعته السير فى شوارع القاهرة بعربته الكارو التى يجرها الحمير.

ويتذكر المغنى الشعبى محمد طه؛ فيدندن أغنيته: "قولى لأبوكى يبيع الكارو ويشترى السوزوكى".

ترجع الأغنية إلى الوقت الذى كان فيه سعر السوزوكى سبعمائة وخمسين جنيهًا، ثم ما لبث أن ارتفع السعر حتى وصل إلى ثلاثين ألف جنيه عندما أراد أبونان أن يقتنيها. ومنذ سياسة الانفتاح الاقتصادى فى عصر السادات والتضخم فى تزايد مستمر. فزع أبونان لذلك، ولم يتدرب الشباب على استخدام الآلات. ومنذ هذه الثورة، ثورة الانتقال من الحمار إلى السوزوكى، أصبح لازمًا دفع أجر اليد العاملة ومصاريف قطع الغيار واستبدال السيارات المستعملة والبنزين ورخصة القيادة وأجر السائق – أى غدا القائم بالعمل رجلاً، ولم يعد ذاك الطفل الذى لا يكلف شيئًا– لقد ذهب كل ما ادخره أبونان ومجدِّس، ولم يعد بإمكانهما استكمال أعمال الإنشاء، و لن يستثمروا

من الآن فصاعدًا إلا فى "البهيمة" الجديدة التى يطلق عليها لقب السوزوكى.

يحسب أبونان زيادة مصاريف الزبَّالين. إن ما يقف فى طريق تطورهم يعزوه أبونان إلى استخدام الآلات الحديثة فى عملهم.

بيد أنه يعلم أنه لا يمكنه السعى وراء الحداثة بعربته الكارو وحماره، وفى الوقت نفسه لا يريد أن يموت كما حدث للسقا.

لم تعد تكفى السوزوكى لمن يرغب فى اقتناء التكنولوجيا الغربية. ودار الصراع، وغدت الرغبة فى استخدام التكنولوجيا الغربية كسراب التقدم.

لقد استمر تعليق القضية لعقود طويلة. إنها ليست بفترة طويلة لتفادى الموت المعلن المحتوم، كموت السقا.

هل سيتفادون هذا الموت المعلن؟

لقد استفاد الأطفال الذين ولدوا بعد أحلام بعدة سنوات من السوزوكى؛ فليس عليهم أن يراقبوا الحمار والعربة الكارو فى حين يصعد أبوهم إلى أدوار المنازل لجمع الزبالة. لقد حلَ السائق محلهم؛ فبإمكانهم الآن الذهاب إلى المدرسة. قلّت ساعات العمل عن ذى قبل؛ لأن الجولة أصبحت سريعة. ووجد الزرَّابون وقتًا متاحًا لهم للقيام

بمشاريع أخرى مربحة؛ فالأطفال يذهبون إلى المدرسة والآباء يزدادون ثراءً.

لا ريب أن أحلام ولدت قبل هذه الثورة؛ لذا فهى لم تستفد منها. هل كانت ستتغير قوانين أبونان إذا ما انتظرت سنوات فى بطن والدتها قبل أن تكبر؟ لا داعى للتفكير فى ذلك.

هل لقساوة الحياة أن تغفر قساوة الأب؟

- لقد حمل رزق مترى شحات، المسمى بأبونان، على ظهره قفف القمامة لسنوات طويلة. لقد حسبت الأخت إيمانويل وزن كل قفة ثلاثين

كيلو جرامًا. هل من الممكن أن تسع القفة ثلاثين كيلو جرامًا والعربة التى يجرها الحمار خمس قفف؟ أى أربعمائة وخمسين كيلو جرامًا ينقلها كل يوم هذا الرجل الذى حلم بالسفر إلى الخارج، إلى أستراليا البعيدة.

لقد غدا مريض العظام ثم مريض القلب. لقد أصيب بذبحة صدرية.

أجريت له العمليات فى المستشفى. هل صح القول بأنه أفلس؟ إنه يعطى نقودًا لا يعقل أن تكون فى جيب زرّاب. يقول إن بحوزته أربعين ألف جنيه. لا جرم أن سيدة ما، تحظى بمكانة مهمة؛ أخطرت الأطباء من الطبقة البرجوازية، فأبدى بعضهم استعداده لمعالجته فى أحسن المستشفيات كمستشفى السلام الدولى فى المهندسين. ولا شك أن يسرية أخرجت حافظة نقودها لتغطى مصاريف كل العمليات الجراحية التى أجريت فى الجبل؛ فلم يخرج هذا المبلغ من جيب زبّال زرّاب من البدارى.

ظل قابعًا فى سريره، تداويه زوجته التى أنهكت من جرّاء فرز أربعمائة وخمسين كيلو جرمًا زبالة بمعاونة أطفالها، ولاسيما الفتيات اللاتى فرزن الزبالة، فرزنها فى بيت آبائهن حتى حان يوم زفافهن

ففرزن زبالة عائلة أزواجهن. وزوجات أبناء أبونان فرزن الزبالة فى بيته، بينما يقوم نان ومترى بجولة جمع القمامة.

حدث ذلك فجأة. لقد تحوّل فجأة إلى رجل آخر، وما على أسرته سوى أن تعيد توزيع أدوارها بعد أن كان يقود الحمير فى ضواحى المدينة. إن تغير ظروف الحياة لأمر شاق. إنه الحسد. لقد أطلق على جده لقب شحّات لحمايته من العين، بل هو أيضًا كان يدعى شحّات لكى يخلد الجد الفلاح. بيد أن الاسم لم يحمهما من الشر؛ فقد كانت الغلبة للحسد.

لقد سقط أبونان كما يسقط الثور الذى أضناه العمر.

لقد ظل، لأيام وشهور طويلة، ملقىً على السرير فى حجرته المظلمة التى لا ترى العالم الخارجى إلا من خلال نافذة صغيرة.

ثم انخذت العائلة قرارًا مهمًا. سينشئون له محلاً متواضعًا ويضعون أمامه دكة. إنه بمثابة حدث كبير فى مجتمع الزرّابين، وجاء كل "المعلمين" مــن دير تاسا والبدارى والغُرب من لاجئى قناة السويس – الذين يشعرون بالغربة أكثر من أهل البدارى – ليهنئوه على سلامته وعودته إلى عالم النور من جديد. لقد وجد أبونان مكانه بين الأحياء.

ومنذ ذلك الحين، وهو يجلس القرفصاء على الدِّكة، صيفًا وشتاءً، بمفرده أو محاطًا بمجموعة من أصدقائه وأهله. إنه يبيع السكاكر، والعصائر الطازجة، وأكياس البطاطس المحمرة، وعلب

السجائر، والمعلبات. وتوجد خزنته في جيب الجلابية الداخلي. نعم، إنه لمَ يتعلم القراءة ولا الكتابة، بيد أنه يعرف قيمة المال، ومعرفته في هذا المجال تأتى من خبرته الطويلة فى التجارة. فيتوقف المار ليشترى شيئًا، ويعرف أخباره، وينقلها إلى الآخرين، أو ليخبره بنبأ ولادة، أو وفاة، ينبئه بخبر مفرح أو محزن؛ فكل الأخبار تصل إليه حتى إنه غدا . صحيفة أنباء الحى. ولا يزال هو أبا العائلة الذى ينظم العمل، ويملك المال، ويقرر مصير كل فرد من أفراد أسرته. كما أنه لا يجلس وحيدًا على دكته لفترة طويلة، فهو إما يحتسى الشاى الساخن الذى تحضره زوجته مع أحد الأشخاص أو يشرب العصير الطازج ويخرجه من ثلاجته الريفية، أو يأكل طبق فول، أو طبقًا من الخضار باللحم. وعند تناول وجباته المتواضعة، تقوم دكته مقام الطاولة، والخبز مقام الملعقة. ويدعو المار به ليتناول الوجبة معه. ويعرف المار أنها "عزومة مراكبية"؛ فهو يدعوه من باب الأدب، ويشكره على دعوته، ويرفض تناول الطعام معه، لكنه يقبل شرب الشاى.

عدد أولاده تسعة. لقد توقف القدر عند رقم تسعةٍ فلم يُرزق بأولاد آخرين. لديه الآن نان، ورياض، ونادية، ويانى، وأحلام، ومترى، وبخيت، وميلاد، وآخر العنقود سامح ذاك الذى أغلق بطن أمه بالمفتاح، وخرج وفى قبضة يده هذا المفتاح إلى النور، على حد قولها. لم يعد أبونان ذاك الثور القوى الشاب. لقد فرط العقد.

لا يبدو أن ما تشكو منه أحلام قد أقضَّ مضجعه، رغم أنها لم تكف عن الشكوى كأنها تعيد الأسطوانة نفسها.

"جوِّزتنى ليه يابا؟ جوزتنى ليه؟ آبا؟".

أما والدتها التى شعرت فى قرارة نفسها بالندم المرير، فلم تقل سوى إن أحلام ليس أمامها خيار، فعليها أن تقبل مصيرها، كمصير والدتها.

"البت ما لهاش كلمة. الأب هو اللى بيجول".

بيد أن أم نان كانت كالملكة فى بيتها الفقير، وأحلام تتمنى شيئًا آخر من الحياة.

ماذا نالت أحلام من الحياة؟ حماة تعاقبها؛ لأنها فائقة الجمال، وحمٌ يرهبها، ويتركها تتعفن أمام باب الزريبة، وزوج يبرحها ضربًا. هل يعرفون سبب هذه الضربات التى تتلقاها؟ فأمه تقول له : "إن كنت راجل..."، وها هو الرجل يثبت نفسه. لم يكن الأب ولا الابن كشهريار. بيد أن هناك أوقاتًا كثيرة تتمنى فيها أحلام أن يقطعها جزَّار إربًا إربًا كى تخلص من الحياة وتلك القوة القاهرة التى تعذبها.

تروى أحلام مأساتها وهى جالسة على دكة أبيها الذى انفرجت أساريره وهو ينصت إليها.

"جوَّزتنى ليه يابا؟".

تحكى له أحلام بصوت يملؤه الحنان؛ فذاك الحنان يحمل فى طياته المرار الذى تذوّقته. إنها حاملة على أبيها الذى لم يعرف كيف يحميها من الزواج. بيد أنها تحمل عليه بكل حنان.

ليس لها أن تفكر فى الانتحار؛ فهى مفعمة بالحياة، والأحلام.

بدت حالة أحلام ميئوسًا منها عندما التقت بالطبيب البيطرى. وأطلقت آن مارى كامبو صرخة الإنذار وسمعتها مارى. إنها سيدة ممشوقة القوام ذات قلب كبير وأم الشابين اللذين تفاوضا مع "المعلمين" لتحقيق التغيير. لقد ذهبت لترى بعينيها الوضع الذى تعيش فيه ابنة أبونان. فمارى رجعت لتوها من خارج مصر لتبدأ مرحلة المعاش، وتشارك بالحكمة التى تتمتع بها مع من يفتقدونها.

لقد تعهدت مارى بتحرير أحلام من سجنها القمىء.

لقد أسست مع يسرية صندوقًا جديدًا لمد يد العون للمحتاجين. ليس طموحها هو شفاء الناس من الفقر، بل التقليل من حدته عندما يتعدى حدود ما هو محتمل، ومد يد العون للقدر.

قالت: "النواية تسند الزير".

حمو أحلام ليس بحاجة إلى المال؛ فهو يملك ورشة نجارة، ويصنع للعديد من الزبائن الأبواب والشبابيك. وفضلاً عن ذلك يريد الاستفادة من الزبالة ومن الزرايب. وليست أحلام أقل فقرًا منه. إنها بمثابة ذاك الزير غير الثابت الذى يبحث عن النواية لكى لا ينكسر.

لقد قدمت لها مارى النواية: مبلغ متواضع من المال، ألفى جنيه لدفع خلو الرِّجل، ووضعت شروطًا لاستخدامها. فعلى الزوجين أن

يعتمدا على أنفسهما، ويبحثان عن سكن، ويقرران معًا مصير حياتهما لبناء مستقبلهما. قد يعين ذلك على معاودة الانطلاق بخطى ثابتة؛ فابنة الزرَّاب فى عمرها العشرين، ليست بعد سيدة كبيرة فى السن.

هل الوعد بهدية كهذه من شأنها أن تقرِّب بين الزوجين، وتستبدل بالعصا الابتسامة؟ لقد تزوجت أحلام منذ ست سنوات، ولم تدع الفرصة لتحمل ولو لمرة واحدة. هذا خطأ فادح بالنسبة إلى شعب يقدس الخصوبة لدى الحيوانات كما يقدسها لدى المرأة. فغياب زوجها عنها لأداء الخدمة العسكرية لمدة سنتين ليس بعذر مقبول، ولا يفكر أحد فى التماس العذر لزوجة تمتنع عن زوجها؛ فزوجة كهذه تستحق العصا.

نجحت أحلام وسمير فى استخدام الألفى جنيه لتأجير مسكن مستقل بمبلغ معقول فى وسط مجتمع الزرَّابين فى الطابق الخامس من منزل متواضع به غرفة للجلوس، وغرفتان للنوم، ومطبخ، ودش وتواليت. أرضيته من الرمل وجدرانه عبارة عن حجارة مليئة بالسخام لم يتم طلاؤها بعد. لقد حمى سمير أحلام من عبودية الزرايب، ولم تعد الزبالة هى مهنتهما؛ فسمير تعلم حرفة النجارة.

سمير صبى جميل. إنه ليس شريرًا. إنه رجـل – كبقيـة الرجال – سيِّئ التصرف ويعانى من الربو الذى يخنق صدره. إنه يحب أحلام. لقد قصوا عليه قصة الخلق: كان آدم سيد الجنة، وحيدًا،

حتى خُلقت حواء من ضلعه، خاضعة له. يا له من مسكين، سمير هذا مشكلته تكمن فى أنه ليس بدرجة ذكاء زوجته، ويريد أن يسيطر عليها.

لا يهم؛ فالآن يغير كل من الرجل والمرأة حياتهما. الرجل بعيد عن أهله، يكتشف نفسه من جديد حتى لظن من رآه أنه مزدوج الشخصية؛ فهو يريد أن يكون على شاكلة أبيه، لكنه وجد نفسه مختلفا عنه، وعلى استعداد لأن يبدى حنانه – كما فعل فى سابق عهده مع حماره – لعل شيطان أبيه لا يعود ويتملّكه، ولا تلاحقه أمه! فامرأته جميلة، وناضجة فى تأدية دورها كربة منزل. إنها امرأة فى أبهى صورها، ومن ورائها سر حضارة ملايين السنين.

لقد فرشوا شقتهما الجديدة مع تقدم السنين ووفقًا للمال المتاح؛ فاشتروا سريرًا كبيرًا، وخزانة للملابس، وثلاجة، ومطبخًا، ووضعوا على الجدران الصور المقدسة، واشتريا تليفزيونًا.

تطل شرفة أحلام على الجُرف وأسطح المنازل حتى أنها ترى ما يحدث فى بيوت الآخرين، وتقارن قدرها بقدرهم. ووضعت فى الشرفة فرنًا للعيش البلدى، ومنشرًا للغسيل، وسَبَتًا معقودًا بحبل طويل. ويمر الباعة المتجولون فى شارعها، فتفاصلهم فى السعر من طابقها الخامس، وتلقى بالسَّبت وبه المال ثم تسحبه وبه كيلو جرام البصل. تستهلك أحلام وزوجها القليل من اللحم. فأحيانًا يأكلوا دجاجة يربيها أهلها فى الحظيرة، ونادرًا ما يأكلوا الخضار باللحم والخنزير المشوى. وأخوها يانّى يذبح الخنزير بالسكين بسرعة من الحلق إلى القلب. إنه

موت مفاجئ - كالذى يتمناه الأخ الصغير بخبث عندما يصيبه الإحباط.

أرادت أحلام أن تبدى سعادتها بكونها ربة المنزل للسيدات المتطوعات، فدعتهن لتقوم معهن بواجب كرم الضيافة فى منزلها. وقمة الكرم أن تقدم لهن طبقًا من الخنزير. عادة ما يقومون بذبح الخنزير لبيعه. فالجيل القديم لا يأكل الخنزير، حتى إن مجدِّس ليقسم بأنه لِمَ يذقه قط. أما أبونان فيقول إنه يعرف مذاقه، والاشمئزاز الذى يسببه. أما بالنسبة إلى الشباب فهو ضرب من الرفاهية ينعمون به من حين لآخر فى الأعياد. وفى أيام الخميس، بعد الصلاة فى مغارة أبونا سمعان، يقومون أحيانًا بذبح الخنزير الذى يقطعونه إربًا إربًا ويقومون بشوائه لإدخال الفرحة إلى قلوبهم.

تُعِد أحلام أطباقًا شهية بلحم الخنزير. بيد أن المتطوعات رفضن الدعوة بكل أدب.

لربما أشفقن عليها من ميزانيتها المتواضعة، لكنهن ذهبن إلى أحلام، وشربن الكوكا كولا المثلجة أو الشاى ذا السكر الزيادة الذى تم غليه عدة مرات. لقد لمسن بأيديهن هذه السعادة الجديدة التى أسهمن إحيائها من خلال مارى.

. . .

لم تخفِ أحلام سعادتها باستقبالهن فى بيتها.

لقد أخذت أحلام بقلوب هؤلاء السيدات حتى غدت طفلتهن المدللة. فيقمن بتدليلها، وبنهرها شأنها شأن الطفلة. تسير معهن فى شوارع المقطم ممسكة بأيديهن. لقد رأوها غير مرة، تارة مع سيدة وتارة مع أخرى. لقد حسدتها الفتيات اللاتى لم يحظين بهذه الفرصة. تتخيل أحلام أن تلك السيدات بمثابة سُلَّم ستصعد عليه للوصول إلى القمر.

القمر حاليًا ليس سوى درس محو الأمية. هكذا احتفلت بحريتها التى وهبنها إياها. ذهبت عند المدرس عادل فى مدرسة الأطفال التى أسستها جمعية الحفاظ على البيئة؛ حيث تفتح الفصول فى المساء لها ولكل السيدات اللاتى راودهن هذا الحلم، وتكبدن العناء الشديد لتحقيقه.

تذهب إلى المدرسة فى المساء، وبطنها الكبير يؤوى الطفل القادم، تأثرت أيَّما تأثر وهى جالسة على الدكة الصغيرة وهى تكتب على مكاتب صغيرة كهذه. إنها تتعلم كيفية فك الرموز السحرية التى ترقص فى مخيلتها.

سرعان ما تميزت أحلام عن سواها من السيدات فى فصول محو الأمية. ولطالما أعادت مرارًا وتكرارًا الكلمات والجمل التى كتبها لها مترى أو يانى.

لم يربح زوجها الكثير من المال؛ فقد غدت النجارة مهنته، ويلزمه الزبائن. فمن ذهب إليه لا يعاود الكرة؛ لأن عمله يبدو لهم عملا ناقصًا ولا يحوز على إعجابهم.

بحثت أحلام عن عمل. لِمَ لا تصبح رجل المنزل؟

استعانت بليلى التى تناديها أبلة.

منذ عدة أعوام وليلى تدرِّس فى فصول محو الأمية عند أبونا سمعان فى الوقت نفسه الذى تحضِّر فيه رسالة دكتوراه فى جامعة أمريكية. فهى تكرس عدة أشهر للكتابة فى مجال علوم التربية، وبقية الوقت تمضيه فى ممارسة فن التدريس. وها هى تترك هذا الجانب من الجبل لتدخل من أسوار الحديد التى تبدأ عندها حدود مصنع السماد وجمعية الحفاظ على البيئة. أرادوا تحرير الفتيات من سلطة الأب. لقد اقترحت السبيل إلى ذلك: النول؛ ذاك الفن الذى يرجع إلى تاريخ قديم. لقد علم ويصا واصف أطفال الفلاحين الصغار فى الحرَّانية إنتاج الأعمال الفنية البديعة باستخدام خيوط الصوف والخيال العذرى البعيد عن أى تأثير غربى. لِمَ لا تثبت بنات الزرَّابين موهبتهن فى هذا المجال؟

اختارت الفتيات الصغار اللاتى أرادت تعليمهن من الأسر الأكثر فقرًا، وطرقت الأبواب كلها لتعرض عليهن فرصة العمل. عندما تجد طفلة صغيرة تجلس إلى جانب الزبالة بحثًا عن شىء لتقوم ببيعه، أو عندما ترى فتاة صغيرة يصطحبها أبوها فى جولات

جمع الزبالة بدلاً من الذهاب إلى المدرسة، تطرح عدة أسئلة على الطفلة، ثم تدعو الأم وتعرض عليها فرصة عمل لابنتها. وسرعان ما تقتنع الأم التى تبغى إخراج ابنتها يومًا ما من الزبالة والزرايب.

وتُفضّل اختيار الفتيات الصغيرات فى سن المراهقة – أى بين سن اثنتى عشرة وثمانى عشرة سنة – قبل أن يقضى عليهن الزواج. فبإمكانها تعليم الشابات، وإعطاؤهن مذاق حياة أخرى.

تُعد أحلام كبيرة بالنسبة إلى ليلى، بيد أنها الطفلة المدللة لهؤلاء السيدات؛ فأحلام قاعدة استثنائية.

وسامية أيضًا أكبر من أحلام. لقد ولدت كعزت فى عام 1964. وسامية، من أفقر الفقراء، وبها كل المواصفات التى تبحث عنها أبلة ليلى. إنها تبلغ من العمر ثلاثة وعشرين عامًا.

طيلة سنة كاملة، دخلت أحلام فى كل صباح إلى جمعية الحفاظ على البيئة من الباب الحديدى المفتوح بالنهار والمغلق بالليل. وهناك، تلقى بثوب زوجة الزرّاب وابنته شأنها فى ذلك شأن البصلة التى تُنتزع قشورها؛ لكى تحيا حياة جديدة. لقد غرسوها فى طين الزرايب، بيد أنها تقفز إلى النور كالبصل الذى يقفز إلى الحياة من أعماق الأرض.

تحيط روضة الأطفال بمصنع السماد، ويوجد خلفها المبنى الإدارى الخاص بالموظفين الذين يديرون المصنع. لقد أنشأت أبلة ليلى

إدارتها العامة فى روضة الأطفال حيث ذهبت أخيرًا أحلام لتعيش، لتعيش وتلعب، وتربح.

إن الجو الذى خلقته ليلى هو جو روضة أطفال: أربع ساعات من التدريب، يتخللها الطعام ودرس محو الأمية. واحتفلت أحلام بميلادها العشرين. لقد بدأ عهد المدرسة لأحلام.

إنها تتردد على مدرستين بدلاً من مدرسة واحدة. مدرسة عادل ومدرسة ليلى. كانت أحلام لفترة من حياتها مفعمة بالسعادة.

تذوقت حلاوة طعم ربح المال. فبالقليل، ببعض الفتافيت يمكن تكوين الحلم.

اقترحت أبلة ليلى ومجموعة أصدقائها على المشتغلين بصناعة النسيج وكل العاملين بالتجارة بدفع الزكاة للمسلمين والعشور للمسيحيين نقدًا. وتدفقت التبرعات. بدأت المغامرة مع ابن يسرية الذى وفر ثلاثين منوالاً إثر إغلاق إحدى الورش، ثم غدقت الأقمشة بأشكالها المختلفة من المحال الكبيرة وبيوت الأزياء، ثم قدم التجار الأثاث، والمكاتب، والكراسى، وألواح السبورة السوداء، والمكاوى، وكتب محو الأمية، والكتالوجات، وآلة تصوير الورق، وحاسبًا آليًا، وحلويات، وفى يوم الاحتفال بالمولد النبوى قدموا عرايس المولد الشهيرة. وقدم الأطباء خدماتهم العلاجية مجانًا، فمنح أطباء العيون النظارات، ومنح الصيادلة

الأدوية. ولاحقا، فى مرحلة التصدير، قدمت تبرعات أخرى: دعاية إعلانية، وعلب كراتين للتغليف، وأماكن للشحن بالطائرة. لقد نعمت كل من أحلام وسامية بجو الرخاء الذى نعمت به الفتيات الصغيرات. لقد لعبت الفتيات كل يوم، طوال عام بأكمله، ببقايا القماش الذى قمن بفرزه وملاءمته مع أقمشة أخرى، ونسجنه على النول، كأنهن يقمن بالتلوين – كما يفعل الأطفال فى الروضة – لتنمية القدرات الخلاقة. ويقمن بقص القماش على هيئة قطع متساوية الطول، ثم خياطته – مستخدمات الأيدى والأرجل – بإحكام. لقد تعلمن القراءه والحساب دون أن يدركن ذلك؛ فخياطة السجاد تعلم الحروف والأرقام، كما تفرض وجود مسافة قياسية موحدة. وفى خلف السجادة تجب كتابة اسم صانعتها، الاسم الذى يؤكد الصبغة الفردية، ويكون حروفًا مختلفة فى شكلها وفى عددها. فقراءة الأسماء تستلزم معرفة حروف الأبجدية. وحساب المسافة التى تبعد بين كل حرف والآخر يستلزم الإلمام بالقواعد الأساسية للحساب. لقد اضطررن أيضًا إلى تعلم قراءة الساعة؛ لأن أبلة ليلى تفرض الالتزام بالمواعيد. فخمس عشرة دقيقة تأخير تعنى خصم خمسين قرشًا من الأجر. أما إذا ما تأخرت إحداهن خمسٍ وأربعين دقيقة؛ فعليها أن ترجع أدراجها، بل أضف إلى ذلك أنهن تعلمن النظافة؛ فأبلة ليلى تفرض أن تكون الأيدى والأظافر، والشعر، والجلابية نظيفة تمامًا، والأرجل المتسخة من الطريق يجب أن يتم غسلها بالماء قبل الدخول إلى غرفة النول.

تبغى أبلة ليلى التى تتلمذت على منهجيات فريرى[1] فى محو الأمية أن تنشر الوعى فى الطبقة المعدمة والمغلوبة على أمرها، وتعلمهم القراءة والحساب من خلال ممارسة السلطة عليهم، وتكررت تلك الكلمة السحرية مرارًا: البيئة. إنها البيئة التى يتعين تغييرها.

نازعت أحلام الرغبة فى أن تتعلم وتربح. فى العقد الثالث من الحياة، عوّضت الفترة التى فاتتها – أى مرحلة الطفولة والمراهقة – ونضجت المرأة التى بداخلها.

كانت الفترة التى عوضت فيها الطفولة والمراهقة قصيرة، وبعد ستة أعوام وُلدت لهما طفلة: مارى. لقد فقدت الأم الاسم الذى درج الناس على مناداتها به فى الطفولة والمراهقة. لا يجب نداؤها باسم أحلام، بل بأم مارى. لقب الأم ذاك الذى واراها – كالحجاب – يخفى اسمها الحقيقى. فنداؤها باسم أحلام غدا منافيًا للحياء – شأنه شأن ظهور جسد المرأة عاريًا – وغدا لقب الأم ذاك بمثابة قبر يوارى تحت ترابه مرحلتى الطفولة والمراهقة.

---

(1) Freire (1921–1997) باولو فريرى هو أحد التربويين البرازيليين البارزين فى مجال محو أمية الفقراء. من أشهر كتبه" تعليم المقهورين" (1969) وحصل على جائزة اليونسكو لتعليم السلام فى عام 1986. (المترجمة).

بدأت حياة جديدة للزوجين المتصالحين؛ فلم تعد تذهب أحلام إلى أبلة ليلى إلا حاملة طفلاً على يديها.

ولا تزال تحضر دروس محو الأمية عند عادل. لا تنفك تنبهر كلما كشفت عن معانى الكلمات المطبوعة، كما تبهرها هذه الطفلة التى ارتسمت على شفاهها أولى الابتسامات، وخطت أولى خطواتها، وتفتحت على الكلام، وعلى الكتابة لاحقًا.

عند الأبلة ليلى تتجدد المغامرة كل يوم؛ فهناك متطوعون جدد يعلمون الفتيات الصغيرات استخدام قصاصات القماش لعمل المنتجات الفنية. قالت أبلة ليلى: "ربنا ما سابناش، القماش اللى جاى حيخلينا نعرف نقص مربعات بألوان جميلة وبرسومات مختلفة". وتعلمت الفتيات فى بداية الأمر خياطة هذه القطع معًا، ثم استخدام الماكينة.

لم تعد تكتفى أبلة ليلى بنسيج السجاد، ودفعت فريقها إلى خياطة المرايل، وقفازات المطبخ، وأكياس المخدات، وأغطية السرير. أصبح بإمكانها إغراق السوق بهذه المنتجات.

اقترضت أحلام مالاً لتشترى ماكينة حياكة؛ فسريعًا ما تعلمت هذه المهنة الجديدة.

لكنها لم تتخط باب جمعية الحفاظ على البيئة ولا باب المدرسة الصغيرة إلا للعمل؛ فهى تعمل بمفردها فى شقتها، وبجانبها مارى، وتخيط قفازات المطبخ بقصاصات القماش.

وتنضم أحلام إلى الفريق لكى تحصل على أجرها؛ فتوزيع الأجور كان بمثابة الفرصة للقيام باحتفال مرة كل شهرين.

وسط هؤلاء المراهقات بدت أحلام مختلفة عنهن؛ فقد زاد وزنها بعض الشيء بسبب حملها. ومنديلها حول رأسها يغطى شعرها – كما تفعل فلاحات الصعيد – وجلابيتها الفلاحى طويلة. إنها تنتمى إلى جيل آخر؛ فالسنوات التى تفصل بينها وبين هؤلاء المراهقات تغيرت خلالها الأوضاع؛ فهؤلاء المراهقات يرتدين – كالمتطوعات – الجيبة القصيرة ولا يغطين رأسهن. ليس بإمكان أحلام أن تغير من طريقة هندامها؛ فالحياء يفرض عليها صورة معينة تظهر بها مختلفة عن الأخريات.

وفى أثناء لقاءات الغداء هذه التقت الفتيات اللاتى تزوجن بعد مراهقة لم تدم طويلاً، وأعياهن الحمل المتكرر، والأمراض، ومتطلبات الزرايب، والزبالة، ويعملن مثلها فى المنزل. بعضهن حصل على قرض بمائتين وخمسين جنيهًا لشراء ما يسمح لهن بمزاولة مهنة الحياكة. لقد تم اختيارهن من بين أفقر الفقراء، يعشن فى عشش ذات سقف من الصفيح الصدئ. ورغم قلة هطول الأمطار، فإنها تلحق الضرر بالمكان كله: طيور الحظيرة، والماعز، والحمير، والخنازير، والأطفال، وتلطخ بالأوساخ ما قمن به من عمل. تقدم لهم أحيانًا أبلة

ليلى مالاً لبناء غرفة خاصة لمزاولة العمل؛ فهى تغترف من جيوب البرجوازيين، ويغدق عليها المال من آلاف المصادر.

وعند الانتهاء من الوجبة، توزع الأجور المسجلة على ورقة بأسماء المستحقات. ومن تفك منهن شفرة الأسماء، تعلم أنها لم تُخدع قط. ولشدة رغبتها فى التحكم فى ربحها، تعلمت أحلام الحساب. وهذه هى نية أبلة ليلى، وتنظر أحلام من أعلى كتف زميلاتها، تقرأ أرقام الأرباح المتواضعة.

أدركت أحلام أنها على حافة هاوية الفقر. إنها لم تصل بعد إلى القاع. بيد أنه اعتراها القلق، وهذا القلق النابع من الهاوية يتحدى حلم الثراء. هل هناك قاع لهاوية الفقر؟

لم تعد تسكن فى العشة. إنها ربة منزل، ولطالما عانت حتى أنها تقدِّر عظمة هذا اللقب: ربة منزل.

بيد أن زوجها لا يكسب ما يجعل منها ربة منزل بالفعل: لا يحمل حزامها مفاتيح دواليب زاخرة بخيرات الأرض، ولا يوجد فى بيتها ما يحتاج إلى مفتاح. الجوع ينذر بالخطر.

لا يزال بوسعها أن تتعلق بالأيدى التى تمتد إليها، بالعمل المتاح لها لكى لا تهوى إلى الهاوية الأزلية.

استطاعت أحلام بالمال الذى ربحته أو أعطوه لها أن تدفع ستين جنيهًا للإيجار، وأن تدخر أيضًا كى تدخل ابنتها أحسن المدارس؛ فهى تعد ابنتها بمصير أفضل من مصيرها، تعدها بالتعليم الذى لم تحظ هى به. تعدها بطفولة ومراهقة...

لقد رأت مدرسة الأطفال التابعة للجمعية وهى تكبر كل سنة بإضافة فصل جديد. ما زالت الدكك والمكاتب تثير لديها المشاعر؛ فهى تهوى المجىء إلى هذا المكان لترقب لُعبة ما، وتستنشق روائح الطبخ الذكية. كان بوسعها أن تتذوق هذه الأطباق الغنية بالفيتامين والبروتين فى الأيام التى شعرت فيها بالجوع. سيكون ذلك من نصيب طفلتها. المدرس عادل يصغرها بعدة سنوات، وينتمى إلى عائلة زرّابين من دير تاسا. تحب أحلام أن تتبادل معه أطراف الحديث، لكى تطلع على كل التطورات الجديدة؛ فقد تمت زراعة مرعى لإنشاء حديقة. تسود نظراتها المكان الذى يشرف على مصنع السماد، ومن خلفها المنارات التى تحمل نحو السماء رموز النهضة المتوارية تحت القبور: البصل والخبز[1]. لا تزال نظراتها تبحث قبب الكنائس. هناك القليل منها. بيد أن نظراتها وقعت على بعض القبب التى تتنافس فى عظمتها مع منارات المساجد. أضفى عليها ذلك الشعور بالأمان، كأنها تجد نفسها فى قبة الكنيسة. فقبة الكنيسة تؤوى قصرها الملىء بالصور، تلك

---

(1) كان يوضع البصل فى أكفان المومياوات، وتُدفن حبوب القمح أو الخبز الشمسى مع ملوك الفراعنة. (المترجمة).

الصور التى لا يقبلها اليهود ولا المسلمون، والتى تلازمها أينما ذهبت، وتعطيها الأمل فى المعجزة، وتتوسط لها عند الله العظيم الذى سيعطيها الثروة، والحب، وسر الكلمات، وكأنها هى والكنيسة كيان واحد.

ثم ما لبث نظرها أن انتقل من الصخر إلى الزرع.

لقد ألقيت البذور فى الحديقة، وأول ما أزهر هو الريحان. ما أجمل الريحان الذى يتفتح بتواضع ! إنه جميل كجمال الناس المساكين الذين تحيطهم. هنا، ليست الأرض صخرية، بل إنها تبدو خصبة. فسيزهر كل شىء والحماسة فى زرع الصحراء تحرك الجناينى.

ستُجهِّز حديقة مدرسة الأطفال لابنتها.

قدمت الأخت إيمانويل هدية قيمة لأصدقائها الزبَّالين: قدمت منزلا فى أبو سلطان لقضاء العطلة الصيفية على البحيرات المرة.

لا تبعد أبو سلطان كثيرًا عن القاهرة. إنها على مسافة ساعة بالسيارة، ويذهب الزرَّابون هناك أفواجًا لقضاء عدة أيام.

لقد سمحت هذه الرحلات لأحلام فى هذه الفترة من حياتها بأن تتعم ببعض السعادة الهاربة.

لعلها أُخذت ذات يوم بالنار التى تشعل السماء والأرض. إن هذا الشعور اصطحبته الرغبة فى إنهاء عمرها. هل تتخيل نفسها وهى تنطفئ كانطفاء الشعلة المضطرمة؟ فهنا، على شاطئ البحيرات، رأت الأفق الواسع لمدة أربعة أيام. إنها بمثابة التجربة الأولى لاكتشاف ماهية الجمال.

استنشقت أحلام الهواء النقى فى أبو سلطان، بمفردها، بعيدًا عن سلطة العائلة. أما الشباب فكانوا يتيحون لهم أسفارًا أخرى.

وضعت قدمًا فى الماء ثم تبعتها القدم الأخرى، وقفزت. إنها لا تعرف السباحة. انتابها شعور بالخوف. لقد خاضت المغامرة مرة أخرى. يا لها من فتاة تهوى التحدى. هناك الكثير من الماء، لم تعد تصدق: لقد اكتشف جرح حياتها بلسمًا سحريًا، المياه الممتدة القريبة من أفق آخر واسع، الرمل الأبيض. كم من الوقت دام شعورها بالانبهار قبل أن تغدو تجربة الأفق الواسع، هذا أمر عادى؟

بوسع أحلام أن تعد على أصابع يد واحدة عدد المرات التى ذهبت فيها إلى البحر. إنها فترات من الوقت استرقت من الحياة اليومية الأبدية. فترات قصيرة من الوقت استغرقت كل فترة أربعة أيام على شاطئ البحيرات المرّة أو على شاطئ البحر المتوسط، على شواطئ من الرمال البيضاء التى تغوص فى الماء الشفاف ذى اللون الأزرق.

إنها تذكر تلك الرغبة الشديدة في احترام عذرية الماء والرمل. إنها تفهم الآن ما قالته لها الأخت إيمانويل وما كررته المارّات على مسامعها والمتطوعات. بعد أن لمست عظمة الطبيعة اللانهائية: إن ما يدعو إليه شعب الزرّابين هو تعليم احترام الطبيعة.

بيد أن لحظات السعادة لا تدوم؛ فيكفى أن يحدث شىء صغير لإطفاء وميض ذاك الانبهار، وجرح كرامتها، وتعرية جرح آخر عميق.

لقد صدق الناس حدوث معجزة صغيرة، وتتمنى أحلام حدوث المعجزة. بيد أنها لا تعرف ما شكل هذه المعجزة. إنها تذهب إلى أبونا سمعان لتغذى نفسها بالمعجزات. لا يقص أبونا سمعان معجزة تحريك الجبل فقط. فمعجزات ولادة يسوع، وموته، وإعادة بعثه، يرويها بجانب المغارة التى ظهر له فيها فرمان السماء؛ إذ رسمت على

الصخر الجيرى النقوشات والفسيفساء التى تروى قصة تلك المعجزات بلون الأرض أو بلون قوس القزح.

بوسع راهب الزرّابين أن يحيى يسوع، ويجعله يتحدث. تحب أحلام الإنصات إليه.

يقول أبونا سمعان على لسان يسوع، مشيرًا ببنانه إلى أحد الجالسين: "أنا جيت عشانك".

ثم مـ تلبث الأصوات أن ترتفع للّجوء إلى يسوع الذى يحبهم فردًا فردًا، فقد صُلب ليكفِّر عن خطايا البشر. ماذا تقول أحلام ليسوع المصلوب الذى تنتشر صوره فى شقتها؟ أتقول له: "يارب سامح أبويا؟"

بوسع أبيها أن ينتظر ريثما تتخطى مرحلة "البهيمة" قبل أن يزوِّجها، وبوسعه أن يترك لها حرية اختيار شريك حياتها.

تلوذ بالصلاة لتكبح جماح الثورة التى تضطرم بداخلها. إنها تصلى لتتسلح بالقوة؛ لتعينها صلاتها على تحمل الظلم الواقع عليها.

.

تنتشر الصور المقدسة التى تحمى شقة أحلام الجديدة، وتنتشر صور يسوع مرتديًا تاج الشوك على الجدران، والأبواب، والثلاجة. يجول نظرها فى معرض لصور يسوع المصلوب.

لم تولد أحلام إلا لتنعم ببعض لحظات السعادة الهاربة. يشبه يسوع المصلوب حياتها.

فالمعجزة هى تلك النظرة الحنونٍ التى تنير وجهها الجميل الواعد بالسعادة. إنها تتمنى، لا نعلم ما تتمناه.

على أحلام أن تنتظر ريثما تحدث مغامرة أخرى لتعيش من جديد طفولتها ومراهقتها: المغامرة الكبيرة لإعادة تدوير الورق ستغدو مغامرتها لدى خروجها إلى النور. فأحلام تقوم بصنع العجينة، وتباشر لمدة عام بأكمله مراقبة العمل فى كل صباح. فتلقى بثوب المرأة وبثوب ابنه الزرّاب، وتذهب لتشرف على عملية إعداد الخليط فى الطست الكبير، ذاك الخليط الذى ستُسَطَّر عليه الكلمات. فالكتابة بالنسبة إليها بمثابة سحر تتمنى أن تفك شفرته يومًا ما.

هل شكَّت أحلام في ألاَّ يكون عزت رجلاً سعيدًا، وأن سعادته الزوجية لا تفوق سعادتها في زواجها؟

فلا يوجد بين عزت وصباح غموض المجهول الذى ربط أبونان ومجدِّس بزوجيتهما؛ فعزت وصباح أقرباء من الناحيتين، من ناحية الأم ومن ناحية الأب، ويعرفان بعضهما منذ الطفولة. لقد عاشت العائلتان بجوار بعضهما البعض، لم يفصل بينهما سوى حائط من القماش، ثم حائط من الطوب. ومنذ ولادتها وهو يراها كل يوم. حملها على ذراعيه؛ لأنها أصغر منه، ولم يشعر أى منهما بالانجذاب نحو الآخر.

تزوجا تلبية لرغبة مجدِّس وبناته الاثنتين؛ فإذا ما أبدى الأهل رغبتهم فى هذا الزواج، ينبغى تلبيتهم على الفور. يرددون فى الصعيد: "البت ما تخرجش من العيلة". كأنهم يبغون تثبيت التقاليد فى حياتهم. إذن يزوجونها لأحد أقربائها؛ ولا يجرؤ ذاك القريب على رفضها وإلا لجرح كرامة العائلة. يُقال إن الأختين زوجتى الأخين لا تتحدثان منذ فترة طويلة، وذلك بسبب تمويل الحائط. من المفترض أن تهدئ تلك الزيجات الأجواء المشحونة؛ ليس فقط لأن عزت تزوج من صباح ابنة جمالات وسليمان، إنما أيضًا لأن ابن جمالات وسليمان تزوج من بخيتة ابنة أمل ونعيم.

عادت العلاقات الطيبة بينهم بعد ولادة المولود الصغير ثم عملوا معًا فى المستوصف.

لم يعرف عزت الحب فى حياته قط، وظل يعانى مرارة هذا الشعور. بيد أنه كان يقضى على مرارة شعوره باللجوء إلى الكلمات. لقد سبق له أن تميَّز فى المدرسة، لا سيما فى اليوم الذى أجاد فيه كتابة نص عن الزرَّابين اعترف فيه بأنه زرّاب ابن زرّاب؛ فمنذ ذلك الحين أُخذ بالكلمات، واستشعر متعة لصقها بعضها ببعض. الحب، عبَّر عنه فى كتابة الشعر، لقد تغنى بهذا الحب فى أبيات شعر تداولها الشباب فيما بينهم، غنى تلك الأبيات على نغمات الأغانى الشعبية لكى يوعِّى أولاد الزبَّالين بأضرار الذباب، والقمل، ويفرض عليهم اتخاذ الاحتياطات اللازمة للوقاية من الإصابة بنزلات البرد، ونشوب الحرائق. فبالأغنية يسهل استيعاب العناصر الأساسية الخاصة بالنظافة والوقاية. كما أنه يؤلف مسرحيات هادفة تُعرض فى الكنيسة.

يكبر عزت شباب مجتمع الزرَّابين ويفوقهم علمًا. فهو "الريِّس" المسئول عن مستقبل الجيل، وعضو نشط فى المجلس التأسيسى لجمعية الحفاظ على البيئة، وهو مندوب عن مارى التى أخذت على عاتقها – بقوة – تمكين الفتيات والسيدات.

قال أبونان: "ريِّس طبعًا ما هوعشان جاى من دير تاسا"

لم توافقه أحلام الرأى. قالت له نبرة صوتها تنم عن الحسرة المريرة الكامنة فى قرارة قلبها: "ريِّس يابا عشان معاه شهادات".

ورغم كل ذلك، فعزت تعيس.

ملأت قصائد الحب قلبه. فالكلمات ملهمته. هل تصورت صباح أن الكلمات مكتوبة لها؟ هل شعرت بالغيرة تجاه كائن خيالى يلهمه الحب؟

هل شعور الحب غريب عن شعب الزرّابين؟

بدأت مغامرة الورق الكبيرة برحلة سفر، عندما اقترحت سيدة من جزر فيجى على مارى حضور دروس عن إعادة التدوير فى جزيرة كريت تنظمها الجمعية الدولية لاتحاد اليسوعيين للسيدات الشابات.

قررت مارى أن تصطحب معها ابنة الزرّاب جيهان عزت. بيد أنها واجهت صعوبات جمّة، إذ يجب استصدار جواز سفر وتأشيرة، بل الأصعب من ذلك هو الحصول على موافقة أهل جيهان، والشعور بالخوف الذى انتابها من فكرة البعد عن أبيها وأمها.

شقت السيدة العظيمة طريقها ومعها جيهان التى سالت دموعها الغزيرة، وعزت الذى بدا منتشيًا . بدوا كأفراد عائلة واحدة.

لم يجدوا هناك مجالاً للخوف ولا للفرح. كانت الفترة التى قضوها ممتعة. لم تبرر الدموع، ولا السعادة البالغة. رجعوا ومعهم هذا المشروع الجديد الواعد لأحلام بالسعادة: إعادة تدوير الورق.

منح الخبراء لجيهان مكبسًا.

قالت لها ماري: "المكبس ده للجمعية. لازم الكل يستفيد من مواهبك اللي ربنا ادهالك عشان توهبيها لغيرك.

عند عودتها إلى الجبل، شاطرت جيهان الزرَّابين المكبس والمعرفة التي تلقتها. تسكن آن ماري كامبو في شقة صغيرة في شارع أبونان، قبالة الدكان المتواضع. وهناك جلست جيهان لتعلِّم بنات الزرَّابين أسرار المهنة. بحثن معًا لإيجاد وسيلة لتحضير العجينة قبل تلوينها، وعجنها، وضغطها. عندما تعطل الخلاط استخدمن المضرب ثم الهون. بيد أن الأمر يتطلب قوة، وصبرًا، ووقتًا. فضلاً عن ذلك لم يكن يدرّ سوى خمسة عشر قرشًا للورقة. فعملن في بيوتهن لزيادة الأرباح، وكل واحدة منهن كان بحوزتها مكبس. وتعجبن؛ لأن إحداهن تنتج عددًا أكبر من الأوراق حتى اكتشفن أنها تستخدم طست غسالة الملابس.

من صاحب الفكرة الرائعة بلصق صورة مطرزة على الورق؟ أيًّا كان من تفتقت عن ذهنه الفكرة؛ فقد أعطى لتلك المغامرة دفعة

كبيرة. لقد تحدثت الأخت ماريا عنها، تلك الراهبة التى تعمل فى مجتمع آخر للزرّابين، فى المعتمدية، مما دفع آن مارى كامبو إلى البحث عن فنان.

قالت لها أحلام: "أخويا بخيت".

منذ طفولته وبخيت يرسم بدلاً من أن يؤدى الفروضات المدرسية، كما أن والده أعفاه من أعمال الزبالة الشاقة بسبب كسر ساقة مرتين. وفى المقابل، لم ينل بخيت شيئًا من المال الذى ربحته العائلة؛ فهو فى عائلته بمثابة المثقف المفلس، والفنان المجهول. تم تخصيص شقه له فى منزل العائلة، ولم يبنِ سوى الأرضية والأعمدة. أما أسياخ الحديد فكانت تنتظر ريثما تأتى أيام أفضل من تلك الأيام لتُغطى بالأسمنت المسلّح. وها هو الآن بصدد القيام برسومات تسمح له بالكسب المتواضع؛ ليدفع تكاليف السقف.

لقد غدا بخيت – ابن أبونان – فنان الزرّابين.

إنه يرسم صورًا من الحياة اليومية على قصاصات القماش المربعة، ثم تقوم أحلام بتطريزها. ويربح كل منهما خمسة وعشرين قرشًا للقطعة، ليست شيئًا يُذكر.

لقد تشجع بخيت وفرض الفن نفسه وكرَّس حياته له. تمرن على اللوحات الفنية الجدرانية، كما أن بعض الزرَّابين الأكثر ثراءً من غيرهم لم يعودوا يكتفون بحماية جدرانهم بالصور المقدسة، وطلبوا من بخيت صورًا حقيقية، مرسومة بالزيت مثل صور القديس مار مينا وحوله الجملان، ومار جرجس وهو يصارع التنين، والعذراء وطفلها. إنه يستخدم ألوانًا حيوية تشع نورًا. فتغير من شكل الجدران الرمادية والأرضية الرملية. ويُطلب منه أحيانا أن يرسم شجرة الحياة مع عصافير الجنة لا لتوضع فى داخل الشقة بل على جانب من الشرفة. يحلو له ذلك. يرسم بخيت عن طيب خاطر الحدائق وأشجار الحياة على الجدران، لكن الصور المقدسة تلبى رغبات الزرَّابين، كما لو أن الاختلاط بالنبلاء المقدسين، السماويين، يكفل لهم الحماية على الأرض من احتقار البرجوازيين لهم.

رسم تحت ظل شجرة الجميز العذراء وطفلها.

يرسم لوحاته ثم يعود إلى مكانه فى شقة آن مارى كامبو ليكرر رسومات مستوحاة من الحياة اليومية على آلاف كروت التهنئة.

وصلت أرملة شابة تدعى إيزيس عهدت البكاء – لشدة شعورها بالوحدة – الذى ينتابها أمام مسكنها الخالى. عندما أخذتها مارى إلى الزرَّابين أصبحوا ينادونها بـــ "طنت"، ولم تبكِ "طنت" إيزيس أبدًا من الوحدة.

كلها آذان صاغية وهى تستمع إلى زوجين استشاريين أمريكيين يتحدثان عن كل إمكانيات تدوير الورق.

ولأن شقة آن مارى كامبو صغيرة؛ فهى لا تستوعب مشاريع جديدة، لكن انتقلت أبلة ليلى لتوها إلى بناية جديدة بجانب مصنع السماد والمركز الإدارى، بها "ورشة ميكانيكا" أنشئت لتعليم جيل الشباب من الزرَّابين. إن العمود الكبير الذى تقوم عليه ورشة "أبلة" ليلى وعاملاتها اللائى يبلغ عددهن حوالى مائة عاملة، يمتد على مساحة شاسعة تصل إليها أشعة الشمس؛ فلم لا يستغلونها؟

ثم أضيفت خلية عمل أخرى تحت طابق الخلية الأولى فى هذه البناية الجديدة. فى الورشة الأولى يقومون بالنسيج على النول، وفى الثانية بصناعة الورق. خليتان تعملان على إعطاء السيدات الشابات القليل من السلطة التى يحتكرها الآباء، أو ربما لسرقة هذه السلطة منهم كما سرق بروميتوس النار من الآلهة . لقد أبهر ذلك أحلام، بل وفاق انبهارها بمحل قريبتها أم رزق.

فى الخلية الموجودة أسفل البناية، شعرت أحلام كأن نداءً يوجَّه إليها، فقررت أن تمضى أيامًا فى العمل هناك. ولم تعد طفلتها رضيعة؛ فتركتها عند والدتها لتذهب إلى الأفق الواسع، فهى تحب معاودة الذهاب إلى هذا المكان حيث تتعالى ضحكات المراهقات، وتشع فرحة ألوان الشمس.

لم يعد كل من أحلام وبخيت يعمل بمفرده؛ فقد غدا الاثنان فى قلب مغامرة كبيرة: يحضر الخبراء من كل مكان ليقوموا بتجاربهم. لم يخشوا من ارتكاب الأخطاء؛ فعند أبلة ليلى تُعد المنتجات المصنوعة من قصاصات القماش جميلة كمنتجات أميش[1]. وعند "طنت" إيزيس يتحسن نوع الورق من موسم إلى آخر. فلم تعد تكفيهم القاذورات التى يجمعونها من سلات المهملات، بل طفقوا يطرقون أبواب المكاتب للحصول على قمامة أنظف. ويخلطون العجينة بالقماش، ويحسنون خليط الصمغ، والبودرة التلك. فالكَرَاتين تنتج أوراقًا غامقة اللون، والجرائد أوراقًا رمادية. أما الورق الأبيض فينتج ورقًا أبيض. وبذوق رفيع يضعون لكل ورقة ما يناسبها من مظروف.

أعجبت أحلام بعملها الذى فرغت منه، بطاقة يحيط بها إطار مصنوع من الكرتون الجميل، جاهز للذهاب إلى أرجاء الكون مع الأمنيات التي يتضمنها. تطرز أحلام باستمتاع منتجًا جميلاً كهذا. وتتمنى لو وقّعت اسمها، كما لو أنها أرادت أن تقول لزبونها البعيد إنها وأخاها بخيت هما أصحاب هذا العمل الفنى.

---

(1) أميش: هى طائفة مسيحية تؤمن بإعادة التعميد فى سن البلوغ وتطبق الإنجيل بحذافيره، وتعيش فى ولاية بنسلفانيا فى أمريكا الشمالية رافضة مظاهر الحياة المدنية؛ فتعيش بدون ماء وكهرباء، وتركب عربات تجرها الخيول، وتنجب الكثير من الأطفال. ويشتهر نساء أميش بالأشغال اليدوية المصنوعة من قصاصات القماش، ورغم استخدام الأدوات البدائية البسيطة، فهى تدر ربحًا كبيرًا. (المترجمة).

يعملون جميعًا لأجل حماية البيئة. البيئة، تلك الكلمة السحرية التى ترفع من شأنهم. وراودتهم فكرة رد الحياة إلى الحياة نفسها: النيل؛ فقد قلت حركة المياه منذ إنشاء السد العالى، وتكاثر ورد النيل وغطى القنوات، ومنعت جذوره المتشعبة القوارب من السير، وتسبب فى قتل السمك. وبدت فكرة صناعة الورق من هذه النباتات الشريرة - ذات الابتسامة الخبيثة بنفسجية اللون - فكرة عبقرية وبمثابة المادة الأولية المتاحة بوفرة.

لم يُستكمل المشروع بسبب صعوبة وسائل النقل.

وما زالت النباتات المائية تخنق حياة نهر النيل.

إنها سنة سعيدة استرقتها من الزمن، تلك السنة التى وجدت فيها أحلام نفسها تعمل فى صناعة عجين الورق؛ ففى كل صباح، تذهب لتشرف على سير العمل والطست الذى تُعد فيه الخلطة.

تعمل حولها مجموعة من العاملات يرتدين - مثلها - مريلة من القطن الخام. يضعن عجينة الورق فى حمام من الألوان، ويقمن ببسطها على المكبس، ويجففنها، وتشكلنها على هيئة بطاقات وأظرف، وأكياس هدايا. تستخدم العاملات الريشة بجرأة؛ فالريشة تقودهن، وتثير دهشتهن، وتشعرهن وكأنهن أصبحن فنانات بالفعل، ثم تجف الألوان فى الشمس. تحب الشمس ذاك الخليط الجميل من هذه الألوان الأشبه بقوس قزح.

ويدق مصنع السماد الإيقاع؛ فلا يشكو أحد من الرائحة التى تنبعث منه، ولا يتمنى أحد احتضاره وزواله؛ فهو يقوم بالتدوير – فالتدوير أساس التنمية – والمحافظة على البيئة.

فى هذه السنة، لم تشكُ أحلام قط؛ فالأمل يملؤها، وستحصل على دبلوم محو الأمية. وستستكمل طفلتها طموحاتها. فأحلام تعمل وتكسب مالاً. لربما ستكوِّن الثروة فى نهاية الطريق، وليس بوسعها أن تهرب من القدر.

تقول مرارًا: "أنا ست بشنب". إنها "ست بميت راجل".

أبونان ليس بحاجة إلى معرفة الحساب ليقدر أن عدد السكان زاد ثلاثة أضعاف فى غضون ثلاثة عشر عامًا. فكل من يملك بعض المال بنى بيوتًا تتكون من أربعة أو خمسة طوابق، تكاد تفى بالحاجة للعائلات المنحدرة من سلالة جد واحد وزوجته الوحيدة. يتكدس الجميع فى الأدوار العليا، ويُضاف طابق إلى أعمال البناء من الأسمنت المسلح كلما تكونت عائلة جديدة. فلكل ولد من أولاده شقة. نان ورياض على عتبة السلم، ويانّى ومترى على العتبة الأخرى؛ فهم الأربعة متزوجون. أما ميلاد وبخيت وسامح فعزَّاب. إنهم ينتظرون يوم زواجهم. إنهم ينادون حاليًا نان أبو سلامة. ويشارك مترى فى تجارة البلاستيك. أما رياض فيعمل سكرتيرًا فى مدرسة، وزوجته صباح مدرِّسة. ويانّى يعتنى بالزريبة، ويحاول استغلالها بشتى الطرائق. تارة يفتح جزارة عند مدخل الزرايب وتارة أخرى تراوده فكرة فتح مطعم عند مغارة أبونا سمعان حيث يتوافد الناس أفواجًا. لن يربح أبدًا؛ لأن لحم الخنزير ليس مصدرًا للثروة. فحوله تُغلق محال الجزارة، وتتكاثر مصانع إعادة التدوير؛ لذا فهو يستمر فى العناية بخنازيره.

..

يلتقى الجميع عند دكان أبونان المتواضع. يجب ألا يحسب عدد الأطفال الذين يتكاثرون؛ فكثيرًا ما عدّوا الأطفال فى منزل مجدِّس وتبعه الحداد على مولود جديد من أحفاده فى اليوم الذى احتفلوا فيه بالحفيد رقم مئة وخمسين. لقد شكوا فى أن يكون المرض هو سبب الوفاة، لكنهم رجحوا أن يكون السبب هو العين والقرين.

لقد اشترى أبونان شاحنة لنقل القمامة، وذلك قبل أن يُصاب بكسر فى عموده الفقرى. ها هى بجانبه تسد الطريق، ترتاح بعض الشيء بين مشوار ومشوار آخر.

يأتى الفضوليون من جميع البلاد ليروا أبونان. إنه يمثل جيل الزرّابين الذى شهدته الأخت إيمانويل. وتستأثر الأخت إيمانويل بالعديد من المقالات التحليلية المنشورة فى الغرب. ويقص أبونان قصص ذاك العهد الذى عاشوه فى المقطم، فى الوقت الذى جاءت فيه الأخت إيمانويل لتقيم – مثله – عند ناصية شارعه. يحيط دائما بأبونان نساء ومجموعة من الأطفال الحفاة. قد يصابون بجرح من جرّاء وقوفهم على الزبالة. إنهم يجلسون على دكته، وعلى أريكة من طراز كوين آن مكسورة، ويجلسون على الأرض أمام دكانه أو يتكئون على السوزوكى التى تقوم مقام الحائط أمام سريره البالى، وتحدد مساحة استقبال زائريه. يُستقبل الجميع بصدر رحب عند أبونان. إنه صفحة من التاريخ؛ فليسجلوا ذكرياته قبل أن توافيه المنية. فالعجوز المتوفى – كصفحة ضاعت من التاريخ – ويحكى أبونان عن أيام شبابه فى الصعيد، والهجرة، والنفى إلى أستراليا التى حرم منها، وعمله اليومى

فى الزبالة. لا يزال الخزان الذى يستخدم لضخّ المياه فى حوش منزله. يمكن التقاط صور له.

لا ينتمى أبونان إلى الماضى.

فى الجبل، لم تعد تسير العربات الكارو إلا وهى محملة برمل الزرايب لنقلها إلى مصنع السماد. يسعد أبونان لرؤية الكارو وهى تمر أمامه كما يسعد للاستماع لشكاوى أحلام، يذكره ذلك بالأيام الخوالى التى كان فيها ثورًا، بعل أم نان.

يساوره القلق إزاء أحلام.

لقد أُثلج صدره لرؤيتها سعيدة. بيد أنه لم يفهم مدى المتعة فى تشكيل عجينة الورق. ففرز الزبالة به عنصر المفاجأة. لقد وجد فى أحد الأيام صليبًا وسلسلة من الذهب؛ فالصليب بمثابة الدرع الواقى من الشيطان الذى يتخفى بألف شكل وشكل. الصليب سلاح سحرى، سلاح فعلى. هل فهم أحلام؟ تتصرف أحلام كما يحلو لها. إنها تحب أن تأخذ وقتها، تثرثر أو تتأمل. هل على خلية النحل أن تستمر فى العمل دون توقف؟ لقد نهر عزت أحلام. تجرأً عزت ونهرها بنبرة استعلاء. لم تحتمل أحلام ذلك. فجأة تركت العمل لدى "طنت" إيزيس، ورحلت عن أرض عزت.

علَّق الجميع على الحادثة فى صالون أبونان الريفى.

قالوا إن أحلام بالغت فى حساسيتها. قالوا إن أحلام مخطئة؛ لأنها لم تصبر، فكان عليها أن تزن الأمور وتفكر فى طفولة عزت التعيسة، أن تلتمس له الأعذار، وتسامحه.

قالوا إن عزت لم يعد يعرف كيف يخاطب الناس البسطاء؛ لأنه لا يعرف سوى التعامل مع أغنياء العالم؛ لأنه عضو المجلس الإدارى، ويتحدث الإنجليزية، وسافر إلى الخارج، ولأن الأمريكان اقترحوا عليه إعطاءه دروسًا فى العلاقات العامة، ولأنه - كما يقول أبونان مرارًا وتكرارًا - من دير تاسا.

قالوا إن دروس العلاقات العامة لن تجديه نفعًا. فهو على أيَّة حال من الأحوال سيعمل فى مركز التقدم الاجتماعى الأمريكى، وسيبعد عن الجبل.

فى صالون أبونان الريفى، انطلقت الألسنة، بينما كانت أحلام تختنق فى شقتها مرة أخرى، كالفأرة فى مصيدة الفئران، فأرة بشنب. عملت قفازات لأبلة ليلى، ونفعتها آلة الخياطة كثيرًا. فطرَّزت رسومات أخيها الصغير بخيت. إنها فأرة تشتاق إلى عمر المراهقة الذى استرقته خلسة من سن النضج، حين كانت تحضِّــر عجين الورق.

لا ريب أن أبونان ورث سمعة الرجل المتسلط عن أبيه. بيد أنه رجل يتحلى بالشجاعة، رجل مسيحى متديِّن يحمل همَّ أحلام. لقد أدرك أن أمورها لا تسير على ما يرام.

لطالما عاش مؤمنا بالمعجزة، وموقنًا أن الصلاة هى السبيل إلى تحقيق المعجزة. فأبونا سمعان يقنع "المعلمين" المتعنتين. لِمَ لا يغير وضع أحلام؟ فعكف أبونان على الصوم والصلاة.

رغب فى الاستماع إلى حديث راهب الزبَّالين. يقول عنه: "راجل صالح، وكلمته مجدِّسة". يعرف أن سمعة أبونا سمعان تتجاوز حدود المدن والقرى. فيتوافد الناس إلى مغارته أفواجًا من شتى أنحاء العاصمة، والبلاد، والعالم بحثا عن المعجزة. يتوافدون فى كل يوم خميس؛ لأن الجمعة عطلة.

لقد جعل أبونا سمعان من مغارته فى أعلى الجبل مقصدًا للحج.

لم يبحث أبونان ليعرف من موَّل هذا المكان العالى. قال قسيس الزبَّالين: "ربنا بيدفع السلف"، وكان أبونان يعرف ذلك.

أبونان أيضًا تمنى حدوث معجزة.

فى يوم عيد الميلاد، اصطحبه أحدهم إلى المغارة؛ فهى على بُعد مائتى متر. لقد تحمل الألم.

نحت الفنانون على الصخور رسومات المعجزات، وقد استغل أبونا سمعان كل الأماكن التى شهدت المعجزات ليجعل منها أماكن جديدة للعبادة. فكنيسة القديس مرقس بنيت على منحدر ما، وكنيسة القديس بولس فى مغارة تم اكتشافها بفضل انهيار صخرة من الصخور. لقد صوروا هنا قصة سمعان الخرّاز الذى فقأ عينه بنفسه؛ لأنه اشتهى امرأة. ذاك الرجل الصالح الذى اختارته العذراء، وأخبرت عنه الراهب. لقد اختارته ليحقق المعجزة، وها هو قد نفذ حرفيًّا تعاليم الإنجيل. لم يشجع الفيلم تلك المبالغة فى تنفيذ التعاليم بحذافيرها، وتم بيع شريط الفيديو بعشرات الآلاف من النسخ، ليعبر البحار والمحيطات، بينما تحولت كل مغارة صغيرة فى الجبل إلى كنيسة.

انبهر أبونان بالمكان. فالمعجزة حدثت بالقرب من هذه المصطبة التى يقضى عليها آخر أيام عمره. لقد وعده بخيت بأن يشترى فيديو، ويصور له مشاهد المعجزة. دخل أبونان المغارة. إنه يصلى مع الأعمى والمشلول القادمين من بعيد للمناولة، ولطلب الشفاء. فما من مستحيل طالما آمن المرء بالمعجزة. لربما يصادف أستراليين. سيثلج صدر أبونان إذا قالوا له إن الأستراليين فى هذا المكان. إنه يتخيل أن سكان تلك البلاد البعيدة هم بلديات – كأنهم قادمون من البدارى– فى ذلك اليوم لم يأتِ أجانب، لكن جاء مرضى قادمون من شتى أنحاء الأرض بحثًا عن المعجزة.

هو أيضًا مريض. يدعو لنفسه، ولأبنائه، ولنادية. إنه يدعو لأحلام.

فى ممر النساء، تعلو أصوات اللاتى يبكين حدادًا على حياتهن أملاً فى الحياة، إنهن يطلبن الكلمة التى تداوى، ينادين يسوع بصوت عالٍ، إحداهن تطلب منه شفاء ابنتها المريضة، والأخرى شفاء زوجها الضرير طريح الفراش. بجانب ممر الرجال، يلمح أبونان طفلة صغيرة ذات عينين واسعتين تملؤهما نظرة الطفولة، وبجانبها سيدة برجوازية، تشبه الفتاة الصغيرة الجميلة أحلام فى صغرها، ويجترّ ذكرياته. لا يزال يذكر أبونان تلك الأيام التى لم يكن فيها دائمًا ما يكفى لكل أبنائه، وكان على كل منهم بدوره أن يقتصد فى الطعام؛ فالفتاة المتزوجة كانت توفر فى الطعام.

لم يشعر أبونان بأنه مذنب، لم يقم إلا بما عليه عندما زوَّج ابنته. أنَّى له الشعور بالذنب؟ إنه يفكر؛ فهو مقتنع بما فعل، ويقول ملء السمع: "كل حاجة بإيد ربنا".

عند انتهاء القدَّاس، نظر إلى السيدة الغنية وهى ترحل، وتعطى يدها للطفلة التى تشبه أحلام فيما مضى. لا شك أنها ستزورها فى عشتها.

هل مد يد عون الغنى إلى الفقير معجزة؟

هل استجيبت دعوة أبونان؟ لربما اعتقد ذلك. فقد استسلمت أحلام لرغبة زوجها.

تتمنى أن ترزق بصبى، رُزقت بفتاة شقراء – كسنابل القمح – سمَّتها كريستين.

لم يشعر الزرَّابون إلا بالكاد بالزلزال الذى هزَّ مدينة القاهرة، ومآذنها القديمة، وكنيستها الجميلة المعلقة التى شُيِّدت فوق برجين من حصن بابليون الرومانى. لم يشعروا سوى بهزة. ولحقت بالمبانى التى أنشأتها الأخت إيمانويل بعض الأضرار، لكن عزبة النخل والمقطم كانتا الأكثر تضررًا، وإن كان الضرر ضئيلاً؛ فهو لا يقارن بالشروخ التى حدثت فى المدينة الفاطمية ومصر القديمة؛ حيث تحتضر المبانى الغارقة فى مياه المجارى، وتتآكل قممهما الشامخة بفعل التلوث. الأعمال المعمارية العظيمة المسيحية والإسلامية فى سلة واحدة، جنى عليها الإهمال وحب المال.

فى الجبل الذى يشهد على المعجزة التى وقعت فى عهد الفاطميين العظام، وبعد عام من حدوث الزلزال، انهار جزء من صخرة فى المنطقة التى تُحرق فيها زبالة الزبالة. حدث ذلك فى الرابع عشر من شهر ديسمبر فى عام 1993، وسبَّب هزة لبضع دقائق انهارت فى إثرها منازل على سكانها. لقى أربعون شخصًا مصرعهم، نصفهم دون سن الخامسة عشر عامًا.

من المسئول عما حدث؟

الخلافات الدائمة حول جمع القمامة؟ خدمات الحى السيئة؟

أمام أبواب المنازل، وعلى ضفاف المدينة، تتراكم زبالة الزبالة. ينبغى التخلص منها.

لكن إلى أى الحدود يذهب الزبَّالون لإيجاد مقالب للزبالة؟ فقد تم إغلاق أقربها إلى الجبل؛ بغية استغلالها للبناء العقارى. ويوجد المقلب التالى على بعد ثلاثة وثلاثين كيلومترًا، فى القطَّامية، على الطريق المؤدية إلى المعادى، تلك الضاحية السكنية الراقية، حتى الإسماعيلية. يكلف الأمر هؤلاء الزرَّابين البسطاء السولار، حتى إن لم يدفعوا إلا على سبيل المشاركة الرمزية.

غدا الوحش المسمى بالقاهرة يكبر ويكبر، ويدفع بعيدًا الوحوش الصغيرة الخارجة منه، تلك المقالب التى تحيط بها كأهرامات قبيحة مهداة إلى النسور.

.

كتبت آن مارى كامبو فى رسالة لها عن العون الذى حصلت عليه:

"لقد شمر الجميع عن سواعدهم للعمل مع جمعية التنمية والبيئة. وجعل مجلس الإدارة والمتطوعات يعملون لمساعدة هؤلاء السكان المتضررين والمصابين بصدمة كبيرة. ودأب عشرون شخصًا من

الوحدة الصحية على العمل ليلاً ونهارًا مع مجموعة من الشباب من أبناء الزرَّابين. وعمل فريق الطوارئ لأسابيع طويلة على علاج المرضى ومواساتهم، والعمل على راحتهم، كما قاموا بتوزيع الملابس والطعام والأدوية...".

ماذا حدث بعد ذلك أيتها الأخت آن مارى؟

بعدها، خيَّم الأسى عند رؤية تلك الفتحة الكبيرة فى الجبل الذى يأوى مقلب الزبالة. بعدها ساد الخوف من حدوث هزة أعنف من السابقة. لم يتبق من المنزل الكائن على سفح الجبل - الذى كان يأوى عدة عائلات - سوى مجموعة حجارة، وأطلال الجدران، ورجل طاعن فى السن نجا من المأساة؛ لأنه أمضى ليلة حدوث الكارثة عند أخيه، وفى الصباح، لم يجد فى انتظاره سوى جثث ذويه، ومجموعة الحجارة هذه، جعل يهيم فى الحى وحيدًا. ظل هائمًا على وجهه حتى آخر يوم من عمره فى المنطقة المحظورة، حيث يخيم الأسى الصامت.

فى الشوارع الوعرة يذكِّر صوت النيران وادى جهنم. لقد تمت إعادة النظر فى نظام النظافة: تتراكم القاذورات، أطنان من القاذورات بمحاذاة الحيطان، تنتشر فى الطرقات، يتم حرقها أمام المنازل، فينبعث من المواد البلاستيكية دخان فاسد. وحيث لا يتم حرق الزبالة، يُسمع طنين الذباب المذعور، وصوت الفئران الجوعى. ولا يدرِى المرء ما الأشياء التى يسير عليها.

قُدِّم طلب إلى المسئول عن الحى لوضع نظام للنظافة. لا تكفى أربع شاحنات ولا بلدوزران لرفع القاذورات، كما أن الإجراءات تتم ببطء؛ مما يصيب الناس بالإحباط. فانتشرت أمراض الحساسية وآلام الرأس، والالتهابات الرئوية، والتهابات العيون، والجيوب الأنفية. سمير، يا له من مسكين!

وعندما تحرك الجبل بعد ذلك، انقطعت مواسير المياه، واختلطت المياه العذبة بالمياه المالحة، وسبحت الزرايب الموجودة أسفل الجبل فى بحيرات شائكة.

دق علماء الجيولوجيا ناقوس الخطر إثر تفتت الصخرة الجيرية؛ فتم إخلاء أحد الشوارع، وتمت محاصرة المنازل التى تهتز. إنهم يبحثون عن المسئول. خطأ من؟ أهو خطأ من لا يزالون ينتفعون بهذه المحجرة الممنوعة منذ ثمانية عشر عامًا؟ أهو خطأ الزرَّابين الذين يحرقون زبالة الزبالة خلف أطلال هذه الصخرة الجيرية القحلة؟ أم هو خطأ الهزة الأرضية التى دمرت مواسير المجارى؟ هل يعلم الزرَّابون أن المياه تؤذى الجير؟

اعترى الجيولوجيون القلق.

لا تزال أحلام تقبع فى منزلها شأنها شأن الفأرة فى المصيدة، وبجانبها زوجها الذى يعانى الربو. إنه يختنق ويخنقها فى آنٍ واحد.

إنه يسعل ويتناول الكورتيزون. لا يريد أحد أن يرحل عن المكان. بيد أن أحلام وسمير لا يساورهما الشعور نفسه؛ فمن تكون جذوره ضاربة فى الجبل يمكث فيه. لا يعيش الجذر فى صخرة قحلة. رغم ذلك فهو يعيش، ووضعوا أصابعهم فى آذانهم؛ كى لا يسمعوا طيور الشؤم. الجبل قريب من السماء؛ فالجبل يشرف على المدينة، ومساجدها، وكنائسها، وشرفاتها. من صخرة الدير، وبالقرب من مغارة أبونا سمعان، يقارنون أنفسهم بقلعة صلاح الدين الشامخة التي تصوب إلى الأعلى المئذنتين ذات الطراز التركى.

ماذا عساهم أن يفعلوا فى ضجيج الأحياء أسفل الجبل أو فى الصحراء مترامية الأطراف؟

كوّن أبونان ومجدّس عائلاتهما فى المقطم، شأنهم شأن الأشجار التى تلقى بجذورها بعيدًا. لقد نقلا قريتيهما إلى المدينة: قرية البدارى وقرية دير تاسا، ثم زاد عددهم، وأصبحت هناك قبيلتان، وستشكل أحلام وسمير بدورهما قبيلتهما؛ فلم يتوقفا عن الإنجاب بعد الطفلة الثانية، بل وربما يرزقان بالعديد من البنات على أمل أن يُرزقا بالولد، ذاك الوريث، وريث ماذا؟ لا ندري.

يجلس أبونان على الدكة، كأنه يريد الالتصاق ببطن الجبل.

قيل له إن أطلال الجبل الذى دمرته الرياح والزبالة المحروقة خلف الزرايب، يشبه هرمًا مقلوبًا قاعدته غير ثابتة.

قال أبونان: "كل حاجة بإرادة ربنا".

ويصلى مجدِّس لينبت القمح فى هذا المكان الذى ابتسم له فيه الحظ.

لا يزال أبونا سمعان يبنى الكنائس والعمارات، كما أنه حوَّل هذه الصخرة القحلة إلى حدائق معلقة؛ فهو يقول: "العُمر بإيد ربنا. المستقبل بإيده. الجيولوجيين دول مش عارفين حاجة". فاستمرت الحياة على هذا المنوال، وكأن شيئًا لم يكن.

على الرغم من ذلك، فهناك ألف سؤال، وألف مشروع، وألف رأى يتضارب. ففى هذا الشهر من ديسمبر لعام 1993م، وبعد أكثر من عام على حدوث الزلزال العنيف الذى هزّ البلاد كلها، بدت الهجرة الجديدة هاجسًا يؤرق أهل الجبل كما لم يحدث من قبل. قامت الحكومة بمنحهم لمدة عام أراضى مجانًا، بعيدًا، فى الصحراء، فى طرة أو القطامية. تساءل الجميع حول إمكانية إنشاء زرايب حديثة فى هذه الأماكن الجديدة أو توفير ثمنها.

هل تمنى المسئولون أن يترك الزرّابون أكل عيشهم الذى يجنونه من الزرايب، نظرًا لزيادة صناعات التدوير يومًا بعد يوم؟

يود أبونا سمعان أن يرفع الجبل. إنه يريد أن يرفع الجبل مرة أخرى.

يُقال إن دعاء أبونا سمعان يحيى الموتى، وقد جمع المال اللازم ليقدم يد العون للمحتاجين؛ فالمعجزات التى تجرى على يديه تستقطب التبرعات. فالجميع يكنُّ له الاحترام، وينتظر حدوث المعجزة على

يديه؛ حيث يمر أبونا سمعان تفوح رائحة البخور والخبز. فمن يدخن السيجارة يسرع بإطفائها. ويروى ثوبه الأسود حكايات النهضة. إنه أسود كالأرض السوداء كما كانت تُدعى مصر قديمًا.

ظهر الإرهاب فى السنة التى حدث فيها الزلزال. لا تدرى أحلام أى المصيبتين بدأت فى الجبل: الزلزال أم الإرهاب.

فى المقطم، لا تفصل الذاكرة بين المأساتين؛ ففى هذا العام الذى انهار فيه جزء من الجبل أو قبل ذلك حين زلزلت الأرض، جاء أول الوافدين من تلك المنطقة الجبلية التى يختبئ فيها المطاريد الهاربون من حكم المؤبد. لم يكن لأى إستراتيجى أن يتوقع قدوم هذا البلاء، وها هى ذى هدى الفتاة البكر لعائلة تتكون من خمسة أطفال، أبناء أم وأب أعياهما المرض، تفر هاربة مع عائلتها إلى مكان أكثر أمنًا إلى المقطم.

ترددت أنباء تثير القلق؛ فقد ظهر أمراء جماعات يهددون بالقتل ويطلبون فدية تقدر بحوالى ثلاثة وثلاثين ألف جنيه، ويقتلون من يقاومونهم، ويقطعون رأسًا فى قرية، ثم يعلقونها فى قرية أخرى على عمود من الخشب، ويرهبون السكان المسيحيين والمسلمين على حد سواء. لقد غدت منطقة أسيوط بين شقى الرحى.

جاءت هدى بأنباء من أسيوط ترجع إلى الزمن الذى لم تكن قد وُلدت بعد فيه: الثورة، رحيل العائلات الكبيرة، جامعة أسيوط الجديدة، سلطة جديدة جاءت لتفرض سيطرتها، وتحل محل الإقطاعيين الذين يرفضهم الناس؛ لأن السياسة شأنها شأن الطبيعة تبغض الفراغ. فضلاً عن البلية الجديدة: هؤلاء الشباب المتخرجون الذين اعتقدوا أن مجانية التعليم ستكفل لهم مستقبلاً أفضل، لكنهم وجدوا البطالة فى انتظارهم، ثم سنحت لهم فرص للعمل فى العراق والكويت. لقد أرسلهم العراقيون لخوض الحرب فى إيران، ورجعت جثثهم إلى البلاد فى توابيت وضعت عليها الأختام بإحكام، ثم تلتها حرب أخرى نشبت بين العراق والكويت رجع منها الشباب أحياءً، لكنهم مجرّدون من كل شىء حتى من الأمل، ثم ما لبث أن أربكهم السراب: يراودهم حلم تكوين مجتمع جديد يقوم على المبادئ الإسلامية الأصيلة والرغبة فى تدمير المجتمع الذى لا يترك مكاناً لشبابه. ألم يكن النبى محمد ـــ عليه الصلاة والسلام – أشد أفراد عائلته فقرًا؟ لن يخسر هؤلاء الشباب شيئًا، بل سيربحون كل شيء بمقاومتهم للحكومة المركزية. لقد طاردت الحكومة هذا الشباب الساخط الذى غدا إرهابيًا؛ فيقتل، ويبحث عن مخبأ له فى مراعى قصب السكر، تلك المراعى الغنية، الخصبة كخصوبة أمهات هذا البلد، تلك المراعى التى تنبت قصبًا كثيرًا فيغدو كدرع للحماية، تلك المراعى المليئة بقصب السكر أكثر من العشش المليئة بالأطفال. وأصدرت قوات الأمن أوامرها بمسح المراعى؛ مما أدى إلى اتحاد

هؤلاء الشباب الساخطين والمطاريد. إنهم يعيشون فى الكهوف، لا تصل الشرطة إليهم، وينعمون بحماية أسرهم.

ألفت منطقة البدارى وقوع حوادث القتل والمصادمات مع الشرطة. يتكرر ذلك فى أسيوط أكثر من أى محافظة أخرى.

كانت تبلغ هدى حينها سبعة عشر عامًا، حاصلة على شهادة جامعية، وبدون عمل. لم تعتمد على أهلها فى البدارى. ليس أبونان فى عداد الناس الأكثر فقرًا. بيد أنه ليس باستطاعته مد يد العون لها؛ فاعتمدت على عمها، إدوارد بهنان. إنه عضو فى مجلس الإدارة فى منشية ناصر. وعلى عكس أبونان، يُعد من أغنياء عالم الزرَّابين. ومما يثير دهشة الجميع أن بهنان لا يأتى من دير تاسا إنما من قرية مجاورة – الدريك – ورغم ذلك فقد بزغ نجمه، لكنه يلعب فى البورصة. وتتمنى هدى أن يكون بوسعه مساعدتها، وأن يفى باحتياجات أهلها. بيد أن عمها بخيل بدرجة غناه، ولا يريد السماع عن اللاجئين.

هل أحلام هى من لفتت انتباه هؤلاء السيدات إلى وضع قريبتها اليائس؟ لقد كانت يائسة بالفعل. فأبوهدى صرف كل ما لديه لشراء أرض صغيرة بنى عليها اللاجئون الجدد سقفًا من الصفيح البالى. ووضعوا الأثاث الذى أحضروه معهم من الصعيد: خزانة ملابس،

سريران؛ سرير للأهل، سرير آخر للأطفال السبعة، وحاجز بسيط ليفصل بينهم. يبقى الجوع. على هدى أن تجد عملاً. أراد عمها أن يدفع لها راتبًا شهريًا قدره خمسون جنيهًا، نظير عملها فى أحد محاله التجارية. لن يزيد على الخمسين جنيهًا. لكن لا تكفى خمسون جنيهًا لإطعام أسرة تتكون من أطفال ومُقعدين، ستذهب للعمل أيضًا فى تدوير الورق لتربح ثلاثين جنيهًا فى الشهر. بإمكانها أن تقوم أيضًا بأعمال التطريز، لكن لا توجد كهرباء فى عشتها مساءً؛ لذلك ستشتغل بالإبرة من التاسعة مساءً إلى منتصف الليل فى بيت الجارة. على هدى أن تعول أسرة بأكملها.

هى أيضًا ستتغذى مع أحلام بالمعجزات. فى المغارة التى اكتُشفت بمحض المصادفة، والتى تحولت إلى مُصلى كنيسة مهداة إلى القديس بولس، وضع أنطون حبيب مسرحًا ليعرض شريط فيديو يقص حكاية المعجزة. عنوان المعجزة: أسطورة القديس سمعان فى زمن أبرام بن زرعا الأسقف، ثم بابا المسيحيين تحت حكم المعز لدين الله الفاطمى.

إنه يوم عزاء الأربعين زرابًا الذين لقوا حتفهم إثر انجراف الصخرة. إنهم أربعون شخصًا، وإنه اليوم الأربعين لموتهم. يُقام "الأربعين" لأربعين شخصًا. تُضاف المأساة إلى المأساة. هناك ممران: أحدهما ممر السيدات، أسود بلون ملابسهن السوداء، والآخر ممر

الرجال رمادى اللون بلون جلابيبهم. تبدو عليهم النظافة، وتبدو على وجوههم علامات الوجوم. وتختلط صرخات الأطفال باللعب والبكاء، كانبثاق الحياة فى قلب الموت، كإعلان النهضة. يقيم الأنبا باسانتى القدّاس. إنه أسقف. لقد تغير الزمان منذ الوقت الذى كان يأتى فيه الخادم مرة فى الشهر ليقص على الأطفال حكايات يسوع. لقد تحوّل الخادم إلى قسيس وكبر شعبه كما تنبأ فرمان السماء. ويساعده أيضًا أبناء الزرّابين الثلاثة الذى كانوا خادمين، وتم تكريسهم قسيسين.

ذُكرت أسماء الأربعين شخصًا المحبوبين الذين صعدوا إلى السماء. قال القسيس: "صعدوا من الأرض إلى السماء". بالتأكيد ليس فى الأعلى زلزالا، ماذا هناك فى الأعلى؟

يركز خيال الزرّابين على مكان الدير، تلك المغارة، مغارة العذراء المقدسة، التى يخرج منها صدى المعجزة، فى قلب الصحراء التى تحولت إلى حدائق. لقد كبر الكاوتشوك منذ سنتين، والنخيل أيضًا. لقد زرع أبونا سمعان أشجارًا من شأنها أن تطرد الذباب والناموس: شجر التين والخروع والصبّار. فى أعلى الجبل، خلق أبونا سمعان جنة.

كـــان عليهم فيما سبق عبور حواجز جهنم للبحث عـــن قسيس أو طبيب. وكانت تُشبه هذه المغارات فى الماضى مغارات البدارى التى تؤوى الهاربين من العدالة.

فى الوقت الذى وصل فيه الأنبا باسانتى سُمع دوى طلقات نارية تأتى من جهة مكان المكبس، بيد أن جو الحزن كان كبيرًا لدرجة أن الناس لم تلتفت إلى ذلك. وعند الخروج من القدَّاس، انفرجت الألسنة وتعددت التعليقات، وانتشرت الأخبار انتشارًا واسعًا: عند زاوية الوحدة العسكرية، كانوا يطاردون طالبًا من طلاب الأزهر.

توجد الكنيسة وسط الزرايب، ويتم تشييد مبنى جديد على الميدان الذى يحيط بها، بجانب المستشفى والمدرسة التى أُسسها أبونا سمعان. يوجد الاستقبال فى الطابق العلوى للمبنى حيث يُدعى الأنبا باسانتى للإفطار بعد الصيام، ويتبعه الأعيان والمخلصون ممن يخدمون الكنيسة. يسير "المعلمين" معهم فى موكب تشريفة. لا تُدعى أحلام لحضور مثل هذه المناسبات. بيد أنها تستمع إلى كل ما يدور من صالون أبيها، ولا يفوت أبونان أى خبر. فى الوقت الحالى، ليس هناك سوى الحزن.

الغذاء لذيذ لدى أبونا سمعان. عدس، ومحشى كرنب، وطعمية، وزيتون، وخبز طازج، وشراب الليمون الغازى. الموت والطعام متلازمان فى مصر بطبيعة الحال. إنهم لا يشربون النبيذ عند أبونا سمعان، بل يشربون الشاى والقهوة.

ويكشف النقاش النقاب عن أسرار البلد؛ فالقسيس يعرف ظروف الإرهاب كلها حتى أجر الجريمة يعرفه، على الأقل خمسة آلاف دولار وعلى الأكثر خمسة عشر ألف دولار، يعادل الدولار ثلاثة جنيهات مصرية. ويُعد هذا المبلغ بمثابة أمان للشاب المسكين الذى غدت الدنيا فى عينيه بمثابة متاهة لا مخرج لها. لم يعد ذلك سرًّا؛ فالأرقام المذكورة فى المناقشات التى تدور فى الجبل مغرية، لكنها تُدفع للمسلمين الذين يقبلون خدمة الأجانب. لا يعرف أحد عن أى أجنبى يتحدثون، لكن نشر الذعر ليس إلا بفعل الأجنبى.

تكاد آراء أحلام تقترب من التعصب الدينى؛ فبالنسبة إليها لا شك أن الإرهاب من فعل المسلمين. فرأيها هذا ينبع منطقيًا من تعصبها الذى تغذيه الشائعات المنتشرة فى البلاد بين الطبقات الدينية المختلفة، من الدرجات الدنيا إلى الدرجات العليا، والتى تتسلل بطرائق ملتوية إلى عقلية عامة الناس. أبوها مسيحى. فى مكان آخر هو مسلم؛ لأن الشيخ الشعراوى يملأ الصحف. تفوق أهمية الشيخ الشعراوى أهمية الحكومة كلها وهى مجتمعة. حتى بعد مماته يظل الشعراوى المتحدث المفضل لدى بابا المسيحيين الأقباط. لقد سافر إلى إنجلترا ليقوم على علاجه أطباء مسيحيون. تم نقل الدم إليه من رجل مسيحى. قال للصحافة لدى عودته: "حلال" هل سبق وأن قال إن دم المسيحى حرام؟ ذهب الأنبا باسانتى لعيادته وليهنئه على تحسن حالته الصحية. العلاقات طيبة بين المسيحيين المتشددين والمسلمين المتطرفين. إلا أن الأنبا باسانتى كان يتورع من أن يقول "الله" – كما درج الناس قول ذلك عند الاستماع لحديث الشيخ الشعراوى – يتورع من لفظها، وكأن لفظ الجلالة الله لا يجوز أن يُنطق إلا مصحوبًا بكلمة أكبر، إنها بمثابة نطق الشهادة، وليس للقسيس أن يقولها. إنه يكتفى بالتصفيق. لكن العلاقات الدبلوماسية طيبة جدًا بين رجال الدين المختلفين، فيبحثون فى القرآن عن الآيات التى تتماشى والمحبة التى نادت بها المسيحية. يتقاسم كل من القسيس، والبابا، والشيخ السلطة، ذات المصدر الإلهى. ويبدو التطرف فى حالة جيدة؛ فهو يهز البلاد أكثر من الإرهاب.

انطلقت النكات المدوِّية فى مضيفة أبونا سمعان، وسُمعت الضحكات وهى تتعالى، وضحك أبونا سمعان أيضًا. إنهم يضحكون على الإرهاب والتطرف – كما لو كان موضوعًا للترويح عن النفس.

بيد أن أبونا سمعان لم ينس الحزن؛ فقد تزامن دوى الرصاص الذى أصمّ جبل الزرَّابين، مع "أربعين" الأربعين شخصًا. ليس خطاب الأنبا باسانتى كخطاب أبونا سمعان. فقسيس الزرَّابين يحمل همّ شعبه، شعب استقبل لاجئى الحرب، جميعهم مسلمون، لا يزالون يستقبلون اللاجئين الجدد، القادمين من الأراضى التى يعيث فيها الإرهاب ويتزايد، كل منهم ينجب ذرية فى عدد فريق كرة القدم.

المعجزة، يريد حدوث المعجزة لهذا الشعب الذى يكبر ويطالب بمعجزة أكبر وأكبر.

يتفشى البؤس، ويتزايد عدد الأفواه التى يجب إطعامها، وترتفع جبال من القَاذورات. لقد احتفلوا بسبوع الحفيد رقم مئة وخمسة لمجدِّس. إنه ولد لا يحمل اسمه؛ لأنه حفيد إحدى بناته التى لا تعد ولا تحصى، حفيد ابنته الثانية راحة. لكن شحاتة، الذكر الوحيد، لديه سلالة كبيرة.

من تجرأ وعدّ أطفاله؟ ألم يعودوا يخافون من الحسد؟

تكبر جذور مجدِّس وتتأصل فى الجبل الصخرى.

بينما يتوافد اللاجئون من البدارى، ضاحية أسيوط، مسقط رأس أبونان.

ليست هدى سوى قطرة أول السيل. المعجزة، معجزة صغيرة حدثت لهدى بعد مرور سنتين. فعندما لاحظت مارى الفقر المدقع الذى أطبق على هذه العائلة من اللاجئين، عملت على توفير كل الجوانب الصحية، والاقتصادية، والنفسية، والاجتماعية، كما قامت ببناء منزل لها. ووجدت مارى لدى البرجوازيين المال والمعرفة، كما تعهد عم هدى كتابةً بدفع الضرائب التى تجبيها الحكومة.

وعلى مارى أن تشرح للفريق الذى يدير عملية تدوير الورق لماذا فضّلت المعجزة هدى التى تعيش تحت خط الفقر المدقع؛ فهى بحاجة إلى "نواية لتسند الزير".

يجب البحث عن تعريف للفقر المدقع.

لكن هدى لم تعد تنتمى إلى عالم الفقر المدقع؛ فهى تتميز عن أحلام – التى تغار منها؛ فقد درست المحاسبة فى أسيوط، وانتبهت إلى ذلك فى يوم ما، ستزاول مهنة المحاسبة. بيد أن النظرات المليئة بشعور الظلم حاصرتها – كما حاصرت أحلام من ذى قبل. لِمَ هدى؟ لِمَ أحلام؟ فهناك الملايين على شاكلة هدى، والملايين على شاكلة أحلام بحاجة إلى معونة، إلى "نواية" صغيرة جدًّا لكى لا يقع الزير؛ فينكسر.

الظلم بالنسبة إلى أحلام يتمثل فى الشهادة التى تتميز بها هدى عنها، وليس باستطاعة أحلام أن تحصل على مثلها، إنها شهادة توضع مجعدة فى جيب طلاب أسيوط، وأحيانًا تقوم مقام السلم للارتقاء، وغالبًا ما تؤدى إلى طريق مسدودة.

هل تمنت أحلام أن ترتقى السلم إلى مستوى الشهادة؟ "فالنواية" التى استفادت منها لن تجعلها ترقى إلا قليلاً، بينما هدى تقفز إلى أعلى؛ لأن بحوزتها شهادة. كانت تمنى نفسها بأن تتميز مثل هدى، ثم يصيبها اليأس من عدم القدرة على تحقيق ذلك، ثم ما تلبث أن تكتشف أسرار الكتابة؛ لكى لا تغدو كالحيوان.

جاء من البدارى لاجئون آخرون، لكل منهم قصته مع الإرهاب.

أبونا سمعان بحاجة إلى معجزة كما لم يكن بحاجة إلى ذلك من قبل. فعليه أن يرفع جبلاً من الفقر، المسيحى والمسلم على حد سواء. كما أن كبار المسئولين مشغولون بالسلطة. أما هو فسيركب سيارته السوزوكى، ويجوب الجبل؛ كى يرتفع. لم ينس أن وادى هينوم فى القدس – فى زمن يسوع – كان مقلبًا للقمامة، وبجانبه معبد للإله الفينيقى مولوخ، حيث يشوون له الأطفال الرضَّع أحياءً. لا يريد أن يذبح الأطفال فى مذبح الرخاء، بل يحدوه الأمل فى أن يحوِّل وادى هينوم إلى مكان آدمى، ومعجزة القديس سمعان تمد له يد العون.

كتبت آن مارى كامبو بمناسبة أعياد الميلاد تقول:

"لقد تأجّل الأمل فى تحسين جودة البيئة لتوفير حياة أفضل. ورغم كل ذلك، فنحن نمضى قدُمًا، فى طريق مليئة بالعراقيل، فلا يجب أن ننسى أننا فى مصر. إنها مسيرة شعب الله فى صحراء مصر مع موسى.

إن هذه الجالية القبطية من الزرّابين تعيش فى رقة حال. بيد أن إيمانها كبير، واعتمادها على الرب أكبر. يُعد ذلك - بالنسبة إلى الغربيين الناعمين برغد العيش- ضربًا من الانسياق إلى القدر، لكنه فى الحقيقة موقف يتحلى بالأمل الذى يحدونا بشدة جميعًا.

ويجب أن يدفعنا ذلك إلى استقبال عيد الميلاد بقلوب مفعمة بهذا الأمل المجنون، وأن ندعو الرب أن ينجينا برحمته.

عيد ميلاد مجيد، ولتكن سنة 1995م، سنة مجيدة...

آن مارى كامبو".

فعلى الأمل أن يكون جنونيًا. لقد كان جنونيًا، ويلزم القليل منه للإبقاء عليه: مخيمات لقضاء الإجازة الصيفية على شاطئ البحر فى بور فؤاد. هذه المرة قضوا خمسة أيام بعيدًا عن الخنازير والزبالة، فى جو من النظافة ومكان به خضرة، مكان تبدو فيه مساحة الماء لامتناهية. سافر فى البداية النساء والأطفال السعداء بالرحيل عن الآباء، ثم تلاهم الشباب. وهكذا توالت المجموعات.

تُعد آن مارى كامبو حلقة قوية فى السلسلة التى بدأتها الأخت إيمانويل. لقد عملت جاهدة على الحفاظ على الأمل.

بيد أنه أحيانًا ما كان يصيبها اليأس.

فى هذه الأيام التى أصيب فيها الجميع باليأس بات مجتمع الزرَّابين محط أنظار العالم، وكان عزت نعيم يمثلهم.

اختارت الحكومة المقطم ليشترك فى الإعداد لمؤتمر السكان والتنمية المزمع انعقاده فى سبتمبر 1994م.

سبق لعزت أن سافر إلى خارج حدود البلاد. كان لديه ما لا تملكه أحلام: جواز سفر، وشهادة جامعية، وبكالوريوس تجارة. فضلاً عن ذلك فهو يقرأ ويكتب الإنجليزية؛ فأرسلوه مع الوفد المصرى إلى مقر الأمم المتحدة؛ لحضور الجلسة التحضيرية للمؤتمر. فذهب إلى نيويورك بعد حادثة الزلزال بستة أشهر فى الفترة ما بين 5 و20 أبريل عام 1993م.

كونه من دير تاسا يُعَدّ أمرًا مهمًا بالنسبة إلى أبونان وأبنائه؛ فلم يلتفت إليهم المتطوعون الذين بحثوا عن عناصر مسئولة من مجتمع الزرَّابين. وقد بدا النجاح مؤكدًا مع عزت نعيم.

كان لعزت تأثير طيب فى نيويورك؛ فهو شاب وسيم، مهندم، يرتدى الزى الغربى، ويمثل مشروعًا حديثًا للتنمية منذ قيام الأخت إيمانويل بحملتها الطنانة، ومنذ أن أصبحت كلمتا البيئة وعلم الحفاظ على البيئة تستدعيان التدخل الفورى.

فى نيويورك، وفى داخل المنظمات غير الحكومية، أعربوا له عن مدى احتياجهم لشعبه للحفاظ على جودة الحياة. إنه لبعيد ذاك الوقت الذى كان يشعر فيه بالخجل من كونه ابن زبَّال.

وعلى الرغم من أنه يبدو ظاهريًا واثقا – تلك الثقة التى كانت تزعج أحلام – فذكرى الخجل كانت تظهر من حين لآخر لتربكه، شأنها شأن الشياطين الصغيرة التى تظهر فجأة؛ فأبوه "عدمان" من الخمر. وهو يبرح زوجته ضربًا. الخوف الذى يعتريه لا يزال يسكن بداخله ويدمره. إنه كبير الآن، وفى نيويورك، تلك المدينة التى لم يرها أبوه كما رآها هو فى شاشات السينما. بيد أن خوف الطفولة يتملكه؛ فيربكه. لقد غدا رجلاً يدافع عن أبيه، ويمنحه الشعور بالفخر لكونه زرَّابًا. بيد أن ذكرى الخجل تلاحقه، وذكرى تهديد القوة القاهرة لا يزال بداخله.

لقد شهد فى طفولته حدوث زلزال فى كل ليلة.

لكنه استطاع أن يبدو بمظهر الرجل الواثق من نفسه الذى يرتقى سلم الوظيفة.

لم يكن فى هذا السفر سعيدًا كسفره الأول؛ فقد ذهب إلى نيويورك ليضطلع بمهمة.

لدى عودته عليه أن يعد برنامجًا للزرَّابين، وجدول أعمال الجمعية العمومية لجمعيته، ويقدم الحلول التى اقترحها الزرَّابون لحل مشاكل العاصمة، وتحرير تقرير رسمى عن الستة آلاف طن من القاذورات التى تتجمع فى كل يوم.

عليه أن يثبت قدرته ويكون محل ثقة. لقد تم تعيينه بصفته مساعدًا للمدير.

اجتمعت الجمعية فى كاريتاس.

ولهذه المناسبة، ارتدى عزت ما ارتداه عند ذهابه إلى نيويورك، دون رباط العنق، ودون سترة. ارتدى بنطالاً رمادى اللون، وقميصًا مفتوح الياقة. كان يمثل الأناقة الطبيعية للفلاح المصرى الأصيل.

قام بعمل حصيلة للعام الماضى، حصيلة الحرب ضد البؤس. وليس هناك سوى إنجازات.

عزت على دراية بالمخاطر التى تحف بشعبه. الغازات الضارة المنبعثة من حرق البلاستيك، والمعلبات المحفوظة، وأوراق الألومنيوم. المخلفات الكيميائية والنووية التى تبغى البلاد الغنية إلقاءها فى البلاد الفقيرة. إنه يعلم أن الحكومة تجرِّم فعلة كهذه؛ فهو يثق بالحكومة.

عزت متوقد الذهن، وبارع فى الحديث. إن وشوشة سيدات المجتمع تقول إن عزت ابن زبَّال، ذاك الرجل الوسيم الأنيق ابن زبَّال؟ هذا لا يهدِّئ من روعة الغضب الكامن.

لقد بات الوضع سيئًا جدًا لدرجة تستدعى استنفار كل الطبقات الاجتماعية. الزرَّابون، وممثلو الحى، وممثلو شركة خاصة: مصر سرفيس.

علا صوت من قرية شنوان[1]، تلك القرية الضائعة على خارطة مصر، ليقول إن المشكلة لا تخص فقط القاهرة الكبرى إنما المدن وقرى الريف أيضًا. وتتفاقم المشكلة مع ظهور البرك التى تتجمع فيها المياه المتعفنة. وقد أراد أهالى القرية معالجة الشر بما هو أشرّ منه، بتحويل هذه البرك إلى مقالب للقمامة. وسريعًا ما أدركوا أن الوادى معنى بهذه المشكلة، والمياه التى تسير تحت الأرض تغمر قبو المنازل العربية القديمة، وتُغرق أعمدة قلعة بابليون، التى تقف عليها الكنيسة المعلقة فى مصر القديمة. هل سيلقون بالقمامة فى قبو الآثار، وفى قاع البرك؟

(1) قرية فى محافظة المنوفية. (المترجمة).

إن ما يروق لخيال أهل المدينة الذين ضاقوا ذرعًا بزيادة كل ما ينبض بالروح، ويسير ثم يغدو زبالة نافعة أو غير نافعة، هو تحويل مقالب القمامة إلى حدائق فى المدن، وإلى أراضٍ صالحة للزراعة فى القرى.

تبقى المشكلة الوشيكة المؤرقة التى تتفاقم كل يوم، وتتجاوز الحدود: كيف يمكن التخلص من ستة ملايين طن من القاذورات بل سبعة ملايين طن. فالمقالب البدائية تبتعد أكثر فأكثر عن العاصمة التى تزحف – كزحف العمالقة – وليس بوسع الشركات التى تدَّعى أنها حديثة أن تتحكم فى المقالب. إن تحويل كل ذلك إلى رماد سيكلف مبالغ باهظة. ويتفاوضون مع الحكومة بشأن "المدفن الصحى".

إن عزت فى حاجة إلى كل هذه الضجة لكتم الذكريات المريرة لطفولته التعيسة. ذكريات تصرخ بداخله، ويصعب تحملها أكثر من تحمل دوى انهيار الحجارة. الأرض تصرخ، أرض طفولته، ضجيج الدموع، والضربات، والصرخات. الأرض تدوى من جراء الزلزال الذى هزّ القاهرة. وتدوى الصخرة التى انهالت على سكانها. لم يعد يدرى أى دوى منهما كان أقوى.

أصبح أبًا مرتين: لطفلة تُدعى مارى تبلغ من العمر ست سنوات ونصف السنة، وولد يُدعى موسى يبلغ عامين. تقول له مارى: "عز الطلب". فلأجلهما سيغير العالم. آه لو أمكنه ذلك!

لعله طفق يحلم حلمًا يقظًا خلال الاجتماع الذى ضم كل أعداء الزبالة: فقد قرر بعض الناس العقلاء طوال فترة حياتهم الكف عن إنتاج الزبالة؛ لكى يقوا أنفسهم، ويقوه هو أيضًا شر المشكلات المعقدة. أشرفت المشادة التى كانت بين كل أنصار الزبالة على الانتهاء، فى الحلم.

ما مورد رزق أبيه إذن؟

وحلّ عليه هم أثقل كاهله العليل منذُ الطفولة.

جاء المجتمع الدولي قاطبة إلى القاهرة للحكم على أداء هذا النمط من التنمية الذى يهتم به البنك الدولى، وذلك ضمن فاعليات المؤتمر. توافد الناس أفواجًا من كل أطراف المعمورة إلى العاصمة العظيمة فى شهر سبتمبر فى عام 1994م. سُمعت اللغتان الروسية، والصينية أكثر من الفرنسية والإنجليزية.

وذلك رغم أن الإرهابيين يتربصون الدوائر بكل المشاركين فى المؤتمر، ويهددونهم بالقتل.

كان للجمعيتين اللتين أهّلتا زرّابى المقطم مكان للعرض فى صالات المنتدى المقام فى الوقت نفسه. ويمثل الجمعيتين أبناء الزرّابين المراهقون أو المتزوجون حاملين بطاقات إحدى الجمعيتين. وتباهت المتطوعات من الطبقة الراقية بإعلاء الشعارات نفسها. فقد اشتركت الطبقات الاجتماعية كلها فى الدفاع عن البيئة. لقد تضافرت الطبقات الاجتماعية كلها بغية تغيير صورة الزبّال القذرة فى أنظار العالم أجمع، ذاك الزبّال الذى درج الناس على تصنيفه – منذ أيام الرابطة – بين اللصوص والمحتالين.

لم تكن أحلام ضمن الوفد، إنما انتظرت فى مقر الجمعية ريثما يحضر أولاد الذوات، لتعرض لهم مشاريع التنمية الجديدة لكن كان لديها تليفزيون، مما أدى إلى شعورها هي وزوجها بالتواطؤ معًا؛ فهما يشاهدان المشاهد نفسها، والإعلانات ذاتها. تتعالى ضحكاتهما معًا؛ ويعربان عن شعورهما بالاستياء معًا. كان ذلك بمثابة حياة مشتركة ناجحة. فبوسع أحلام أن تتابع بث الحفلة مباشرة على شاشة

التليفزيون: "التنمية"، "تعليم النساء"، "تحديد النسل"، "ترياق عالمى"، "ترياق الفقر"، "هذا هو الحل وليس الإرهاب"، "فجر جديد ينبثق فى القاهرة". وتنبرى تقلد سيدة مصر الأولى، يملأها الإعجاب.

أما وفد الجمعيتين فى المنتدى فليس مسموحًا لهم بالدخول إلى القاعة الكبيرة للجمعية، وليس لديهم تليفزيون فلا يرون شيئًا مما يحدث. كانوا يقتلون الوقت.

بينما يتابع الماعز والحمير والخنازير وزرَّابوهم فى المقطم – كأحلام وزوجها – الأحداث. إنهم سعداء بهذا الجهاز: "التلفزيون".

لقد حضر أعضاء الوفد هذا المشهد بأنفسهم مباشرة: أبونا سمعان يلقى كلمة. فقد طلب رجل أمريكى طويل القامة من أبونا سمعان أن يدلى بدلوه بشأن المؤتمر. يُدعى تيموثى إيورث. يُقال إنه يملك مال الأرض كلها. يردد الجميع فيما بينهم خلسة أن أبونا سمعان يُخرج الشياطين. نعم، أبونا سمعان – رئيس جمعية الزبَّالين – يبدو أنه عرف شيطان تيموثى الذى طرح عليه سؤالاً بمثابة فخ: هل يوافق أبونا سمعان على تحديد النسل؟ كان بوده أن يخاطب هذا الشيطان، لكن تيم لم يعد يدرى بماذا يجيبه. ليس أمامه سوى الإجابة بنعم أو لا. لقد قال نعم، دون أن يفكر فى رأى رؤسائه. لقد ترددت أصداء "نعم" فى أرجاء المعمورة. لقد ابتلع الميكروفون كلمة "نعم" ليرددها. إنها نعم، لفظها قسيس أرثوذكسى نعته جميع المسيحيين بالمنشق عن

المسيحية، لأنه قال نعم بينما عارض البابا الكاثوليكى وشيخ الأزهر مشروع المؤتمر قائلين للناس: "تكاثروا، لا تتعاشروا إلا لتتكاثروا"، كما اتهم كل من امتثل لهذا القول المؤتمر بشروعه فى التشجيع على الانحراف الجنسى. هل قرأتم النص؟ إنهم يبغون تشجيع المعاشرة خارج الزواج، السماح بزواج الشواذ جنسيًّا، قتل أنفس المسلمين والمسيحيين فى الأرحام. هل قرأتم هذه المفردات الإنجليزية: *safe sex* الجنس الآمن، *sexual health* الصحة الجنسية؟ كيف يمكن الحديث عن الجنس خارج نطاق الزواج؟ كيف يمكن ترجمة هذه النصوص إلى العربية بحيث لا يُخدش الحياء؟

هبت رياح الخماسين على هذه الكلمات، وحوَّلتها إلى فضائح فعلية. وأبونا سمعان يقول نعم، يقول إنه موافق، يقول إنه يجب تحديد النسل. كيف؟ سيتم الاتفاق على ذلك. هل صادفتم مقدِّسًا؟ يُدعى مقدِّس لأنه ذهب للحج فى القدس. لقد احتفل مجدِّس وزوجته بحفيدهم رقم مائة وخمسة. عزت أحد أحفادهم المائة وخمسة، سينهار الجبل لشدة ثقل وزن سكانه.

لقد تمتع "مهمشو المقطم" بحظ جيد؛ إذ ترك نجوم الفن المؤتمر ليرتقوا الجبل الذى يحيط بالقاهرة، حيث يُقام حدث حقق نجاحًا كبيرًا: توالى السفراء، ورؤساء الدول، والصحفيون، وقنوات التليفزيون. ثم وصل الفضوليون. ينبغى تأمين حافلات صغيرة وكبيرة. لقد سبق

وصول الزرَّابين دوى سرينة عربات الأمن لإفساح الطريق، والتحذير من وقوع العملية الإرهابية الموعودة. وصلوا إلى قلعة صلاح الدين، وسلكوا الطرقات الوعرة فى منشية ناصر، ومروا بالعزبة ثم صعدوا فى طريق متعرجة حتى وصلوا إلى الزرايب. فُتح مصراعا الباب الحديد لاستقبالهم.

ستُرسل الصور بالقمر الصناعى لتُبث فى أرجاء أنحاء العالم. ستغزو الأرض.

يصعد معهم عزت الطريق. عزت، حفيد زبَّال، وحفيد حفيد فلاح. تبدو عليه أمارات السعادة والبهجة. الجو حار جدًّا لارتداء السترة ورباطة العنق. لا يعتقد أن عليه ارتداءهما ليجبر الجميع على احترامه؛ فأدبه الطبيعى يكفيه. هاهو يروى قصة النجاح الذى يجسده، إنه يجيد التحدث بالإنجليزية، ويروى ويروى. وتضيف سيدة المجلس التأسيسى شروحًا إلى شروحه. إنها تتحدث بسرعة، بسرعة مئة فى الساعة. الطريق المعدة للشخصيات المهمة مدروسة جيدًا. فى البداية، حديقة مدرسة الأطفال التى تطل على مصنع السماد، وعلى مبانى جمعية البيئة، وعلى القاهرة كلها. فى الفصول الدراسية، يُرِى التلاميذ الصغار والكبار دفاترهم، ورسوماتهم، وألقوا نشيد التحية، ويثنى عليهم المدرس عادل. لكم يشع هؤلاء الزبَّالون الصغار جمالاً ! إنهم يرتدون أحلى الثياب، ويشعرون بالفخر من أغنيتهم كما لو أنهم قاموا بتأليفها بأنفسهم لإهدائها إلى الزائرين. ثم بعد ذلك تأتى زيارة منزل الإدارة حيث أعد عزت صور العرض ليروى حكاية النجاح الباهر. إنه يعلِّق

عليها بالإنجليزية، ويجيب عن الأسئلة بلباقة وبسرعة، لأن الشخصيات المهمة دائمًا على عجلة من أمرها إما لتستقل الطائرة أو لتلحق بالقطار أو للقاء شخصية أخرى مهمة فى انتظارها. لكن يجب تكريس بعض الوقت لزيارة المنزل الآخر الذى تم بناؤه قريبًا وتم طلاؤه بالجير. فى كل يوم، يتم فرش السجادة الحمراء التى نسجها أولاد الزرّابين. فى الطابق الأعلى، تنتظر العاملات الشابات سماع عبارات الإعجاب والاستحسان عن منتجاتهن: قفازات المطبخ والمرايل والمخدات وأغطية السرير. أجمل تلك الأعمال معلّق على الحائط. ويوجد كتاب على المنضدة يروى حكاية منتجات أميش. تعطى مارى الكلمة لأبلة ليلى، ذاك الاسم الذى يرمز إلى الليل وروحانيته، إلى جنون الحب، إلى الشّعر الذى حفلت به صحارى الجزيرة العربية. لقد علّمت ليلى هذه البنات فن إبداع هذه الروائع. ثم تنزل مارى إلى الطابق السفلى حيث تعطى الكلمة لإيزيس – اسمها على اسم الإلاهة إيزيس أم الإله حورس كما كانت القديسة مريم هى أيضًا أم المسيح – يالها من أسماء جميلة تُعد أساس هذا النجاح الكبير! هناك أيضًا يسرية التى تيسّر لهم الأمور كما يوحى اسمها. إنها تعمل محاسبة، وتقوم بصرف المال فى آنٍ واحد. إنها توجد فى كل مكان، بيد أنها لا تنبس ببنت شفة. إنها تستمع إلى إيزيس التى علّمت هؤلاء الفتيات إعادة تدوير الورق لعمل بطاقات المعايدة الجميلة ذات السعر الزهيد.

أحلام؟ لا شك أنها هنا، تنتظر ريثما يحين دورها. لا تزال تتذكر دورًا أدّته جيدًا: الحديث عن المشروع الرئيسى الذى تعتزم

مارى الشروع فيه، ولن يدخل حيز التنفيذ إلا عشية الألفية الثالثة والمعنى بتعليم سكان القاهرة فصل الفضلات بوضعها فى سلتين للقمامة بلونين مختلفين. إحداهما للفضلات العضوية التى ستذهب غذاءً للحيوانات ولصنع السماد، والأخرى للمخلفات الصلبة التى ستذهب لإعادة التصنيع. يحلو لأحلام أن تدير مشروعًا كهذا، إذا ما سمحوا لها بذلك. لكن المشروع سيكون من نصيب أولاد رفعت منير؛ لأن العائلة تملك عقد خط حى المنيل ودير الملاك.وبما أن الظروف المعيشية لسكان حى دير الملاك هى أكثر تواضعًا من سكان المنيل؛ فاختيارهما للقيام بمغامرة كبيرة كهذه يبشر بالنجاح.

تروى أحلام، و مارى تترجم، وتضيف بعض التعليقات، وأحلام أيضًا. إنها تتحدث عن مزايا هذا المشروع الكبير الخاص بفرز الزبالة من مصدرها. لن يفقد الناس أشياء ثمينة مثلما كان يحدث من قبل. إنها تذكر الصليب والسلسلة الذهبية التى وجدها أبونان يومًا ما فى الزبالة. وطفقت أحلام تدعو إلى احترام الحيوانات. إنها تتحدث ببراعة عن الفرز المحكم والمخاطر التى يتم تجنُّب وقوعها. ولتدافع عن القضية تتحدث عن حب الحمير والماعز والدجاج والخنازير، تتحدث أحلام كما لو أن الدكتور أيمن لقَّنها لغة الحيوانات.

يتسارع الزبَّالون بثيابهم الجديدة إلى المبنى الجديد لحضور مشهد دومًا ما يتكرر: مشاهدة نجم سينمائى، ورئيس دولة، ووزير.

فسريعًا ما اعتادوا مشاهدتهم وهم يمرون أمامهم. فى بعض الأحيان توجد صباح. وتضفى الأهمية التى يحظى بها عزت إلى صباح شعورا بالفخر لا تبديه لمن حولها.، وتوجد ماما سعاد أحياناً عندما تتمكن من استراق بعض الثوانى من زياراتها المترويّة.

ارتدى أهل الجبل الحلل الجديدة، وطلبت إيزيس منتجًا خاصًا من أمريكا لاستخراج القمل من شعر الفتيات اللائى تشرف على تعليمهن.

بيد أن الحياة تستمر فى الشارع الذى يحيط بالمبنى دون تجميل. فالأطفال يرتدون الثياب الرثّة ووجوهم ملطخة بالقذارة، ويجرون مع الحمار والعربات الكارو المحملة بقذارة الزرايب ليلقوا بها فى أرض مصنع السماد. إنهم يسارعون بالتوقف شأنهم فى ذلك شأن المارة الفضوليين لرؤية مشهد ما، وعند رؤية كاميرات التصوير، يتجمعون لالتقاط صور لهم. تؤثر فى الغرباء تلك السخرية التى تطل من أعينهم، ونعومة تقاطيع سحنتهم حتى إنه ليتساءل ما إذا سبق له أن رأى هذه الوجوه على جدران مقابر مدينة طيبة. إنها وجوه أبدية، كالشمس الأبدية.

لا تلتقط الكاميرات من مشاهد البؤس إلا ما تود فقط إظهاره، ولمعرفة المزيد، هناك الكتب، كتابا مارى وليلى. هناك أيضًا التقرير السنوى. وستكتب إيزيس يومًا ما كتابها وتملأه بصور من المشاهد اليومية يرسمها فنان الزرّابين، الشاب بخيت. وتم لصق الرسومات

المطرَّزة على قطع من القماش المربَّع، وعلى البطاقات المصنوعة من الورق الذى تم إعادة تدويره: السيدة التى تسحب الماء من البئر، والصيَّاد الذى يلقى بشباكه ليصطاد هبة من السماء، وبائع الفول مع "قدرة" الفول، وصبى الفرن على دراجته التى تتأرجح يمينًا ويسارًا حاملاً على رأسه صاج الخبز الطازج.

فى بعض الأحيان، بل نادرًا ما يوجد أبونا سمعان وسط جماعة المتفرجين. بيد أنه موجود فى المغارة التى تجذب الجماهير العريضة من الناس أو فى المبنى الجديد أمام كنيسة القديس. هو أيضًا لديه ما يرويه. إنه مصدر تلك القصة. لقد تم تكريسه قمصًا، وهى أكبر درجة يصل إليها قسيس قبطى أرثوذكسى. أما الدرجات الأعلى فتكون من نصيب الرهبان، وهو ليس راهبًا. فضلاً عن ذلك، يجب أن يكون متزوجًا ليكرس قسيسًا.

لا ينتهى سيل الزائرين الذين جاءوا ليروا بأعينهم ما تمثله تلك التنمية الهائلة التى يحققها الزرَّابون الزبّالون. تصاحب المتطوعين مجموعات من الزوار. إنهم يعرفون الطريق، وليسوا بحاجة إلى التعريف بأنفسهم أو تفويض عزت أو بخيت للاهتمام بشأن هؤلاء الزوَّار. ليسوا بحاجة إلى سرينة الأمن. فالسيارة الجيب تصل إلى القمم، سيارات الأجرة وعربات الملاكى تقف عند منشية ناصر ليكمل أصحابها الطريق سيرًا على الأقدام. الجو بديع، ويرحِّب سكان الجبل

بالزوّار، فيستقبلونهم بحفاوة. إنهم يثبتون أنه في هذه البقعة من الأرض يوجد الناس في بلد يكون فيه إكرام الضيف واجبًا مقدّسًا، ولا مكان فيه لأى إرهابي. يُعد الأجنبي بمثابة الهدهد الذى ينبئ بحلول الربيع. فالحق مع الأخت إيمانويل إذ تحدثت عن الزبّالين بوصفهم إخوتها. يشرح المرشد: إنهم في الحقيقة زرّابون، من يقيمون في الأعلى، ولرؤيتهم، يجب الذهاب إلى الزرايب. إن الطرقات في الأسفل ليست أقل ترحابًا. هناك بعض اللاجئين المسلمين ممن فضلوا عدم العيش وسط الزاربين، كي يظل الباب إلى السماء مفتوحًا لهم، يتسلق الزائرون المنحدر الصغير المليء بالغبار، وطوال الطريق ينادونهم: نحات الحجارة الذى ينشر الجرانيت والرخام الأبيض المجذّع القادم من إيطاليا، ورخام أسوان الأخضر، ورخام قنا، والحدّاد، والإسكافى، والعامل الذى يضع في آلته خليطًا من الحصى والرمال والأسمنت لتشكيل طوب المنازل ويسألهم ما إذا كانوا يودون الاستفسار عن شيء ما، ويقص عليهم حكاية حياة النيل وموته، وحياة البلد وموته فيقول : "تعرفى يا مدام، تعرف يا أستاذ إن ما عدش عندنا طوب الطمى والقش؟ ما عدش فيه طمى، والقش وحده ما يعملش الطوب". إذا ما كان بحوزة الزائر آلة تصوير، فما يطلبه هو التقاط الصور، كما يظن أنه بصدد تكوين صداقات جديدة.

ليست الألمانيات اللائى يرافقن المندوبات كسائر الأجنبيات؛ إنهن يرتقين الجبل بالسيارة الجيب، ويذهبن للقاء راهبات الأم تيريزا. نادرًا ما يصل أحد إلى هذه المنطقة من وادى جهنم. تعمل راهبات

الأخت تيريزا فى صمت. فتهتم بالعجائز، وبالمعاقين ذهنيًا، وبالأطفال الذين يعانون الإهمال وسوء التغذية. ينتظر الصغار بدء حياتهم، والعجائز ساعة موتهم وهن يروين قصة حياتهن.

يلتقط سكان الجبل أيضًا الصور التذكارية؛ لتظل فى أرشيف الجمعية لصانعى التاريخ، ويُكتب تعليق طريف للصورة التذكارية.

قالت بعض الشخصيات المرموقة إن زيارتهم للزبّالين فى المقطم راقتهم أكثر من اكتشاف الأهرامات، حتى أن هرم سقارة لم يثلج صدورهم كتلك الفرحة التى شعروا بها.

ليس مسموحًا للتليفزيون الأمريكى أن يُظهر عكس ما تقوله القصة العظيمة: الصخرة التى انهارت على سكانها، وقنوات مياه الصرف التى خلطت مياه المجارى بالمياه الصالحة للشرب، والقاذورات التى تُحرَق من جديد فى الشوارع، لأنه لم يعد بالإمكان استخدام مقلب المقطم، وأبونان الجالس على دكته الأشبه بالسرير البالى، وطفولة عزت، وطفلة صغيرة تُجرى لها عملية الختان...

هذا هو ما صورته قناة السى إن إن: فتاة صغيرة تُجرى لها عملية الختان. تكاثرت محطات التليفزيون فى الجبل. لقد أدانوا تدخل العين الأجنبية فى الحياة الخاصة، لأنها جرَّدتها من حيائها، وتعرضت لشرفها. قال البعض: إنه كان علينا الانتظار ريثما تحدث فضيحة كهذه للتخلص أخيرًا من العادات القديمة، وقال البعض الآخر: إن الغرب

يريد أن يخجلنا ولن نستسلم له. قال الآباء: "إحنا بناخد بالنا على شرف بناتنا. البت لازم تطّاهر عشان تحمى شرفها"، بينما قرر البعض الآخر أن يقوما ببترهن ظاهريًا لحماية شرف أهل الزوج. أما من اقتنعوا بما قالته لهم !الأخت آن مارى كامبو، وأم ليلى، وماما سعاد زوجة قسيس الزبّالين، فتساءلوا ما إذا أخطأوا فى حق بناتهم.

فى هذه الظروف العصيبة أجرت قناة البى بى سى حوارًا مع عزت وزوجته صباح.

لم يكن الزواج دومًا سعيدًا؛ فقد رتب الأهل الزواج ليتم بين الأقارب من الجهتين، وكانت هناك قطعة من القماش المهلهل تقوم مقام الحائط ليفصل بين سقفى العشة. كان هناك القليل من الحب، والقليل من الحماسة، والقليل من الصداقة. سارا معًا فى الحياة؛ لأنه لم يكن بوسعهما فعل شىء آخر. حلما لأجل أطفالهما بشموس جديدة، ولضمان هذه الشموس، كان عليهما أن يتحدا. بيد أنهما لم يتحدا بل كان ذلك ظاهريًّا؛ فعزت الذى جرحه أبوه منذ طفولته كان ينتقل من نجاح إلى نجاح، ويلازمه شعور بأنه لن يعيش سعيدًا أبدًا، فيمزج الكلمات بعضها ببعض لتضمد الجرح الذى أدمى قلبه. أما صباح التى أُغتصبت أنوثتها، وشهدت ذل أبيها لها، لم يكن بوسعها إلا أن تكنّ لزوجها مشاعر أخوية.

يعرف عزت التحدث بالإنجليزية، وتبذل صباح مجهودًا لتتحدث هى الأخرى بالإنجليزية. بيد أنها عادت بخفًى حنين. فعزت بوسعه أن يجيب عن أسئلة الصحفيين فلا يخشى أن نفهمه صباح. سألوه ما إذا كان الختان يحول دون الاستمتاع، فأجاب دون مواربة: "أنا فهمت دلوجيت صباح باردة كدة ليه".

فى العام نفسه حصلت أحلام على شهادة محو الأمية.

لقد انطلقت نحو المستقبل، يملأها الشعور بالفخر إثر حصولها على الشهادة، لديها خطط كثيرة، وباتت مفعمة بالأحلام، ترغب فى الالتحاق بالصف الأول الإعدادى.

بيد أن زوجها الذى غدا يعمل فى النجارة قال لها :"استنينى شوية. آنى ح اتعلم وآخد شهادة محو الأمية بتاعتى ونخش سوا أولى إعدادى".

انتظرت. حاول فى تلك الأثناء أن يتعلم القراءة والكتابة حتى حصل على الشهادة التى طالما تمنَّاها لكن ليس بتقدير أحلام المشرِّف نفسه. هل جُرح شعوره لأنه أقل منها؟ هل ثبطت همته لضرورة بذل مجهود أكبر من ذلك؟ من يدرِى ما يختبئ فى طيات سحنة الفقر الأليمة؟ لقد تخلى عن الأمر بل إنه منع أحلام من أن تلتحق بالمرحلة الإعدادية.

قال لها: "إن كملتى تعليمك حتبجى أحسن منى. آنى مش عايزك تبجى أحسن منى".

لقد وجدت أحلام نفسها وقد كُبتت طموحاتها. لقد اختنقت. لم يعارض زوجها استكمال دراستهما؟

طرحت السؤال على نفسها، لكنها لم تساورها الشكوك فى الإجابة؛ فهى تعرف تمام المعرفة أن زوجها يغار مما حققته من إنجازات. إنه يغار منها كغيرتها من عزت.

ولكى لا تزيد من حدة عقدة النقص لدى زوجها، فقد كبحت جماح طموحها فى الالتحاق بالمدرسة الإعدادية. إنها دومًا على استعداد للتفاوض بغية إنقاذ منزل الزوجية من الانهيار.

لقد وضعت طموحها فى بناتها. إذن يجب الحصول على المال. وقد أدى ذلك إلى نشوب خلافات جديدة بينهما. ويتصرف سمير – كما درج الزرَّابون على التصرف حين يتعلق الأمر بصرف المال– فيظهر تبرمه. لقد عمل بالنجارة، ولم يصل إلى يد أحلام ما يكسبه من صنعته. ماذا يفعل إذن بهذا المال؟ ألا يدَّعى أنه يعمل من الصباح حتى المساء؟

لقد أقضّ هذا السؤال مضجعها. فإذا ما طرحته عليه أبرحها ضربًا. فأحلام تقاومه كما لو أنها تقاوم حملاً جديدًا. فى ثورتها

العارمة، كانت تقذفه بهذه الكلمات: "هو آنى يعنى اللى لازم أكون بشنب؟"

نصحوها بأن تكون أكثر دعة وألاَّ تُعنِّف زوجها. بيد أن أحلام كانت صعبة المراس. فهى امرأة عانت الضرب المبرح. فهى لـيست بامرأة خـاضعة. إنها تحقِّق، وتطـالب، وتفـرض، وتثير زوجها. لا يهم. هكذا أفضل.

وأمامها معركة أخرى تخوضها فى الفراش حيث تتعنت مع زوجها، كانت المتطوعات يقلن إنه يجب تعلم كيفية التحكم فى النسل، ويقول ذلك أيضًا أبونا سمعان، وزوجته سعاد، والأخت آن مارى كامبو. ولو كانت معهم الأخت إيمانويل، لقالت الشىء نفسه .

كانت لقريبتها أم رزق بِقالة فى منزل جدها مجدِّس. بقالة أفضل حالاً من دكان أبونان. وكانت أم رزق تشترى الملابس وتبيعها بغية زيادة أرباحها. إنها دلالة. وهى مهنة تمارسها من تعرف العناوين الجيدة، لشراء البضاعة وبيعها من منزل إلى آخر.

لقد اشتغلت أحلام بالتجارة مع قريبتها. فهي ترافق أم رزق فى جولاتها الاستكشافية مرتين فى الأسبوع، عندما تسمح لهما المدرسة بالخروج. ترحل السيدتان عن الجبل وبحوزتهما كل المال الذى تملكانه

ومعهما طلبات الجيران. عند الوصول إلى أسفل الجبل، تواجهان السباق الجنونى للسيارات. فليس هناك أماكن لعبور المشاة. إنهما تعبران الطريق كدجاجتين تهربان من سكين الطبَّاخة. عليهما بالافتراق لمواجهة الخطر، فهناك من ثلاثة إلى أربعة صفوف للسيارات تشكل تهديدًا من كل جوانب الطريق. يغطى صوت آلات التنبيه صرخاتهما، صرخاتهما التى تريد أن تُنبئ بحدوث خطر وشيك، صرخات من المُحال أن تُسمع. تريدان إيقاف سيارة أجرة فى الجهة المقابلة من الطريق. عليهن إذن مجابهة الخطر الذى يهددهما كألف سكين بيد طبَّاخة تطاردهما، ولحسن الحظ فسيارات الأجرة ليست نادرة.

تذهبان إلى الغورية لشراء ملابس الأطفال والمنزل، وإلى العتبة لشراء البدل الرجالى أو الفساتين الأنيقة. وتفاصلان فى السعر، وتستغلان جاذبيتهما للحصول على أفضل الأسعار. وتشتريان إلى أن ينفد مالهما، وتضعان المشتريات فى حقيبة كبيرة تحملانها على رأسيهما، وتواجهان مرة أخرى المخاطر نفسها فى طريق العودة. لم تذهبا قط لزيارة الآثار القديمة فى القاهرة؛ فليس فى الجوار سوى المساجد، فضلاً عن أن أحلام وأم رزق لم تطأ قدميهما مسجدًا قط. رغم أن القلعة توجد فى الجهة المقابلة للشارع، وتنتصب على الهضبة فى الجهة المقابلة لدير أبونا سمعان. إن القلعة بمآذنها تلتهم منظر جبل المقطم. كيف يمكن تفسير عدم مراودتهما الرغبة فى استكشاف هذه الأماكن؟

عند عودتهما إلى الجَبل، تعرضان بضاعتهما لجنى الثروة، ثم تذهبان بعد أسبوع لمعاودة الشراء. تصرف كلتاهما أربعمائة جنيه فى الأسبوع. وإذا ما أخذنا قول أحلام على محمل الصدق، فإن ما تجنيه من ربح يصل إلى خمسة وعشرين جنيهًا. لكنها لن تفصح أبدًا عن المبلغ الذى تربحه؛ فهى تخشى الحسد.

يتكون زبائنها من سيدات لا يقدرن على مغادرة المنزل، لأن المتحكمين فى حياتهن لا يثقون بهن، وماذا عن زوج أحلام؟

تقول أحلام: "هو عارف إنى راجل" وما مدعاة مقارنتها بالرجل؟ ألا تفوق قيمة المرأة قيمة الرجل؟ تصدِّق ذلك، وتضحك.

فحقيقة الأمر أن زوجها يفضِّل أن تجلب له المال على أن يراها تدرس. إنه يتلصص عليها؛ فيضبطها ومعها ورقة أو قلم أو كتاب. إن وجود عاشق لأحلام لن يثير حفيظته بهذا الشكل.

إن فكرة كسب المال تعطيها الإحساس بأنها "راجل" وبأنها "بشنب". عند رجوعها من جولتها الاستكشافية مع أم رزق تشعر أنها حققت إنجازًا، أنها أضافت لبنة جديدة إلى صرح عالمها الخاص. إنها تعد مالها، وتفتح حساب توفير لجهاز بناتها. يا ويل أحلام إذا ما علم زوجها بأمرها! تقول عنه أحلام : "بيبجى متوحش لما بيضربنى". لكن هذا لا يؤثر فى شعورها بالتفوق عليه.

فبفضل عملها، أصبح لها هذا الشنب الذى تفخر به. يخيل إليها أنها تشعر بالشنب وهو ينمو، حتى يصل إلى شفتيها، حين تنظر من

شرفتها إلى منزل جارتها وتسلم على تلك الجارة الكسول المتزوجة من أحد "المعلمين"، التى تأخذ وقتها فى الاهتمام بجمالها، وتمد على حبل المنشر الملابس الداخلية ذات الذوق الرفيع وملابس الأطفال الأنيقة.

تحلم أحلام. سرعان ما تأخذ الأحلام أشكالها عندما تمتد الحياة أمام المرء. فلم يعد الأمر يتعلق بالدخول فى المرحلة الإعدادية؛ فأحلام تطلق العنان لتوهمها فتفكر فى الأرض التى يمتلكها حموها. فإذا ما أدركته المنية؛ فسيرثها زوجها، وستبنى عليها مبنى به محل راق أجمل من محل أم رزق، وتطليه بالقرميد، وتزينه بالزينة المبهرة اللامعة، وستبيع كل أنواع البضائع: ثلاجات، وبوتاجازات، وغسالات، وملابس جميلة، كل الأشياء الجميلة التى تراها على شاشات التليفزيون، وليس بوسعها أن تشتريها، لا فى العتبة ولا فى الغورية. أما بالنسبة للمسكن، فستكتفى بالطابق الثانى، وستربى على السطح الدجاج، والحمام، والديك الرومى، وفى الحظيرة، سيكون لها بقرة؛ لتشرب كل يوم الحليب الطازج. فوالد سمير غنى، ويملك ذهبًا ومالاً، ومصنعًا للبلاستيك، وعمارة تطل على ثلاثة شوارع، وبجانب هذه العمارة، أرض واسعة.

ستبنى أحلام أحلامها على هذه الأرض، وتغير ذكرى الجحيم لتصبح جنة المستقبل. لِمَ لا؟ فى يوم ما قالت لها إحدى السيدات اللاتى تناديهن بـ "طنت" أنه بإمكانها إذا ما اقترحت مشروعًا قابلاً للتنفيذ أن

تحصل على قرض، وبوسعها أن تضاعف أملاكها، وأن تغدو غنية كمؤسس البنك العربى الذى بدأ حياته ببيع الملح فى الصحراء؛ فقد كان يذهب بعيدًا إلى أبعد ما تصل إليه الجِمَال، وكلما ابتعدت المسافة، زاد سعر ملحه.

كل شىء ممكن. والمعجزة فى متناول اليد. بالنسبة إلى أهل المقطم، يكفى اجتياز حدود الزرَّابين للعثور على المعجزة.

تدعو كل واحدة من المتطوعات فى كل أسبوع قائدات الفرق الخمسة عشر وبرفقتهن اثنتين ممن يتلقين التدريب، وبذلك أُتيحت الفرصة لكل العاملات لاستقبالهن فى منازل محاطة بالورود.

السبب وراء هذه الدعوات هو تنظيم عملية استغلال خليتى النحل المعنيتين بإعادة تدوير الورق، وعمل المنتجات من قصاصات القماش. من الممكن الاعتماد على هؤلاء السيدات لتحسين جودة عمل هاتين الخليتين، واختيار الرسومات، واتخاذ مسئولية حل المشاكل اليومية، والطلبات المختلفة التى تتم عن طريق الفاكس والهاتف، وزيادة الأسواق الخارجية؛ ففى الزمالك، والمعادى، ومصر الجديدة يتم افتتاح متاجر يشترى منها الأغنياء منتجات الفقراء، وتنسق المتطوعات فيما بينهن للوجود فى مكان العمل. إحداهن توجد يوم الأربعاء فى صالة المبيعات، والأخرى يوم السبت. كانتا تعجان بالحيوية وتملؤهما الحماسة، والأمل فى أن تقوم هاتان الخليتان بإبعاد الخنازير والزبالة لتغمر الجبل...

كانت المرة الأولى التى دخلت فيها أحلام بيت مارى هى عند دعوتها للإفطار، ففى رمضان، حتى وإن لم يصمن، فالدعوة تكون على الإفطار وليس على العشاء. كما تقام موائد السحور. بيد أن هذه الموائد فى تلك الساعة من الفجر لا تناسب الفتيات المراهقات اللاتى يعسر عليهن استشعار سعادة الحرية.

حدث ذلك قبل مجىء الأجانب. وبعد عنادها الشديد. لم تعد تقف أمام الطست حيث يتم تحضير خلطة الورق. بل تذهب إلى الجمعية

للحصول على ربح إضافي. كانت ترضع طفلتها الثانية، كريستين. لا تزال ذكرى هذه الليلة محفورة في ذاكرتها، إنها تشتاق إلى هذه اللحظة التي سرعان ما مرت، تلك اللحظة التي يمتزج فيها الانبهار بالحسد.

في هذا اليوم، شعرت أحلام مرة أخرى بصدمة الجَمَال، يعادل هذا الشعور في قوته ما استشعرته أمام الأبعاد الشاسعة للبحر، كما زادت حدة غيرتها من عزت حتى غدا شعور الغيرة كالأبعاد الشاسعة للبحر. لقد سنحت لعزت الفرصة أكثر من مرة للتردد على هذه المنازل الجميلة. كانوا يدعونه مع كل فريق بصفته رئيس الخليتين. فينتقل من زيارة منزل جميل إلى زيارة منزل آخر جميل، حتى أنه رأى منازل أخرى في الخارج. تتمنى أحلام لو تعبر البحار، وتذهب إلى أمريكا مثل عزت أو إلى أستراليا، ذاك البلد الذي سكن أحلام والدها.

في يوم من الأيام، وبعد تفكير طويل وعميق، أنفقت أحلام كل مصروف المنزل لشراء كنبة وكرسيين، كي تُشبه شقتها بعض الشيء شقة ماري.

طار عقل سمير، وضرب زوجته عوضًا عن ضرب الأوراق المالية الكبيرة التي لم يتمكن منها فقد تجرأت وفرت دون إذن منه.

لقد هلكت الكنبة والكرسيان، ولم تجد أحلام حتى الآن وسيلة لإصلاحهم. ليست أسرتها الصغيرة من بين الأسر الأكثر فقرًا في عالم

الزرَّابين؛ فهي دلاَّلة وفضلاً عن ذلك تبغى الحصول على ربح إضافى من الجمعية. أما سمير فيفعل كل ما بوسعه ليأتى ببعض المال، بيد أنه ليس بوسعهما التفكير فى ترميم الصالون، وإدخال فتياته فى مدرسة تاسونى سارة. وتظن أحلام أن الأخت إيمانويل فتحت فى السابق روضة أطفال مخصوصة لها وإن كانت لم تستغل ذلك. لقد رغبت الأخت إيمانويل فى أن يحصل الناس الأكثر فقرًا على حظهم من التعليم. لقد كبرت روضة الأطفال حتى غدت مؤسسة خاصة لها مصاريف. على المرء أن يكون غنيًا، ابن "معلم" ليحظى برفاهية الالتحاق بهذه المدرسة. حلمت أحلام بهذه الرفاهية كما حلمت بصالون يُشبه صالون مارى، بيد أن هذا الحلم أقوى؛ فهو يحمل فى طياته كل مشاعر السخط، إذ إنها لم تتعدَ مستوى شهادة محو الأمية.

ما لبثت أن وجدت نفسها ذات يوم حبلى مرة أخرى... بنت ثالثة أطلقت عليها اسم إيزيس. لم تختر الاسم المقترن بالإلاهة إيزيس، بل بالسيدة إيزيس التى جعلت من مشروع إعادة تدوير الورق نجاحًا عالميًا.

هل كانت تعرف أحلام الإلاهة فقط؟ لقد سمَّت ابنتها الأولى على اسم مارى، لأنها انتشلتها من القاع الذى كانت تغوص فيه.

لقد أهدتها إحدى المتطوعات مصاريف الدراسة لمدة عامين لبنتيها الاثنتين فى مدرسة تاسونى سارة. لكن فيما بعد، اكتفت أحلام بالمدارس الحكومية الجبرتى والسادات حيث يذهب من ليس بوسعه أن يحظى برفاهية التعليم فى مؤسسة تاسونى سارة الخاصة، تلك الراهبة التى تُعد خليفة للأخت إيمانويل.

لا يمثل زرَّابو المقطم سوى إحدى الفئات السبع التى يتم إبعادها مـرارًا إلى الـحزام الخـارجى للقـاهرة الكبرى، ويتـم ترحيلها ومحاصرتها. بيد أنه لا يمكن أبدًا الوصول إليها كما لو أن الحدود كانت سرابًا. لم يعش أى من الزرَّابين حياته دون الهجرة من حين لآخر، فينزحون كما يرحل النخيل عن الصحراء، فلا يترك وراءه ظلا لأى شخص، ويزرعون جذورهم الرفيعة فى مصادر المياه الجوفية، من صحراء إلى صحراء. دومًا ما أبعدوا عن المدينة التـى لم تكف عن الإمساك بهم لطردهم إلى مكان أبعد، وأبعد وأبعد.

عندما صدر قرار حكومى يمهل زبَّالى إمبابة بإخلاء المكان خلال أربعة أيام، ذهب بعضهم إلى المقطم، وذهب الآخرون إلى طرة، فى الجنوب الشرقى للقاهرة الكبرى، بالقرب من المكان الذى يتم فيه حبس السجناء السياسيين والمجرمين بكل أشكالهم. كانت فى ذلك الوقت صحراء فى الأفق البعيد لضاحية المعادى الراقية. لا يوجد كهرباء، ولا صرف للمجارى. لكن بعضهم حالفهم الحظ؛ إذ كان على مقربة منهم معهد للشرطة العسكرية ينعم بالماء الجارى.

تنبت غابات النخيل فى الصحراء أكثر مما تنبت فى الجبل القحل. فى طرة، زرع الزبَّالون جذورهم على أمل أن يجدوا مصدرًا للمياه كالنخيل.

مر عقدان من الزمن، وجاء العقد الثالث لينبئ بألفية جـديدة، ولم تتحرك الحكومة قيد أنملة لتوفير ظروف معيشية لهؤلاء النازحين. لقد قدَّم شباب المقطم مشروعًا في هذا الصدد. بيد أن الأوراق لم تبارح مكاتب محافظة القاهرة.

تمثل طرة المقطم منذ ربع قرن مضى. لم يكن هناك شىء آدمى سوى المدرسة ومستوصف الأخت إيمانويل وتاسونى سارة: جزيرة ضائعة فى محيط من البؤس.

هناك طريق دائرى ومترو أنفاق يربط الضاحية بالمدينة، بيد أن حى المعادى الراقى لا يمكن أن يسمح بوجود هذه الكمية المركزة من القذارة فى جواره. إن حى المعادى الأنيق بحاجة إلى التوسع. لقد اتجهت أنظارهم إلى أراضى طرة التى يقطنها السجناء بل أسوأ من ذلك يقطنها الزرَّابون.

لم يعش هؤلاء الشباب، ممن تابعَتهم أعين الاستحسان على شاشات التليفزيون، زمن البؤس المطبق.

لم يتذوقوا مذاق الهجرة. حتى عزت نعيم، أول أبناء الزرَّابين الذى تولى مناصب قيادية، يجهل الهيام الذى كان يُعد جزءًا من الماضى. وها هو ذا الهيام يلوح من جديد.

لم يعد أبناء زرَّابى المقطم بحاجة إلى معرفة ما فى قاع البحار، ليفهموا كيف يلتهم كبار السمك صغاره.

تزامن ذهابهم لاكتشاف جالية الزرَّابين التى رحلت عن إمبابة فى الوقت نفسه الذى رحل فيه آباؤهم وأجدادهم، ذاك الرحيل الراسخ فى ماضيهم، تزامن مع اكتشاف الأخت إيمانويل بؤس زبَّاليها. لقد التقوا "المعلم" إسرائيل الذى يشغِّل كل زرَّابى طرة وتتزايد ثروته كما تتزايد ثروة الواحية على حسابهم.

لقد تصرفوا بعنف، وطلبوا العون من عزت، ومن جمعية الحفاظ على البيئة، ومن الدكتور أيمن...

لم يتبق سوى ستة أعوام من الألفية الثانية فى الوقت الذى أنيط بمجلس الجمعية التى تم الاستنجاد بها مهمة تنمية المنطقة الفقيرة. وتم إنشاء لجنة فرعية منبثقة من المجلس معنية بطرة. لقد غدت يسرية وهى عضو فى البرلمان منذ وقت غير بعيد، رئيس اللجنة. وحلت محلَّها ليلى كامل لرئاسة الجمعية. أتت يسرية، التى تتميز بأفكارها الثرية ومصادرها المالية، أتت برياح جديدة.

أما الدكتور أيمن الملم جيدًا بلغة الحيوانات، فقد قدم خدماته ليسرية. فجمَّع مجموعة من الشباب من أولاد الزرَّابين لتعليمهم الإسعافات معًا، شرعوا فى إعداد دراسة عن ظروف المعيشة الصحية فى هذا المكان، فأحصوا عدد العائلات المائتين وإحدى وخمسين، ووصفوا

حالة السكن، والزرايب، ونظافة الشعر والملابس، ومصادر المياه، والنور، ومستوى التعليم أو الجهل، والمهن، وأماكن العمل، وعناوين المدارس، والمشاكل الصحية، وأسباب الوفاة، ووسائل المواصلات الخاصة بالرجال، والحيوانات، والزبالة، وصعوبات فرز الزبالة، وتنظيف الزرايب والشوارع.

لقد تمت التنمية ببطء في المقطم، واستفادت طرة من كل الخبرة المكتسبة خلال العقدين الأخيرين لتوفير نوعية حياة أفضل. في المقطم، نقل فلاحو دير تاسا القدامى الريف إلى المدينة. في طرة، ستكتب قصة جديدة على ورقة بيضاء.

لقد تدافعت الأحداث عندما هدد قرار حكومي جديد بهدم منطقة منازل الصفيح، وانتشرت الشائعة فى شوارع المقطم كسرعة انتشار الحريق. كانت تحمل معها الأسى الذى تحدثه الهزة الأرضية. بالنسبة إلى أهل طرة، الأمر يتعلق بضرورة منع هجرة جديدة.

لقد هرعت يسرية فزعة إلى رئيس البرلمان أثناء انعقاد اجتماع له. قالت له وقد أعياها الهم : " البلدوزرات بتهدد أولادى، البلدوزرات على أبوابهم. ح تدَمَّر كل حاجة".

لقد تحرك الرئيس، وحرر النواب قرارات أخرى لإيقاف البلدوزرات. بيد أنه كان يجب التصرف بسرعة تفوق إصدار القرارات. لقد همسوا إلى أذن يسرية باسم محامٍ بوسعه أن ينقذ الموقف مقابل مبلغ من المال. فهرعت إلى المصرف لتسحب كل رصيدها وقد أذهلتها الكارثة، ولتدفع أحد عشر ألف جنيه مقدم أتعاب المحامى.

تم رفع قضية ضد الحى بغية التصدى لأمر الهدم. وبما أن القضية تأخذ مجراها، فلا يمكن أن يدخل القرار الجمهورى حيِّز التنفيذ. يجب التصرف بشكل أسرع من القضية التى تأخذ مجراها.

قالت مارى ويسرية للمسئولين:" إنتو خلتوهم ييجوا هنا عشان تفضّوا أراضى إمبابة. عاوزين تبعدوهم لغاية فين؟ لغاية إمتى الهجرة الأبديـــة دى؟ إنتو عارفيـــن إن شغـــلانتهم مـــهمة وبرضـــه عاوزين تطردوهم؟".

ليس للحُجَّة المعنوية ثقل الحُجَّة المالية نفسه التى تغرى متعهدى البناء. يجب إيجاد حُجة أخرى. فأصدرت مارى عُرفًا: منعت هدم المنازل المطابقة لمعايير البناء. قالت مارى: "إن كنا عاوزين نمنع الحى من هدم البيوت، لازم تكون البيوت متينة".

لقد أدرك الزرَّابون ضرورة هذا الأمر المُلِح. من يملك المال منهم استثمره. والآخرون اقترضوا مالاً. أما بالنسبة إلى من يعيشون تحت خط الفقر، فقد بنت لهم يسرية على حساب البرجوازيين منزلاً لأسرة مسلمة ومنزلا لأسرة مسيحية على التوالى.

وجاب أطفال زرَّابى المقطم شوارع طرة فى مجموعات نظمها الدكتور أيمن. إن حماسة الدكتور أيمن كانت على طريقة فلقات العبيد، إنها فلقات تثير الضحك، وتستقطب متطوعين جددًا. عشرة ثم عشرون من الشباب المراهقين. وجاب الشوارع أطفال من الجبل درَّبتهم طبيبة نفسية متمرسة، وزاروا المنازل، وأسدوا النصائح المتعلقة بالنظافة وبالصحة للأمهات. تؤدى صباح – زوجة عزت – التى دربتها الأخت إيمانويل وآن مارى كامبو وأم ليلى دورها بصفتها رئيسة. فطفقت تشن حملة على التيتانوس والجهل والفقر المدقع، ثم ما لبثت مجموعة من الشباب أن قامت بزرع الأشجار. كما أن المشتلين الموجودين فى المقطم حول الزرايب زرعا النباتات والورود على كل النوافذ، وفى كل شوارع طرة.

انتشروا فى الشوارع، وساروا بمفردهم شأنهم فى ذلك شأن الباعة المتجولين الذين يبيعون الطماطم أو البصل. أما هم فيبيعون الحقن والصحة والأشجار.

لا يوجد فى طرة سوى عيادة صغيرة، ومدرسة تاسونى سارة والبيت الصغير الذى آوى الأخت إيمانويل. ثم ما لبث أن تحسن الوضع فى طرة، ولم تعد تحسد المقطم على حالها. لم تعد هناك حاجة للارتفاع أو للشد إلى أعلى للارتفاع أعلى من الجبال كما حدث فى زمن موسى، وذلك رغم استواء الصحراء. لكن شيدوا كنيسة ذات أجراس أبِيَّة ترتفع إلى أعلى، إلى الأعلى نحو السماء؛ لتعظيم الرب وتمجيده.

قالت يسرية: " لازم نبنى جامع؛ ده نص الناس هنا مسلمين".

احتفلوا بنجاحهم فى كل يوم خميس، ذلك اليوم الذى يذهب فيه المؤمنون للصلاة فى مغارة أبونا سمعان. ذبحوا الخنزير، وقطعوه إربًا، وشووه على عتبة الباب؛ كى لا تغمر رائحة الفحم المنزل، ومدوا على الكراسى المصفوفة جرائد قديمة وضعوا عليها حِزم البصل الأخضر، وأطباق السلطة المتنوعة من الطماطم، والخيار، والطحينة، وسلطة الباذنجان. يقوم الخبز مقام الملعقة، والسبرايت والكوكا كولا مقام الخمر. لقد أطلقت النشوة بالنجاح ضحكاتهم العالية.

البنات والأولاد مجتمعون، يحتفلون بالخنزير، ويأكلونه بشهية. يقصون الحكايات لإثارة الضحك، ويقولون الفوازير. إنهم يتباهون بأناقتهم. أما الفتيات اللاتى لم يعدن يرتدين – كأحلام – الجلابية الفلاحى، والمنديل المربوط على الجبهة، يهتممن بمظهرهن الغربى باستخدام الوسائل المتواضعة، فالأرجل والذراعان والرأس المكشوفة، معرضة للشمس، وللغيوم، ولرياح الخماسين، تلك الرياح القادمة من الصحراء والتى تغتصب – دون حياء – كل الأعضاء المكشوفة من جسم المرأة.

إنهم يعددون آمالهم، ويفكرون فى مشاريع للمستقبل.

لقد نجحت تجربة فرز الزبالة من مصدرها. كانوا يفخرون بذلك. لقد قل عمل الرجال إلى النصف منذ الوقت الذى أصبح فيه سيارات. فبوسع الأطفال أن يذهبوا إلى المدرسة، وأن تجد أمهاتهم عملاً جديدًا. إنهم سيضمنون نجاح نظام شبه ميكانيكى: فالعمال المرتدون القفازات سيضعون على البساط المتحرك الأغراض التى سيُعاد تدويرها، سيتم الاستفادة مرة أخرى من المواد العضوية لتغذية الخنازير، بيد أن هذه المرة سيكون الطعام نظيفًا؛ كى يكون اللحم المقدم فى الحفلات من أجود اللحوم.

لقد تحولت طرة، وقد رأوا هذا التغير فى طرة والمقطم، وكل حزام الزرايب المحيط بالقاهرة الكبرى.

قدمت الحكومة عرضا لطرة أفضل من العرض المقدم لزبالى المقطم عندما انهارت الصخرة على المنازل: أرض مكونة من أربعة وعشرين فدانًا بعيدًا فى صحراء القطامية. ستقتلع الشوكة المنغمسة فى جلد برجوازيى المعادى، ليتم غرزها بعيدًا.

لقد ترعرعت الفكرة منذ أن تلألأ عرض هذه الأرض الواسعة فى شمال المعادى؛ لفصل الزرايب والزبالة عن مساكن الزرَّابين، وإنشاء منطقة صناعية تضم كل المصانع المعنية بإعادة التدوير. خمسة وعشرون فدانًا: ياله من عرض يطلق العنان للخيال! لقد تفاوضوا حول بُعد مسافة المساكن. اثنا عشر كيلو مترًا. لا، عشرون، بل خمسة وعشرون كيلومترًا.

لكن بالنسبة إلى زرَّابى المقطم، تُعد القطامية بمثابة فضيحة. إنهم يتعنتون أمام فكرة النزوح إلى الصحراء، فالخنازير ليست كالجمال !بل إنها عكس الجمال.

لقد تفاقم القلق عند سكان الجبل؛ فمصيرهم يتحدد ما بين الصحراء والموت. لقد غدوا بين المطرقة والسندان.

أما من كانت لهم رؤية مستقبلية، فقد رأوا المستقبل بشكل مختلف. ففى القطامية، بعيدًا عن الصحراء، سيُسمح للخنزير بأن يعيش، وسيتمتع الحمار الذى قهرته السوزوكى بميزة نقل الزبالة من الزرايب. ففى الصحراء، ستتسلل الحياة دون تردد.

ينبغى أخذ الجو المعبأ بالحماسة الدينية فى الاعتبار.

ليس من الضرورى أن يكون المرء متدينًا كى يلحظ ذلك؛ فعلى المنازل المبنية من الأسمنت المسلح التى تم بناؤها فى طرة توجد الرموز الدينية؛ للحماية من الشر أو من الحسد. فالمسلمون يكتبون اسم الله أو آيات من القرآن الكريم. والمسيحيون يكتبون اسم يسوع أو يرسمون الصليب. أما عن شريط الفيديو الخاص بالمعجزة فيُعرض مرارًا وتكرارًا على شاشات التليفزيون.

انتشرت شائعات تُعد بمثابة صدى لهذه الرموز الدينية. لقد ملأت الجرائد، وسارت فى طرقات الجبل الصغيرة. فهناك أمير عربى يُدعى الشيخ زايد، يبدى استعداده لاستثمار مبلغ مائة وخمسين ألف مليون دولار لكى تستعيد القاهرة الفاطمية مجدها الغابر، ولتنظيف الشوارع، وإصلاح المجارى، وإنقاذ جوامع شارع المعز لدين الله الفاطمى وقصوره. وحسبما تقول الشائعة، لن يتمكن أحد من إحياء ذكرى مؤسس هذه الأسرة بجوار الزرايب.

لم ير شباب الزرّابين وجه عدم التناسق فى ذلك. فالمعز لدين الله يُشكل جزءًا من خيالهم. إنه يلعب دورًا مهما فى حكاية المعجزة. لقد اعتبروه أميرًا عادلاً، ورجلاً مؤمنًا اعتنق الديانة المسيحية سرًّا.

مائة وخمسون ألف مليون دولار. يُقال إن ذلك يتعدى ميزانية مصر السنوية، وتكاد تكفى لاكتشاف أحياء الفقراء التى تبتلع هذه الآثار...

يضيع شباب الجبل فى حساباتهم مع الصفر. فإما يضعون أصفارًا كثيرة. أو لا يضعون عددًا كافيًا من الأصفار. لا شك أن الجرائد تُخطئ فى هذا الشأن.

أرادوا أن يقيسوا ضخامة مشروع كبير كهذا.

لقد خاضوا المغامرة فى المكان الذى لم يفكر أهلهم ولا أجدادهم فى الذهاب إليه قط، إلى مدينة موتى المسلمين التى يفصلها مجرد طريق عن منشية ناصر التى تعج بالأحياء ويفوق عدد سكانها سكان الجبل.

ماذا عساهم يفعلون بكميات البشر الفقيرة التى وجدت مأواها بين الأموات؛ ماذا عساهم يفعلون ليردوا للقاهرة الفاطمية عظمتها؟ هل سيبحثون لهم عن أماكن أخرى للسكن؟ هل سيوفرون لهم الحياة؟ هل سيصيبهم من هذه الأموال بعض الملايين؟ أم أن فقرهم لا يؤذى بقدر ما تُؤذى رؤية الخنازير، تلك الحيوانات النجسة؟

ستغدو القطامية منطقة صناعية تضم المصانع الصغيرة، والزرايب، والأماكن المخصصة لفرز الزبالة. لن يحق للزرّابين السُكنى فى هذه المنطقة، وللذهاب إلى مكان عملهم لن يستغنوا عن السوزوكى. وقد اشترت يسرية سوزوكى لتؤمِّن نقل العمال من طرة

إلى القطامية. أما بالنسبة إلى الخنازير، فقد تم عمل حساب كل شيء. هناك زرايب مكوَّنة من أربعة جدران من الحجر الجيرى الأبيض بدت كخلايا الحَضَنَة المكبَّرة فى خلية النحل. تقدم مكتب يسرية بمشروع إلى المنظمة الدولية للإسكان، وربحت جائزة قدرها ثلاثون ألف دولار. سيستخدم المال لإمداد الخنازير بالمياه؛ لكى يتمكنوا من مقاومة ظروف الصحراء. كما أنه مزمع توسيع المشروع. فيوجد على بعد ستة كيلو مترات منطقة عمل عثمان.

ستزحف الحياة، ستزحف فى خضم الحياة الفوضوية، بأغنيائها وفقرائها وزرايبها وأمرائها وزبالتهم، بمصنع السماد النقى، وهذا السماد الطبيعى الذى سيجذب "المعلم" شدَّاد من عزبة النخل بالشاحنات المليئة، ليبسطه على أرض الصحراء ليجعله عرضة للشمس، وينافس بذلك سماد يسرية، الذى قال عنه: إنه مات لشدة تنقيته. ستزحف الحياة إلى أراضى الجولف الراقية . ستزحف، ومعها المرسيدس أو العربات الكارو التى تجرها الحمير المسكينة. الصحراء مترامية الأطراف، وفى تلك الساعة، تغمر المياه الصحراء.

لقد تحدثوا فى المقطم عن الموت البطىء لمصنع السماد، وتجديده فى صحراء القطامية.

يشتكى أبونان وتفرح أحلام؛ فهى تتمنى زوال مصنع السماد. وسيبسطون إذن جبل القاذورات الذى يهدد الحياة ليكوِّنوا أرضًا جيدة.

هل تتخيل أن ذكرى جهنم التى عهدت رؤيتها ستحل محلها صور الحدائق المعلقة التى تشرف على القاهرة، وأهراماتها، والألف مأذنة، وأجراس الكنائس؟

تبدو أحلام مصممة على رأيها: لن تفرز الزبالة أبدًا، ولن تعتنى أبدًا بخنازير أبونان.

لا مانع لديها من أن تتذوق لحمها. بيد أنها لن تغذيها، ولن تتحمل زبالتها أبدًا.

يوجد قبالة مبانى جمعية البيئة منزل عائلة خليل إبراهيم. وتوجد على واجهة أحد الطوابق، لوحة كبيرة لمحام. إنه مكتب محاماة أخى طلعت الكبير. هناك العديد من الزبائن لأكثر من محام فى شوارع الجبل التى تعج بالسكان. ووفقًا لرقصة التحطيب، لا يمكن أن يعيش الإخوة معًا دون قتال. فيجب ترك الأمر لفنانى المرافعات بدلاً من فنانى السلاح ليقدموا حجج الدفاع.

فى تلك السنوات التى سبقت نهاية الألفية، غمرت الأوراق مكتب طلعت إبراهيم: إنه هو وعائلته متورطون فى صراع يهدد بدمارهم. فليس العدو سوى الحكومة، والخلاف يتعلق بسعر الأرض التى بنى عليها الأب منزل العائلة. لقد قفز السعر خلال خمسة عشر عامًا من جرَّاء التضخم، وأضيفت الأصفار إلى الأصفار. إنهم يهددون الزرَّاب العجوز. فعليه دفع المبلغ وإما يصادرون ملكيته، ويهدمون منزله. البلدوزرات على الباب. سبق أن رأوهم يقومون بعملية الهدم فى الجبل. تلك الجرارات ذات الجنازير التى تسحق دون تردد جدران الأسمنت المسلح. إنهم يأخذون على محمل الجد الإنذار. لقد توغَّل الخوف إلى قاع قلوبهم.

لقد وعدهم أحد الموظفين بالتدخل، وبتأجيل التاريخ، بل حتى بتقليل مبلغ المال، وحصل على ما يستحقه نظير نيته الحسنة. وانتبه طلعت إلى أنه تم النصب عليه؛ فهو لم يدفع ماله إلا لصالح الديون التى تزايدت.

طلب العون من البرجوازيين ممن أرادوا سابقًا تسجيل حق الزرّابين في ملكية الأراضى فى سجل المساحة. فقرر منير إعادة فتح باب التفاوض بشأن هذه المسألة مع المحافظة. فى غضون ذلك، دخل الإنذار بالهدم حيز التنفيذ، وتكدست الأوراق.

غير بعيد عن هذا المكان، كان أولاد رفعت منير يواجهون المشاكل نفسها. إنهم ثلاثة أولاد سعداء تواطأوا معًا، ودفعوا بسكان القاهرة الكبرى إلى فصل الفضلات العضوية عن الفضلات الصلبة، التى من الممكن إعادة تدويرها. وقد انطلقوا فى سباق لتطوير طرة. لقد ظنوا أنهم يضيّقون عليهم الخناق، وأنهم "يجرُّون شَكَلَهم" لطردهم. سيدفعون ثمن الأرض، ديون قديمة، مهما بلغ التضخم. يتفاوض محاموهم فى الأمر، وتتكدس الأوراق.

تتوالى الأيام، وما أشبه الليلة بالبارحة. تنسج الحياة اليومية وتيرة عالم متقن التنظيم، تتكرر فيه إلى الأبد المهام نفسها. إن الأيام التى تتشابه لا يمكن أن يكون لها نهاية مفاجئة. ورغم ذلك، تظهر تلك المشاحنات بعد خمسة عشر عامًا. تلك البلدوزرات التى تعود من حين لآخر للهدم. للهدم ولتغذية القلق.

لم يعد الأمر يتعلق إذن بنقل سكان المقطم كما حدث غداة الكارثة التى أودت بحياة أربعين زرّابًا، لقد كاد الناس ينسون الحادثة.

لم يعد يذكر الناس الزلزال فى حديثهم. إن القانون غير المكتوب الذى يحظر هدم المبانى المبنية وفقًا للقواعد الفنية تتطبق على زرَّابى المقطم. لقد قاموا بالبناء وفقا لقواعد فن متواضع ويتم التفاوض بشأن تسجيل شوارعهم الصغيرة فى سجل المساحة. لقد غدت بعض المبانى تحت الجنازير المدمرة. ووفقًا لمصادر عليا، فقد حدث ذلك لدواع أمنية أو لإفساح الطريق. لقد بدا الموظفون مطمئنين.

بيد أنه ليس بوسعٍ الزرَّابين ألا يصدقوا القلق الذى يساورهم، إنهم يخشون سيرًا طويلاً، يخشون عبور صحراء جديدة.

لقد اتخذت المضايقات لدى عزت شكلاً مختلفًا. فلدى رجوعه من أمريكا، وجد أباه فى الحبس؛ لأنه فصل العداد الكهربائى. لم تُدفع فاتورة الكهرباء "المسروقة" من الحكومة التى تقدر بخمسين ألف جنيه.

صرخ عزت قائلاً: "ما حليتناش المبلغ ده".

فى أمريكا، علموه كلمات بربرية مثل "الحكمة الجماعية" و"التحرِّى الإيجابى"[1]. تدور الكلمات فى رأسه، بيد أنه لا يتمكن من

---

(1) Appreciative Inquiry (David Cooperrider – Suresh Srivasta) نظرية ومنهجية تتبعها الشركات والمنظمات الحكومية منذ التسعينيات، وهى نصبو إلى التغيير الإيجابى والإدارة المنظمة من خلال التركيز على نقاط القوة المؤدية للنجاح واكتشافها، واستخدام أدوات علم النفس الإيجابى ومبادئ التغيير الثابت. أسس هذا المفهوم الأمريكى دافيد كوبريدر وسوريش سريفاستا. (المترجمة) .

إعطائها معنى. فيؤرقه الدَّين الذى يصل إلى خمسين ألف جنيه. يؤرقه العبث.

لم يعد يرغب فى العمل، كان منوطًا به الإشراف على ورشة الورق. لقد استفاد من سفره إلى أمريكا كى يتمكن من إدارته بشكل أفضل. لكن ها هو الآن لا يشغل تفكيره سوى أبيه.

لقد عشش القلق فى قلوب السكان واستقر فيها عندما بدأ هدم مصنع السماد، عندما أعلنوا أنه يسبب التلوث.

كان لهذا النبأ وقع سيئ على الزرَّابين. فالعجائز منهم يذكرون وعود الثورة، وعدوهم بالرخاء مع تشغيل السد العالى بأسوان، ثم كان عليهم التخلى عن آمالهم. وها هم يريدون إجبارهم على التخلى مرة أخرى عن آمالهم، وعلى تحويل وعد آخر بالرخاء إلى رماد، ذاك الوعد الذى جاءت به الأخت إيمانويل. ذاك المصنع الذى جعل منهم حماة للبيئة لا يمكن أن يوصف على أنه مصدر للتلوث إلا لأسباب خفية وملتوية.

لقد تعلق زبَّالو الأخت إيمانويل بالقليل الذى يملكونه. هل لاتزال الأخت إيمانويل تهتم بمصيرهم؟

لقد لجأوا إلى أبونا سمعان.

مجرد اقترابهم من هذا المكان يخفف من حدة قلقهم. إن صور المعجزة، والموسيقى المصاحبة لها تملؤ أعينهم وآذانهم. لن يجرؤ أحد على الاقتراب من شعب أبونا سمعان، هكذا يعتقد الزبَّالون. لقد حوَّل الصحراء إلى جزء من الجنة، إلى مكان تغدو فيه كل المعجزات ممكنة. ليس بمقدور أحد أن يقتل أمل المعجزة.

لأن الصدى يردد الصدى، والجماهير تجذب الجماهير. لقد أضيف إلى مغارة السيدة العذراء مسرحٌ جديدٌ أكبر من الآخر، ليسع الجماهير من الناس التى تتزايد: الزرَّابين، والمرضى، والعميان، والمصابين بالشلل. إنه مسرح دون سقف، يلمس السماء، تعلوه كنيسة إيوانية الشكل، مزودة بقبتين وصليبين، رمز الارتباط. إنه مكان المعجزات كلها. فيما سبق، كانوا يرون تكية البكتاشية الذين اضطروا إلى الرحيل عن البلاد بعد قيام الثورة. ومن الممكن الآن تمييز أجراس الدير المتواضعة الموجودة عند حافة الزرايب، وقبالة قلعة صلاح الدين العظيم. إنهم يشيرون إلى المكان الذى يقطن فيه أمل المعجزة.

لا ينفك مكان أبونا سمعان يكبر، وزهوره تتزايد، بل هناك حدث جديد، حديقة حيوان بها قرود، يُقال بها ثلاثمائة قرد، وحمام ذو ألوان مزركشة، وطواويس، وحوض سباحة يسبح فيه الإوز. تتزايد النقوش، والفسيفساء التى تعبر عن المعجزة على كل الصخور المؤدية إلى كنيسة القديس مرقس: انتقال الجبل من مكانه، السيدة العذراء والقسيس، يسوع ومن حوله هالة النور، القديس سمعان. فى كل مكان

تنشد ذكرى المعجزة لتحمل الحياة على الامتثال لها، حتى ولو للحظة، اللحظة التى ستبرهن على حقيقتها الملموسة.

من ذا الذى يجرؤ على التعرض لمجال أبونا سمعان وشعبه؟

فقد غدا أبونا سمعان الآن القمص سمعان.

سأله ذات مرة أحد "المعلمين": "إزاى نترجم "قمص" للزوار الأجانب؟" قال له: "قلُّهم بس إنى قسيس الزبَّالين."

سيعرف قسيس الزبَّالين كيف يحمى شعبه. ليس له إلا أن يحميهم؛ إذ إن زبَّالى الأخت إيمانويل ليس لديهم ملجأ آخر.

لقد تغير شىء ما فى قلب أحلام عندما شعر أخوها ميلاد بمشاعر الحب. إنها أول من لاحظ ذلك. فى يوم من أيام الربيع، فى تقاطع من الشارع، أدهشها تبادل النظرات: ماجدة وميلاد. يرسم كل منهما ضوءًا على وجه الآخر.

كانت أحلام فى ذلك العمر الذى تُطرح فيه الأسئلة لتقييم حياتها. ماذا فعلوا بحياتها؟ كانت فى العمر الذى يقول فيه المرء إنه يكبر وهو يرفض تصديق ذلك فى قرارة نفسه.

ذاك الضوء الذى رأته يمر بين المحبين. إنها على استعداد لأن ترسم ضوءها. لقد تغيرت مشاعرها كثيرًا منذ زواجها. سنتان من المقاومة جعلت سرير الحميمية لينًا. لقد شملت زوجها بنظرة جديدة، ورأت العنف والحنان يمتزجان فى ابتسامة عينيه، وقرأت الضحكات وثورات الغضب على ثنايا فمه. لم يضعه القدر فى المجتمع الصحيح. بيد أنه إنسان جيد، يعرف كيفية اللعب بالكلمات، يمزج الوقاحة بالمزاح، ويثير احمرار وجنتيها. وفى قرب أحلام، كان يتنفس رغبة الحب.

لم تعد تدر أحلام لِمَ ظلت تدفع به بعيدًا لفترة طويلة، لأنه فقير مثلها، ولأنه لم يرد أن يتعلم القراءة؟

رأت نفسها فى الماضى كأنها إنسانة أخرى، حيوانة تزوجت حيوانًا. لم يكن ذاك الزفاف بالأمس زفافها. لم يعد هناك وجود للطفلة الحيوانة التى دفع بها أبونان إلى الزواج. وفضلاً عن ذلك فقد نضج سمير.

فى عالم الزرّابين كما فى عالم أحلام هبت العاصفة عندما طلب ميلاد يد ماجدة. رفضت والدة ماجدة؛ فهى تفضل أن "تدِّى بنتها" لابن أخيها، وأراد أبوها أن يفرض عليها زوجًا اختاره لها، وذاك الاختيار قررته والدتها التى اقترحت قريبها. لقد اختلف الجميع حول هذا الموضوع.

قال أبوها: "مش ح ادّيها لحد". لقد مُنع ميلاد من التحدث إلى ماجدة. بل حتى من الاقتراب منها.

فيما سبق، تولدت أحداث هذه القصة نفسها عن شعر مجنون ليلى، وقد تم رسم أبيات الشعر برسومات فارسية. هى تقريبًا المأساة نفسها. أب مسيطر يقرر مصير أولاده. فماجدة شأنها شأن ليلى، ستتزوج الرجل الذى اختاره أبوها لها. لا يهم ما إذا عاشت تعيسة، وإذا ما جُنَّ جنون ميلاد كجنون قيس، ذاك الأمير الأسطورى الذى كان يعشق ليلى.

لقد حفلت الجزيرة العربية بهؤلاء المجانين الذين ينشدون عشقهم الحزين. أما اليوم، فتحفل الصحارى بالبترول. بيد أن قصة مجنون ليلى تستـــمر، وتتكرر فى المقطم. هذه المرة، يُدعى الأب نمـــرود. لم تتخيل أحلام وبعدها ماجدة أنهما كانتا ليلى، بطلة الأسطورة. لم يكن قلب أحلام قد عرف الحب بعد، عندما دفعوا بها إلى الزواج. لكن قالبًا صلبًا تغطيه كلمات شعر شكّلت حياتهما، بل وحياة نساء أخريات على مدار الأجيال والقرون. لم تعرف أىٌّ منهما قصة مجنون ليلى، ومع ذلك أبدعتا نهاية جديدة لهذه القصة التى مرت عليها آلاف السنوات. عاشقة. هل أحلام تعشق سمير بعد كل هذه السنوات من الحياة المشتركة؟

كل الزيجات من حولها تدفعها إلى الندم على زواجها الحقير. إنها تود أن تعيش قصة زواجها منذ البداية؛ فإذا بها تقبل رغبة زوجها، وجاء الطفل الثالث لأحلام وسمير فى هذه الظروف الجديدة.

لأن تزايد الزيجات دفع أحلام إلى الحلم.

ست زيجات فى كنيسة واحدة فى الجبل فى يوم الخميس الذى يسبق صيام عيد الميلاد المجيد. شحاتة مجدّس "إدّى بنته" صفية إلى داود، ابن أخته روايح، و"أخد" بنت أخته روايح لابنه مدحت. انبهرت أحلام بالترف الذى صبغ الاحتفال بهذين الزفافين.

تم الزفاف فى كنيسة العذراء. تتألق الأنوار. الثياب البيضاء المصنوعة من قماش الساتان والدانتيل تضفى بريقها إلى ضوء الثريات والشموع. يتربع يسوع على القبتين بتقاطيعه الروحانية، وشعره الطويل، وعباءته. ووراءه خلفية من الصلبان القبطية تكرر أربع مرات الثالوث، والرسل الاثنا عشر. تشبه وجوه الأقارب الأربعة بشكل مثير، والتماثيل المصرية القديمة. لا يساور أحلام الشك فى وجود هذا التشابه.

لقد وجدوا فى دير تاسا وفى البدارى مقابر تعود إلى عصر ما قبل الأسرات. الأموات يغطيهم الحصير المنسوج من البوص أو متقوقعون داخل الآنية، الرأس فى اتجاه الغرب للغروب مع الشمس والشروق معها. هل عادوا إلى الحياة فى شكل هؤلاء المتزوجين الجدد؟ هل يعرف هؤلاء الأجداد ست – أخو أوزوريس التوأم.

لا تتساءل أحلام عن مثل هذه الأمور، رغم أنها شاهدت فى التليفزيون هاتين القريتين فى الأزمنة السحيقة. لربما ستتذكر ذلك فيما بعد عندما يتغلب خيالها على الريف. فى تلك الساعة هى مأخوذة بالشموع التى تدعو لها، وبرائحة البخور، وبالثوب الأبيض. كيف كان ثوبها الأبيض؟ لقد كان بإمكان عائلة زوجها أن يتركوا لها الفستان الأبيض كى تتذكر شكله. تقول أحلام "لكل من سمع": "عيلة جوزى خدت كل حاجة."

وتتساءل أحلام عن سبب ثراء أهل دير تاسا أكثر من أبيها القادم من البدارى، ثم ها هو عزت قد جاء لحضور الزفافين. تتابعه بعينيها.

ها هى زوجته صباح بدت مشرقة ومفعمة بالسعادة، ممسكة بداود – آخر مولود لهما – عزت أيضًا بدا مفعمًا بالسعادة، لربما نسى الزلزال الذى هزّ طفولته. لربما ظهر حب جديد بعد أن رُزقت صباح بولد ثانٍ، أو لعل مركزه الجديد كمدير جعله يبدو سعيدًا.

ترغب أحلام أيضًا فى أن تُرزق بولد. تقفز نظراتها من الثوب الأبيض إلى مولود صباح.

لقد رحل عزت عن زرايب المقطم. منذ أن غدت "أبلة" ليلى، الدكتورة ليلى، تعددت المشاريع الخاصة بتنظيم الزبالة؛ فمكتبها صمم مشروعًا لجنوب سيناء الذى يدرس كيفية تدبير مشكلة الخنازير. يُعد عزت مدير المشروع؛ فهو يعيش ما بين شبه الجزيرة والمقطم. عشرة

أيام فى نويبع ثم أسبوعًا مع صباح. توجد نويبع فى قلب منطقة صحراوية تنفتح على السياحة. ستحل الجمال محل الحيوانات النجسة. وسيتولى أصحابهم المتنقلون أمر الفضلات العضوية. لن تؤذى جمال القديس مار مينا مشاعر المسلمين ولا اليسوعيين، ولا أبناء حورس – رب الشمس، صاحب رأس الصقر – العدو اللدود لأخيه الرب الشمسى برأس خنزير.

يرتدى الراهب جبة سوداء اللون، وحُلة القدَّاس الطويلة حمراء اللون مزركشة بالخيوط الذهبية وبالصلبان الموجودة داخل صلبان أخرى تشع نورًا كضوء الشمس. يبارك الراهب العروسين، ويضع لهما الإكليل.

هل يجرؤ أحدهم أن يقول لأحلام إن لحم الإلاهة من الذهب كلحم إله الشمس؟ لكن لِمَ يطلب القسيس من السيدة أن تخضع لزوجها كما خضعت سارة لإبراهيم؟ تعلم أحلام أن عالمها سينهار لا محالة إن تركت الأمور بيد "راجلها". لقد شهدت حفلات زفاف أخرى كان يضحك العروسان عند سماع هذه الوصية.

لم يتمن للعروسين أن يبذرا العالم ببذور غنية؟ قالت السيدات إن كثرة الشموس تحجب النور.

لم تُرزق أم ليلى إلا ببنت واحدة، وها هى تسير بين أخواتها الثمانى اللاتى تملؤ ذرياتهن الكنيسة. أما ذرية أخيها الوحيد الذى حباه الله بالبنات والبنين – أربعة بنين وأربع بنات – فتكوِّن وحدها ثمانى

سفن من سفن نوح وسيزيد سكان العالم ثمانى مرات بفعل نثر بذورها، كذرية ابنتها ليلى - أم رزق - أم لخمسة أطفال وحبلى بالطفل السادس.

خرج العرسان من الكنيسة وركب كل عروسين منهما سيارة مرسيدس؛ لتقلهما إلى بيت الزوجية. سيارتا المرسيدس يملكهما شحاتة. قالوا لأحلام إن المرسيدس ليست بالضرورة علامة من علامات الغنى. إنها بمثابة رصيد فى البنك بالدولار. فالدولار لا يفقد قيمته كالجنيه المصرى. بيد أنها لا تصدق أى كلمة مما يقولون.

يتوالى العرسان على مذابح الجبل، ويخرج المدعوون ويدخل آخرون إلى الكنيسة. تقل الشاحنات التى تستخدم لنقل الزبالة عائلات الزرَّابين والزبَّالين من مكان إلى مكان آخر. تتقابل الشاحنات فى طريقها، تغمر الفرحة الجميع؛ يرقصون ويغنون ويقرعون الطبول. الطرقات مكتظة بالشاحنات، وتعج بالمنازل. يصعب على الشاحنات أن تسير فى طرقات الجبل الضيقة. سيأتى الحى غدًا لهدم بعض هذه المنازل؛ كى تفسح الطريق للشاحنات. لكن اليوم تنطلق الزغاريد ويستمتع الجميع بوقتهم، لأن الجو جميل، لأنهم سيأكلون ويشربون، لأنه يوجد مغن شعبى فى خيمة الرجال، لأن الضوء يعبر من خلال الطرقات المظلمة، فتضىء من جهة المغارة كل مشاهد المعجزة. تقول إن المعجزة ممكنة، ويجب أن يكون الزواج سعيدًا.

هل ستتلاقى الشاحنات فى وقت متأخر من الليل، محمَّلة بالطبول التى تُدق، والشموع الموقدة، والمناديل الملطخة بالدماء؟ كيف سيتم فضّ عذرية حفيدتى مجدِّس، وكل البنات اللاتى احتفلن بزفافهن فى كل كنائس الجبل؟ هل تذكر أحلام ليلة الدخلة؟ هل تذكر لحظة فضّ عذريتها؟ إنها متحفظة فى حديثها بِشأن هذا الموضوع. هل نسيت الذعر الذى أصابها؟

يجب أن يكون الزواج سعيدًا. بيد أن زواجها لم يكن سعيدًا.

ماجدة وأحلام... فى عمر الجمال. ستأتى ذات يوم كاميرات التليفزيون لترقب حياتهما. تريد أعين الكاميرات أن ترى هذا الجمال القاطن فى قلب الزرايب وتصوِّر حياتهما. تريد أعين الكاميرات أن تصوِّر ما لا يمكن أن يتخيله البشر: ماجدة فى منزل نظيف حول الزبالة والخنازير، وأحلام فى منزل أبيها. لا تبلغ ماجدة سوى ستة عشر عامًا، ونيفت على السابعة عشر. إنها ما زالت صغيرة على الزواج، لكن لِمَ لا تحب، وتحلم بحياة مشتركة وسط الخنازير والزبالة؟

هناك عقد صغير من الزمن يفصل هاتين الفتاتين عن الزرَّابين. عقد صغير من الزمن حدثت خلاله ثورة صغيرة. قادت جمعية المحافظة على البيئة تلك الثورة الصغيرة، إذ أرادت أن تخول السلطة للفتيات، هؤلاء العاملات اللاتى تم اختيار أكثرهن فقرًا ليقمن بالنسج على النول، وإعادة تدوير الورق. لم يعدن يرتدين زى أحلام. يبدو أن

انتزاع ملابس أحلام منهن أعطاهن الحق فى حياة جديدة مختلفة عن حياة أحلام. قمن بوضع البرامج الخاصة بهن على هيئة خطاب يرسلنه إلى الزوج المحبوب، وبطريقة غير مباشرة إلى الأب.

إنه بمثابة بيان يتضمن سبع نقاط.

"لن أتجوز قبل ما أتم ثمانى عشرة سنة".

يجب أن أعرف الرجل الذى سأتزوجه، وأن يعرفنى هو أيضًا يجب أن نقرر نوعية علاقتنا معًا والأسرة التى سنكونها وعدد الأطفال، وأهمية البنات، وحقهن فى العلم والعمل.

ليس لزوجى أن يلومنى لأنى أنجب البنات، ويجب أن يعرف أنه قد يكون هو أيضًا مسئولاً عن ذلك. يجب أن نرعى حبنا ويحترم كل منا الآخر. يجب على الرجل أن يعرف أن زوجته ليست همًّا وليست مخلوقة لإمتاعه.

نحن نرفض العادات المؤذية مثل: اختبار العُذرية وختان البنات. يجب أن يعرف الرجال نتائجهم السيئة كما عرفتها.

نقرر معًا عدد الأطفال الذين سننجبهم، ووسائل منع الحمل.

عرفنا أن علينا الإنجاب فى أول سنة من الزواج، لكن يجب أن يكون هناك فارق سنتين أو ثلاث بين كل طفل. ولا ننجب سوى طفلين أو ثلاثة على الأكثر.

أتمنى أن يشجعنى زوجى على التعليم والعمل.

لست الوحيدة المسئولة عن العائلة ولا عن تدريس الأطفال.
لازم نمشى مع بعض فى الحلوة والمُرّة.

لقد تم تعليق هذا البيان – المسمى بجواب ليلى – على جدران مركز الحى.

لم يتطرق البيان إلى الذعر الذى ينتاب الفتيات من فضّ عذريتهن.

استمرت قصة ميلاد وماجدة لمدة عامين طويلين حتى انتهت بالزواج.

تقدِّر ماجدة ما يتميز به ميلاد من صفات. تقول: "إنه راجل بتاع شغل أحسن من ابن أخت أمى اللى ما لوش لا فى التور ولا فى الطحين". حماها شبابها خلال عامين طويلين. كان أملها أن تفر من سجن العائلة وتذهب لتكتشف العالم الواسع. إن هذا العالم الواسع لم تكن تصل حدوده حتى إلى طرة حيث يعمل فريق من المتطوعين على حماية السكان من كل الشياطين والميكروبات المجتمعة. منعها أبوها من الذهاب إلى طرة.

يسكن ميلاد فى شارعها نفسه. على بُعد خطوتين من منزلها. يمثل لها ميلاد العالم الواسع. تراه وهو يمر، وتلمحه من الشرفة. بيد أن أباها يمنع عينيها من أن ترمقه بنظرة الحب، أو أن تتوجه إليه حتى بكلمة واحدة. كل الجبل يعلم بقصة حب ميلاد لماجدة. بيد أن الزواج من الأقارب هو تقليد لا يمكن إغفاله. يا لتعاسة الفتاة إذا ما وعد أبوها

قريبها بها! يصبح هنا شرف الأب فى خطر. تعرف الأخت آن مارى فتاة كادت تنتحر؛ كى لا تتزوج بقريبها.

صرخ الأب ثائرًا: " دى داست على كرامتنا!"

قال صديق الأب: "كان زمان علتنا جطّعتها حتت ورمتها للكلاب."

ليس هناك مزاح مع الشرف... شرف الزرّابين.

لم تقدّر التليفزيونات الأجنبية التى سلطت الكاميرات على الفتاتين القيمة التى يمثلها الأب؛ فلم تحكِ ماجدة عن حياتها سوى ما قويت على قوله للتليفزيون الألمانى. فهى تدرك أن العالم كله يشاهدها، كما أنها شعرت بالخجل أمام أضواء الكاميرات؛ فقامت بفرض الرقابة على كلامها. وجعلوا منها النجمة زهرة. لم تكشف عن حب ميلاد لها، فهذه الأمور لا يتم إعلانها على الملأ. لم تقل ماجدة كم تعانى السلطة الأبوية. وزوجها فى حاجة إلى معونتها للهروب من عائلته. لا تفصح عن حقيقة الأمر. وما لم تقله قط هو تلك الساعات العصيبة التى أمضتها لإقناع أبيها – وهى الفتاة الــبكر – بأن تشتــرك فى برنامج إعادة تدوير الورق. بعد شهر من الكلام المكرر جمّعت ماجدة المهام المنوطة بها. فهى تستيقظ فى الساعة الرابعة صباحًا لتقوم بتنظيف الزريبة، وتُعد الباحة لاستقبال الزبالة التى يتم جمعها فى الصباح الباكر، وتفرغها، وتفرزها، ثم تهرع فى التاسعة صباحًا إلى مركز الحى ترتدى الثياب النظيفة، وتغسل قدميها فى الفسقية، لأنها اتسخت وهى فى طريقها إلى المركز. أحيانًا لا تصل الزبالة فى موعدها؛

فتتأخر فى الذهاب إلى المركز. إنها بين فكى كماشة: أبوها من جهة، والمركز من الجهة الأخرى، يُلزمانها بقانون صارم. سمح لها المركز بالوصول فى الساعة التاسعة والنصف، لكن عليها أن تصل إلى بيتها فى تمام الساعة الثانية إلا ربع ظهرًا. إن تأخير ربع الساعة يتسبب فى حدوث مأساة، وقد يبرحها أبوها ضربًا. أما أخوها فهو مدلل، يتمتع بحماية كبيره من الأهل، ويذهب إلى المدرسة. يقولون: "قلبه تعبان". ياله من عُذر جيد! عليها مرة أخرى أن تُعد الباحة، وترافق أخاها فى جولة ثانية لجمع الزبالة؛ فكل العمل الشاق يقع على عاتق الفتاة البكر. إنهم يعصرونها إلى أن يحين زواجها لتعصرها عائلة زوجها.

لن يحدث ذلك إذا تزوجت ميلاد. إنها تحبه.

لم تقل شيئًا من ذلك للتليفزيون الألمانى. أبدافع الحياء أم خوفًا من الأب؟

فى الحقيقة، لم تهب أحلام أباها قط. قالت: "عمره ما إيده اترفعت علىّ. دايمًا بيدلعنى". ظلت تردد هذا حتى بعد وفاته، "ولكنه أثّر فى حياتى، بإرادته ولاً بإرادة الفقر؟". كان هذا تساؤل أحلام عندما وافته المنية.

لا يزال أبونان على قيد الحياة عندما هبَّت عاصفة المشاعر على عالم الزرَّابين؛ أى منفعة دفعته إلى احترام رغبة أب آخر؟ فهو يود أن يزوج ابنه، كما أن تجارة العائلة بحاجة إلى أيدٍ عاملة. لعله تمنى أن ينتهى المطاف بنمرود بالموافقة، بعد أن بلغت ابنته ماجدة

ثمانية عشر عامًا. فلعله يستفيد من مبلغ الخمسمائة جنيه الممنوحة من جمعية البيئة. فالخمسمائة جنيه هذه بمثابة الجزرة لإغراء الأهل، يحصل عليها من لا يزوج ابنته وهى صغيرة. ونمرود يعرف قيمة المال تمام المعرفة.

يحاول أبـــونان ألاَّ يكون سريع التأثر. فحقيقة الأمر أن الــمال لا يُمنح للأب بل لماجدة كى تشترى غسالة وبوتاجازًا، وما يلزمها للتخلص من الأعباء المنزلية. وخلص أبونان إلى أنه لا شك من أن نمرود سيستفيد هو أيضًا من هذا المبلغ.

وماذا يفعل ريثما تبلغ ماجدة الثامنة عشر، وتحصل على الخمسمائة جنيه؟

حتى ذلك الحين يعيش ميلاد تعيسًا. يبغى لو أن يعدوه بأن تكون ماجدة له، بيد أنهم لم يعدوه بشيء. قال له عمها: "شفتك بتكلم بت أخويا فى الشارع". رد ميلاد قائلاً: "كدب. أنا كنت بوصل لأختى نادية جواب من الجمعية". يسأل الأب الجميع ليعرف ما إذا كان ميلاد قد تحدَّث إلى أخته نادية، لكن عمها رآه بعينيه وهو يتحدث مع ماجدة.

يشهد كل من أحلام وبخيت لصالح ميلاد، وينفضون الغبار عن ذاك التحقيق التعس.

فى الوقت الذى هبت فيه عاصفة المشاعر على عالم الزرَّابين، حفلت منشية ناصر بنشاط انتخابى كبير. تمنوا لو أن يُسجل الحب فى مكان ما من برامج المرشحين للانتخابات الذين يضعون صورهم على

الجدران، وعلى الرايات الكبيرة. وتردد الميكروفونات أسماءهم فى الحارات الضيقة. ماجدة وأحلام؟ الرغبة فى الحب؟ الرغبة فى التعلم فى هذا الحى الذى يتمسك بالحياة قبل كل شيء؟ فى خضم الحملة الانتخابية؟ من سيطالب إذن بحق ماجدة وأحلام فى الحب، وفى التعليم، فى الوقت الذى تتوجه فيه الشاحنات المليئة بزبالة الزبالة إلى المقلب البعيد فى القطامية؟

تستمر حياة ماجدة زَهِرة. لقد توقف عرض الفيلم التليفزيون، ولم تُسجل البقية.

عندما أعربت لأبيها عن رغبتها فى الانضمام لبرنامج التدريب الصحى المخصص للمراهقين، أبرحها ضربًا. لم تكن الدورة سوى لمدة سبعة أشهر، مرتان فى الأسبوع من الساعة الثالثة إلى الخامسة عصرًا، وتقوم على التدريب اختصاصية نفسية متمرسة.

فى هذه المرة، تدخلت المتطوعات وتوصلن إلى حل وسط. سيقوم الأب مع ابنه بجولة جمع الزبالة مرتين فى الأسبوع.

مرت سنتان. بوسع ماجدة أن تحصل على مبلغ الخمسمائة جنيه وتتزوج. إنها تقترب من العمر الذى اقترحته السيدات: ثمانية عشر عامًا.

لم يعد أبونان ذاك الأب المتسلط، بيد أنه يعرف قوة الذهب.

لقد أرسل أولاده إلى أبو ماجدة ومعهم ثمانية أساور وقرط لها. لقد لمع الذهب بلمعان وهج شعاع الشمس، وارتسمت الابتسامة على شفتى الأب. لقد أبرم العقد.

اقترض ميلاد مبلغ ستة آلاف جنيه لفرش الشقة، ويرى زوج أحلام أن ميلاد نجح فى الحصول على سعر جيد من أصدقائه.

تزوج ماجدة وميلاد فى يوم الاحتفال بالميلاد القبطى فى السابع من يناير فى عام 1997م، وتعاهدا على الإخلاص. هناك صورة تم التقاطها تخلد تلك اللحظة الأبدية. ويمسك التاج بطرحة العروس. يزين الثوب الساتان الأبيض ياقة كبيرة بها تطريز إنجليزى. أما ذيل الثوب فمشغول بالترتر. تظهر الأيدى المغطاه بالحنة من خلال الخف المصنوع من الدانتيل الشانتيى. أما ميلاد فقد اشترى بدلة داكنة اللون، وحذاءً متيناً سيستفيد منه فيما بعد. ويرتدى قميصًا أبيض بياقة منشيَّة، ورباطة عنق ذات لون نبيتى مخططة باللونين الأبيض والأزرق، ومزينة بدبوس من الذهب. إنه يبدو وسيمًا بشنبه الرفيع. لقد فضّل بخيت أن يرتدى الملابس غير الرسمية: قميصًا أزرق مفتوح الياقة، وإيشاربًا معقودًا حول العنق. إنه صاحب الحفلات. استبدلت أحلام بثوبها الفلاحى بثوب آخر يشبهه، لكنه جديد ومطرز بالترتر.

عجَّت الكنيسة بعائلتى العروسين، فضلاً عن المؤمنين الذين يحتفلون بيوم العيد، ووضع لهما الإكليل أبونا أنطونيوس المسئول عن

كنيسة مارجرجس الرومانى. حضر أيضًا أبونا أبرام – عم العروسة – مراسم وضع الإكليل.

اصطحب المدعوون "العرسانٍ" إلى باب المنزل. تتقدم الأم والداية الموكب شأنهما شأن المرنمين عند مخرج الكنيسة. صعدوا السلالم حتى وصلوا إلى الشقة، تتقدمهما الأم والداية. إنهما تعتزمان الدخول إلى غرفة الزوجية لتشهدا فضّ العذرية.

ها هو بخيت ينفذ الخطة المحكمة التى تآمر مع ميلاد وأحلام لتنفيذها؛ ففى عرس أخيه مترى، رأى والدة العروس تخرج من غرفة الزوجية وبيدها منديل ملطخ بالدماء. لم يكن بعد سوى مراهق. لقد هزَّه الموقف، وشغل ذهنه، وتملك خياله. وعند حضوره العديد من الزيجات كان ينتظر بفضول يشوبه اللؤم هذه اللحظة التى تبرهن على فضّ العذرية. أحيانًا يُصاب بخيبة الأمل عندما لا يظهر المنديل، وأحيانًا أُخرى يثور عندما يرى المنديل وقد رفع بفخر. لقد أخذ على نفسه عهدًا أن يخرق العادات مع أخيه الصغير.

فى اللحظة الحاسمة، انطلق بخيت كالصاعقة، واتخذ طريقًا من بين المدعوين، ووقف أمام الأم والداية، وزجَّ بالعروسين فى الغرفة، وأغلق الباب بالمفتاح. أصيبت الأم بحالة من السخط لحرمانها من حقها فى ممارسة تلك العادة، وكفت عن الزغردة؛ لأنها حُرمت من حضور فضّ عذرية ماجدة. قالت الأم: "مش ححط رجلى فى بيتها أبدًا. البت الندلة!". وصارت الداية تنتحب معها. أما الناس المتدافعون على السلالم، عند مدخل العمارة بالقرب من دكان أبونان فصاروا

يعلقون؛ فبعضهم يصفق لبخيت، والبعض الآخر قرر أن يأخذ منه مفتاح الشقة عنوة. الجميع أصابتهم الصدمة من جرّاء ما فعله بخيت، بعد أن أخذت الأحداث منعطفًا سيئًا، ثم مالبث صوت الناى والطبل أن غطى على صوت البكاء والمُشادة. أُخليت السلالم ببطء. لم تعد الأم ولا الداية ملكات الحفل، بل تلقتا التعازى. ورغم ذلك فالحفلة مستمرة فى الشارع، على الطريق التى تم إخلاؤها من الكراتين المليئة بالفضلات المعدة لإعادة التدوير. هناك صفان من الكراسى، والطاولات المنخفضة تستقبل المدعوّين. الأطفال والحيوانات يعبثون، وينعمون بالحرية؛ فهم لا يفهمون سبب المأساة. تسير صوان مليئة بالشربات، والكوكاكولا، والعصائر. يمر الوقت. يختلط البكاء بالزغاريد، وبصوت النقاش العالى، ساعة، ساعتان. لا شىء، ثم ما لبث أن ظهر ميلاد ومعه منديل ملطخ بالدماء يمسك به بيديه المرفوعتين للتعبير عن النصر. اقتنص الأب الغنيمة، عرضها على الجمع، معلنًا بكل فخر: " الشرف ! واللى ربّى الشرف !".

هكذا قدّم نفسه: أبو الشرف، كما لو أن ابنته وعذريتها كانتا شخصين مختلفين، العذرية أهم بكثير من البنت.

يتم الآن التخطيط للزواج الثانى لأحلام.

زواج يتم فى هدوء، مع زوجها، لالتقاط الصورة. ليس إلا لالتقاط الصورة؛ فهى نيفت على السابعة والعشرين. فى السابعة

والعشرين ليست الفتاة بعد عجوزًا. إن الرغبة التى تختلج زوجها هى بمثابة شهادة على شبابها.

كان عليها التقاط صورة الفرح. استعار سمير بدلة سوداء وقميصًا أبيض من أخيه ورباطة عنق. استعارت أحلام الفستان الأبيض من أخت زوجها، ثم ذهب فى عجلة من أمرهما إلى المصوراتى. ارتديا الملابس خلف ستار بالٍ. أحضرت أحلام معها أدوات الماكياج وفرشاة الشعر فى منديلٍ كبير، لقد تجملت. المصوراتى يعهد هذا النوع من المواقف، وساعدهما على اتخاذ الوضع الرسمى الذى يظهر به الناس السعداء.

لقد أمضيا ليلة الدخلة فى الحميمية، دون أم ولا داية، ودون فضّ عذرية.

وضعت صورة زفافهما على جدار الصالون تحيط بها الصور المقدسة.

تود لو أن تحصل على فيديو لتسجل الأوقات السعيدة لزفافهما كما فعل ميلاد وماجدة. من الممكن أن يعيرهما بخيت آلة تصوير الفيديو، والشاشة. بيد أنه ليست هناك حفلة زفاف للزواج الثانى لأحلام وسمير. إنهما يشاهدان شريط فيديو عرس ماجدة وميلاد، ويتخيلون العرس... عرسهما.

لقد تصالح ميلاد مع حماته. ماذا قدَّم لها كي يبدو كلامه مقنعًا؟ فميلاد شاب وسيم، وحماته شابة وجميلة. سرعان ما تصالح زوج الابنة الوسيم مع حماته الجميلة. لا بد أن تحدث مثل هذه المواقف المأساوية كي تتغير رويدًا رويدًا العادات القديمة التي نجهل مصدرها. الأم الجميلة تتمتع بالذكاء. لقد فهمت أو لعلها تتظاهر بذلك كي تمارس سلطتها فيما بعد.

أما الشباب العاشق الذي يحلم بيوم زفافه، فهو يعرف كيف يتحايل على التقاليد. لقد غدا خليل مثالاً على ذلك: بعد الكنيسة، سيضعون كل المدعوين في الفلوكة. لن يدرِي أحد متى سيتم فضّ عذرية فتاتهم؟

مع مرور الزمن، صار هناك نقص في المياه، وانفجرت مواسير صرف المجاري، وتكرر انقطاع الكهرباء. فالمجاري صُممت قبل أن يزيد عدد السكان بهذا الشكل، كما أن الكهرباء كانت مصممة بحيث تناسب استخدام حي يُعد بمثابة قرية، والمياه بحيث تفي بحاجة الخنازير. أما اليوم فهناك عدد كبير من المباني والشركات الصغيرة، هناك عدد غفير من البشر، ومن الحيوانات، فضلاً عن الشاحنات. فشوارع الجبل ضيقة جدًا، ولا تسمح بمرور هذه الحيوانات الجديدة.

لا يشغل الحمير مساحة كبيرة كما كان فى الماضي؛ فقد غلبت السوزوكى الحمير.

يمسك أبونان جيدًا بزمام مركزه ودكانه المتواضع وزريبته. إنه يُعدّ الطريق أمام دكانه ليضع الأسفلت. يخيل إلينا أن أبونان تاه وسط علب الكرتون المجهّزة لإعادة التدوير، والشاحنات المحملة بالزبالة، والماعز، والذباب. بيد أن أبونان موجود هنا. يحيط به أطفاله التسعة الذين تكاثروا. ليسوا دائمًا معًا؛ فهذا الركن الصغير من الشارع الخالى من الزبالة لا يسمح بوجود عدد كبير فيه.

الحياة مستمرة عند أبونان، لا تتغير. يساعد سامح – آخر العنقود – مترى وميلاد فى تجارة العائلة؛ ففى كل صباح، يقود أحد الإخوة الثلاثة الشاحنة لجمع الزبالة من الشوارع. تفرغ إكرام وماجدة الزبالة فى باحة المنزل الكبيرة وتفرزانها، تصاحبهما الضحكات العالية لشدة الفرحة التى تغمرهما. ينظر بخيت إلى زوجتى أخويه؛ فيعتريه الخوف من عقد المقارنة مع زوجة المستقبل؛ فأى امرأة ستنسجم معهما؟

سرعان ما انضمت ماجدة إلى العمل: فرز زبالة منزل أبونان؛ فبعد أسبوعين من زواجها تكاد تظهر علامات من الحنة على يديها التى أهلكها العمل؛ إنها تفرز القمامة وهى ترتدى الذهب. لا تخلع

الذهب لتباشر العمل. فالذهب في يديها، وفي أذنيها بمثابة رصيد في البنك، في مأمن أكثر من أي مخبأ آخر. تبلغ من العمر ثمانية عشر عامًا. تتمنى لو ترزق بطفلين، ثم يكون الطفل الثالث "غلطة". فيقول ميلاد :"لأ. أربع عيال والعيِّل الخامس غلطة". بالطبع يتمنى الاثنان أن يكون الطفل الأول ولدًا، ليعطوه اسم العائلة، ويكللهما بلقب أم وأب؛ فليس من السهل تغيير الأحكام المسبقة الراسخة في عقول الناس. إنه شعور بالفرحة مختلف، يفوق الوصف، يشرق على وجهيهما. ستبيع القرط الذهب كي يدفع ميلاد نصيبه في السوزوكي الجديدة، ثم ستشتري بعد ذلك حليًّا أخرى تدفع ثمنها من مالها الذي اقتصدته.

في كل صباح، يجلس أبونان في مكانه على الدكة الأشبه بالسرير البالي، ثم يعدد لزائره هموم العائلة. لقد فتح يانِّي ورياض محل جزارة لبيع لحــم الخنزير مرتين في الأسبوع، ثم فتحا مطعمًا عند مدخل الدير. لا يبدو أن هذا المشروع يدر عليهم الربح، ولا يكتفي مترى بممارسة مهنة الزبالة. إنه يعمل أيضًا سكرتيرًا في مدرسة أطفال. لن يكون أبدًا لديه المال الكافي ليعمل بالتجارة، أنَّى لعائلته أن تعيش دون الخنازير والزبالة؟

أعدت أم نان كوبًا من الشاي، ذاك الشاي "المسكَّر" الذي يتم غليه عدة مرات. تقوم بكل ما في وسعها لتساعدهم في عملية الفرز. لقد كبرت أم نان، وذبلت. إنها تريد أن تستريح. لكن عند الصباح، هاهي ذي تتجمَّل، وتأتي لتجلس بجانب زوجها على تلك الدكة التي

تشبه السرير البالى، كما لو أنهما جالسان هكذا للأبد كالأزواج فى مقابر طيبة ممن رغبوا فى المشاركة فى عودة الشمس الأبدية. يذكر أطفالهم كلمات الحنان التى يقولها أبونان لزوجته كى يدخل إلى قلبها السعادة، ويبعد عنها برد الموت. يذكر أبونان أنه كان بعلها.

يذهب ويجيء الزبائن من كل الأعمار. يشترون كيس شيبسى أو كيس فشار، علبة تونة أو علبة سردين، لمبة فيليبس، زجاجة كوكاكولا أو سبرايت.

تسير الحياة على وتيرة بطيئة، كالهدوء الذى يسبق العاصفة، والخلود.

تلزم أم نان دائمًا الصمت. لا ندرى فيما تفكر. بوسعها أن تحكى طويلاً عما يجول بخاطرها إذا ما أرادت ذلك. نخمن ما تريد أن تقوله فى شفاهها النحيفة المزمومة، فى عينيها التى يمر بها مَرَّ الغيوم شيء من اللؤم، والتعب، والمرارة، والكثير من اليقين الذى لا تعبر عنه، ثم شمس السعادة الكبيرة، وخفة الظل. يتحدث أبونان نيابة عنها. لعل الغيوم التى تمر بعينيها ليست فقط انعكاسًا لحديث زوجها. لعلها تعنى أكثر من ذلك بكثير.

يكرر أبونان قصّ تاريخهم؛ قريتهم، وقرية أم نان، وأستراليا.

لا يزال يحلم بأستراليا.

لقد نجحت أم نان فى تحويل هذا الحلم إلى رماد.

إذا انهارت صخرة، فلربما ستنهار على حلم، حلم أستراليا.

لربما كان حلم أستراليا يتخذ شكل الصورة التى كانت عليها قريته فى الماضى عندما رحل عنها. قرية صغيرة بها بركة فى الوسط، ومنازل من الطين النيِّئ، ونخيل، وشجرة جمِّيز يتبادل الناس أطراف الحديث تحت ظلها. لم يذهب إلى قريته منذ زمن بعيد، منذ زواج أحلام.

توجد دكته فى قلب الجبل، عند ملتقى كل الشائعات. ذهب الجميع إليه لإقناعه أن مصنع السماد يسبب التلوث، وأنه سيتم هدمه لتحل محله آلة جديدة فى المنطقة الصناعية التى تبعد بضعة كيلو مترات عن طرة، بعيدًا فى صحراء القطامية. تم إعداد الأرض، وقيل له: إنه سيتم تزويدها بطين الزرايب كى يطمئنوه. يحمل أبونان همَّ إنفاق المال؛ فجزء من التكاليف يتحمله الزرَّابون، وتقريبًا ضعف التكاليف تتحملها جمعية البيئة.

آلَمَه أن يصدق تلك الشائعة. ألم تبدأ التنمية فى الجبل مع مصنع السماد؟ كان شابًّا يافعًا عندما اقترحت الأخت إيمانويل هذا المشروع. إنه يؤمن بالتطور، ذاك الفلاح القادم من الصعيد الذى يحلم بأستراليا.

قيل له انقل مكان زريبتك؛ فهزّ كتفيه كناية عن رفضه. لقد كان رائد هؤلاء الفقراء الذين زجوا بأنفسهم دون حذر إلى الجبل؛ كى لا تطردهم الحكومة مرة أخرى. لن يرغب أحد فى الاستحواذ على أرض قد تنغلق عليهم. لا أحد.

ألم يقولوا له إن هذه الأرض التى عليها دكته، ومنزله، وزريبته تزداد قيمتها وبوسعه بيعها بسعر الذهب؟ خمسمائة جنيه للمتر المربع، لكن لمن؟ لمقاولين جدد؟ أيبيع أرضًا على جبل يُقال إنه ينهار؟

لكن الحقيقة أن الجبل لا يشكل أى خطر. لِمَ يحاولون تخويفه من انهيار صخرة، ومن زبالة الجبل، ومن نهاية مصنع السماد؟

يقول زرَّابو المقطم إنهم يشكلون قوة تهابها الحكومة؛ فالحكومة تبغى القضاء عليهم؛ لأنهم متحدون، وهى تخشى هذه القوة. يقولون إن قصة انهيار الجبل ليست حقيقية؛ فحتى بعد خمسين عامًا ومائة عام وألف عام سيظل علماء الجيولوجيا يتناقشون حول هذا الأمر. ولربما سينهار الجبل؛ فكل شىء يحدث "بإرادة ربنا".

لقد عاد الجيولوجيون، وقاموا بتكسير بعض الصخور التى تهدد بالانهيار، ونصحوا الناس بعدم بناء المساكن بجانب الجُرف، ثم رحلوا.

غدا وقع الحياة أكثر بطئًا من ذى قبل، بسبب التوجس من المستقبل. من حين إلى آخر، كان يمر طفل ومعه صديقه الحمار، يجر عربة كارو مليئة بزبالة زريبته.

إنهم ينتظرون عودة زمن المعجزة.

عندما تسقط حجرة، يقولون: إن القديس سمعان يظهر لهم، وإنه مستمر فى العمل؛ فالقديس سمعان يحميهم من الشياطين، ومن الجبل أيضًا.

لايزال أبونا سمعان يبنى الكنائس، والعمارات، ويحوّل الصخرة القحلة إلى حدائق معلَّقة. يقول أبونا سمعان: "العمر بإيد ربنا، والمستقبل بتاع ربنا. الجماعة الجيولوجيين دول مش عارفين حاجة".

تستمر حياة أبونان، ولتستمر هادئة؛ فهى تتقبل التناقضات ولاتحاول البتة شرحها.

فمنذ قديم الزمان والفلاح القادم من الصعيد يبحر فى تناقضات أبدية، بين الوادى والصحراء، بين الحياة والموت. لن يحيد عن القاعدة.

تحيط به الصور المقدسة. إنها تحميه من الشر والمرض. تحميه حتى من الجبل، ومن جنون العالم. يُعد القديسون بالنسبة إلى الزرَّابين بمثابة سلم النجاة الذى ينتشلهم من زبالة الزرايب، ويحملهم إلى السماء ليعهد بهم إلى الله. حتى بخيت – الذى قام بطلاء منزله – يريد أن يملأ الجدران بالرسومات الدينية. سيرسم على جدار الصالون يسوع على مركبه يهدِّئ العاصفة، كما لو أنه يدعو تلك الصورة الرمزية لتهدئة العاصفة التى تجتاح قلب شعبه من الزرَّابين.

انتشرت شائعة هدم المصنع قبل حدوثها؛ فأثارت الفوضى، واشتعلت القلوب غضبًا، ثم ما لبث أن عاد القلق المزعج يغذيه الاحتضار البطيء لمصنع السماد المفكك المستمر فى العمل بتعثر وبضجيج آلاته.

ثم شهد الجميع – لا حول لهم ولا قوة – على موت الآلة.

لقد انهار قصر مصنوع من الورق.

دخل القانون الخاص بالتلوث حيز التنفيذ فى فصل الربيع فى عام 1998م. من تقدم بالشكوى ضد هذا الحيوان الذى يحكى بضجيج آلاته الحديد قصة كل الجبل، وزرَّابى المقطم منذ اليوم الذى اكتشفت فيه الأخت إيمانويل بؤسهم؟ هل سيعرفونه يومًا ما؟

فى فصل الخريف من هذا العام نفسه، استيقظ البرجوازيون على رائحة خانقة لعفن يحترق؛ ففى سمائهم الصافية تمر سحب من الدخان الأسود، دامت السحابة السوداء أيامًا وليالى، ودفعت بها ريح قادمة من الجنوب، دفعت بها من طريق السويس إلى الأحياء الشمالية للقاهرة الكبرى. قالوا: إنها تأتى من جرَّاء احتراق داخل مقلب عشوائى لاستغلال المكان. قالوا: إن المسئولين عن المقلب أشعلوا النيران فيه. أشارت أصابع الاتهام إلى الزرَّابين.

لم يتوقع المذنبون هبوب الرياح الجنوبية.

خلال هذه الأيام الملعونة، ارتفع معدل الإصابة بالربو، والالتهاب الرئوى الحاد، وامتلأت المستشفيات، وزاد عدد الوفيات من الأطفال. لم يكن بوسع أحد أن يحسب ما كلفته هذه السحابة السوداء لوزارة الصحة.

أدرك حينها برجوازيو المدينة أنهم محاطون بجبال من القاذورات موجودة عند كل أبواب مدينتهم. إنهم محاصرون من كل جهة من جيش قوى. ماذا ينتظرون لإنشاء محرقات ومقالب صحية؟ ماذا ينتظرون؟

فى هذا الخريف، زادت الاحتفالات لإحياء ذكرى انتصار حرب أكتوبر فى عام 1973م. مر ربع قرن على عبور القناة. إنهم الآن بصدد الحديث عن عبور جديد: العبور الاقتصادى. يقولون إن مصر

فى ثراء متزايد، وإنها غدت كديناصورات آسيا. لن تنهار مصر كما انهارت ديناصورات آسيا.

على مصر أن تلج الزمن الحديث، أن تقضى على تلوث الهواء، وتتخلَّص من زبالى الأخت إيمانويل.

عادت السحابة السوداء عشية الألفية الجديدة. عادت كثيفة. ليس هناك هواء لتبديدها. فدخلت من كل الفتحات، والأبواب، والنوافذ، وتسببت فى اتساخ الغسيل المنشور فى الشرفات. وقتلت المصابين بالربو. جاب وزير البيئة السماء بالهليكوبتر لتقفى مصدرها، واجتمع نواب البرلمان لمناقشة الموضوع فى جلستهم البرلمانية.

للهروب من تلوث المدينة الكبيرة، قدَّم المقاولون للأثرياء العديد من الأماكن فى قلب الصحراء فى مدينة 6 أكتوبر أو فى القطامية هايتس. كانت تلتف حول القاهرة الكبرى بشكل دائرى، تمر بالدائرة الأخرى الخاصة بالمقالب الهمجية، وبها ملاعب الجولف، والتنس، وحمامات السباحة الأولمبية. هناك طريق دائرى يربط بينهم وبين مركز المدينة.

لقد تحركت محافظة القاهرة، وأصدر المحافظ القانون رقم 601 لعام 1998م الذى ينص على ضرورة المقالب الصحية؛ لحماية البيئة، ولعدم المساس بجمال القاهرة. وحذَّر كل فئات الشعب من إشعال النيران للقضاء على الأشياء دون الالتزام بالقواعد الفنية. صدر هذا القانون فى الثانى من نوفمبر.

لكن أين كانت المقالب الصحية؟

يبدو السؤال غريبًا. لقد هز السؤال البرلمان الذى صوَّت لأجل تخصيص ميزانية للمقالب الصحية.

سُمعت تلك الشائعة منذ عدة سنوات، ووصلت من المدينة إلى الجبل.

يجب أن يزول زبَّالو الأخت إيمانويل كما زال السقا من ذى قبل!

لقد اعتاد هؤلاء الزبَّالون طريقة حياتهم. يقوم النساء والأطفال بفرز الزبالة، والرجال يقودون السيارات. قال المسئولون عن جمال المدينة ونظافتها : "الوضع ده مش ح يستمر كده".

هل سمع زبَّالو الأخت إيمانويل هذه الشائعة التى تصعد إلى الجبل وتنتشر؟

لقد أجريت عملية أخرى لأبونان، امتزج قلقه على صحته بالتوجس الأصمّ من المستقبل.

لدى عودته من المستشفى، غطت الأنوار الشوارع لتهنِّئه على سلامته. فى غمرة الاحتفال بقدومه، حكى أبونان بكل فخر كيف أن الجرَّاح أجرى عملية لقلبه عن طريق فتحة صغيرة فى اسفل البطن. ويرفع جلابيته ليريهم علامة المشرط. إنه التطور. كأنه سحر. يسرية دفعت تكاليف العملية. الكل يعرف ذلك الآن. لديها حساب مفتوح لكل العمليات الجراحية التى تُجرى لزرَّابى المقطم.

يسرية سيدة مؤمنة؛ فالله هو الذى يدفع هذا المال، وليست هى من تكد لأجل الزرَّابين.

لكن المشروع الذى تديره فى القطامية يثير قلق أبونان أكثر من باقى الزرَّابين. لا يدرى إلى أين تقوده سفينة يسرية؟

هل سبق له أن رأى يسرية؟ فأبونان لا يبرح دكته، ويسرية لاتخرج من مبنى جمعية البيئة. يعرف أنها دفعت له تكاليف العملية، وأنها رئيسة اللجنة الفرعية لطرة والقطامية. يسرية أم الله؟ ليت بوسعه أن يُبعد الشك، وأن يؤمن بأن يسوع لا يزال فى مركب يسرية يهدِّئ العاصفة.

نقلوا له ما يقوله أبونا سمعان عندما يعدد نعم الله. يقول هذا الرجل المقدّس:"كله بمشيئة الله". إنه مقدّس بالفعل، لكن إلى أين تأخذه إرادة الله وعمل يسرية؟

هل سترحل قبيلته إلى مكان آخر لتبحث عن نار لخبزها؟

لم يعد يأتى مجدّس لزيارة أبونان. هو الآخر يقبع إلى جانب زوجته فى غرفة مدلهمة تشبه القبر. هو وزوجته يعيدان مشهد جلوس أبونان وأم نان، أجداد شعب الزرّابين.

تعجُّ الحياة من حولهما بالحيوية لتنزعهما من الموت المستحيل، المذهل. يروح ويجيء الأطفال والأحفاد، وأولاد الأحفاد. تعمل النساء فى المطبخ، وتعد الأطباق للحفلات أو للمآتم. توضع حلل النحاس المزركشه الكبيرة على الوابور القديم الموضوع على الأرض فى صالة الشقة. يهدد مشهدها على الوابور بوقوع خطر وشيك. يجب توخى الحذر، خاصة وأن كل الأطفال يقفون حول النار التى يشعلها الأهل، والجدود، وأهل الجدود. كم حفيدًا لدى مجدّس اليوم؟ منذ عدة سنوات احتفلوا بسبوع حفيد مجدّس وأم شحاتة رقم مائة وخمسة. ما عددهم اليوم؟ يقول ابنه شحاتة بخبث. "مية وسِتة". يصحح له حفيده عزت وهو يضحك: "مية وعشرة"، ثم يضيف عزت قائلاً: "مش لازم نعدهم". لمَ؟ أخوفًا من العين؟ رغم ذلك يطفقون يعددون مآثر أبناء الزرّابين، بعضهم أعضاء فى مجلس الحى.

لقد رشح شحاتة نفسه عدة مرات للانتخابات ثم فاز بها.

قال مجدّس: "عملوه عمدة".

يجيب عزت ساخرًا: "ما بجاش فيه عمدة".

لكن مجدّس لا يزال يعيش مع ذكريات أيام شبابه فى القرية. ها هو ذا يقص مرة أخرى حكاية زواجه.

يتداركه عزت وشحاتة فيسألانه: "ألاَّ صحيح ولا مرَّة شفت ستنا قبل ما تتجوزها؟".

يحلف مجدّس مرة أخرى بأنه لم يرها قبل الزفاف قط، وتضحك العائلة بكل لطف، وتتظاهر بتصديق كلامه.

أضفى داود – آخر عنقود أولاد عزت – روحًا جديدة على ذرية مجدّس الكبيرة. لدى عزت أسباب قوية تدفعه إلى الخوف من الحسد.

ويضاعف شحاتة عدد أولاده: آخر أولاده يغمرون منزل الأجداد، كما مجموعة من القطط. كم يبلغ عدد ذرية مجدّس الذى لم يتزوج إلا امرأة واحدة؟ يقول شحاتة: "ماتعدوهومش. العينين حوالينا". ليس المرء حذرًا بما فيه الكفاية ليتفادى الحسد، وإعادة الأسئلة نفسها "شيء يعَصَّب".

يضاعف شحاتة أيضًا السيارات ومصادر ثروته.

يُقال إن شحاتة – صاحب الاسم الذى يوحى بالفقر– يملك بمفرده شركة شاحنات.

يرددون ذلك على مسامع مجدِّس لإضفاء البهجة عليه. بيد أن ذلك الأمر يثيره؛ فيصرخ قائلاً: "كدب! ما حلتناش إلا عربية واحدة عشان تنجل الزبالة".

أنَّى لنا أن نعرف الحقيقة؟ قد يكون شحاتة كإسرائيل، يملك المال الكثير رغم مظهره؛ فثيابه كثياب أى زبَّال. يركب إسرائيل المرسيدس، ونصف سكان طرة يعملون تحت إمرته. وشحاتة – ابن مجدِّس – لديه عربيتان مرسيدس.

يزيد القلق. إنهم يهدُّون فى المقطم المنازل التى تم بناؤها دون ترخيص، ويهدمون بيوتًا أخرى لإفساح الطريق. يسعى طلعت وخليل إبراهيم فى الإجراءات. لقد توصلا إلى حل مع البلدية بشأن المبلغ المفروض عليهم. طالب منير بنصوص العقد الذى تم التفاوض بمقتضاه عند البناء. سيسددون المبلغ على مدار عشر سنوات بفائدة 7 فى المائة؛ بحيث يكون السعر خمسة وستين جنيهًا للمتر المربع.

يتمنى طلعت وخليل أن يفهما منطق الأحداث. لماذا الهجرة المخططة فى حين أنهم يعملون على تقوية حقوقهم فى الملكية، وفى حين أنهم يستطيعون بيع أراضى الزرايب بأثمان جيدة؟ أى فخ يكمن وراء هذا المنطق؟

نددوا بالفضيحة، وقالوا إن عددهم يبلغ ثلاثة وعشرين ألف نسمة، لكن السلطات تقول إن هذا غير صحيح، عددهم لا يتعدى ثلاثة عشر ألف نسمة، كما لو أنه ليست هناك حاجة للتأكد من صحة الأرقام قبل استخدامها فى ميزان الحُجج.

وزادت كثافة غلاف التلوث الذى يحجب الأهرامات يومًا بعد يوم.

أنّى للمرء ألا يدعو الله، ويحتمى بالصور المقدسة، ويخشى العين إذا كانت السماء نفسها تهدده؟

لقد أغلق يانّى ورياض محل الجزارة ثم المطعم. يعمل نان ومترى فى تجارة البلاستيك، بيد أن الأمور تسوء منذ أزمة البلاد الآسيوية، وانهيار العملة، وهبوط أسعار البترول؛ فالمنافسة الخارجية شرسة. لقد هبط سعر الطن حتى وصل إلى ألف جنيه. يشتكى أبونان.

لم يعد يرغب حتى فى الحديث عن أستراليا؛ فحياة أسرته مرهونة بالزرايب.

أبونان وأم نان سيئًا المزاج؛ فإذا ما رحل كل هؤلاء الصغار الذين يحيطون بهما منذ الفجر إلى القطامية، سيبقيان بمفردهما، فى جبل تملأه الأشباح، به شوارع نظيفة خالية من الحياة.

مجدّس: حسبت العين عدد ذريته. ها هو ذا وزوجته مهددان بالبقاء وحدهما بصحبة الأشباح.

لربما تظل إحدى بنات أبونان إلى جانبه: أحلام، وتظل إحدى بنات مجدّس إلى جانبه: ليلى.

لم يخطر ببال أى منهما وهما يرقصان التحطيب منذ زمن ولّى فى أيام شبابهما، أنهما يحاكيان الحرب الأبدية بين الإخوة الأعداء، يتعاركان، يمسكان بالعصا باليد اليمنى كتهديد باللواط، أبشع الإهانات. بيد أنهما يتحركان كمصممى رقصات مهرة؟ فأجسامهما تتمايل مع صوت تقارع أسلحتهم البدائية، وجلابيبهما ينفخ فيهما الهواء، ووجهاهما العاريان يضيئان ببهجة اللعب. لن يقبل أى منهما ارتداء وجه الخنزير. كانا يرقصان للتمتع بالرقص، يشعران الآن بصداقة تربطهما بالخنازير. فى الحقيقة، إنهم يدرّون عليهما الربح.

كل الزرّابين لديهم تليفزيون فى المنزل، والكبار يتعلمون من الصغار كيفية تقليب القنوات. بوسعهم أن ينتقلوا عبر شاشة التليفزيون

إلى أماكن أخرى فى العالم، حتى إنه بإمكان أبونان أن يرى صورًا لأستراليا. لو لم تكن أعينه الهموم لاتخذت روايته أبعادًا أخرى. بإمكانه أن يتخيل مزرعة يعمل بها، هو الثور القوى الشـــاب - بعل أم نان - إنها مزرعة واسعة فى منطقة مترامية الأطراف.

ليس هناك فقط أستراليا على شاشات التلفاز، هناك حروب، ومذابح، يرى ما يفعله سكان الأرض بسكان الأرض الآخرين، إن الدماء التى تلطخ أيديهم نجسة. لمَ ينادونهم بالـــ - "خنازير"؟

يتفاوض أبونا سمعان مع الحى، ويتفاوض مع المعلمين. إنه بمثابة الشجرة ذات الظل التى يدور حولها الكلام. إنه شجرة الجميز الثابتة. تدور الآراء حوله، وتتغير مرورًا بفم كل واحد. يتم ذلك فى خلفية يسود فيها القلق الأصم. وبعد كل اجتماع، تسير الشائعات فى منازل وعشش الجبل. ماذا يقولون؟ يقولون: إن سكان القاهرة سيتعلمون كيفية فصل الزبالة إلى قسمين، وأنهم سينظفون شوارع المقطم، وأن أبونان لن يختفى بين علب الكرتون أو البلاستك المعدة لإعادة التدوير، ولا بين الشاحنات المحملة بالزبالة، والماعز، والذباب، والفئران، والعرس. يقولون أيضًا: إن الخنازير ستذهب بعيدًا، فى الصحراء البعيدة، بجانب مصنع السماد الجديد.

وماذا عن الزبالة؟ هل ستذهب أيضًا إلى الصحراء البعيدة؟ ثمانية أطنان فى اليوم، ثمانية أطنان؟ ستغدو تسعة أطنان فيما بعد... لا يقوم زبّالو الأخت إيمانويل إلا بإعادة تدوير نصفها.

كل شيء يوجد بكميات هائلة.

فى خريف عام 1998م، قدم الدكتور أيمن صورًا عَرَض من خلالها حياة الزرَّابين فى طرة؛ فهم يعيشون منفصلين عن حيواناتهم، وزبالتهم، ومصنع إعادة التدوير. سيقطعون مسافة عشرين كيلومترًا بالسيارة من مكان إقامتهم للوصول إلى مكان عملهم فى صحراء القطامية. سرعان ما تعلم السكان فصل الفضلات العضوية عن الفضلات الصلبة. ستذهب الفضلات العضوية الطازجة إلى الزرايب. أما الفضلات الصلبة فستمر على بساط ميكانيكى ليقوم العمال بفرزها وهم يرتدون القفازات.

بالنسبة إلى مشروع طرة، سيتم إنشاء مقالب صحية. لا حدَّ لميزانية مشروع طرة.

الزرايب؟ سيقل عددهما كلما زاد عدد مصانع إعادة التدوير.

لقد رحل الدكتور أيمن عن عيادته وحيواناته فى المقطم. سيغير حياة الزرَّابين فى قلب القاهرة الكبرى التى غدت كالبصلة الضخمة، فى القطامية.

تشعر الحيوانات، ويشعر زبَّالو المقطم أنه تم التخلى عنهم. لقد ماتت آلة السماد. الوقت معلَّق. لا يدر أحد ما ينوون عمله فى المنطقة. قالوا لأخى خليل – المحامى الذى يضع لوحة مكتبه أمام مصنع السماد – ألاّ يدفع سعر الأرض الذى بنى عليها أبوه منزل العائلة، لا يعلم أحد مصيره.

خلق الدكتور أيمن نموذجًا جديدًا؛ المغامرة تثيره.

يتذكر بعض كبار السن تجربة قديمة جدًا، ويقصونها. فى جونة، على ضفاف مدينة طيبة، حيث وادى الملوك، ووادى الملكات، ومعبد حتشبسوت، قام المعمارى الكبير حسن فتحى بإنشاء مجموعة من المنازل. قال إنه أنشأها للشعب، مع الشعب. أراد أن يفصل سكان جونة عن حيواناتهم وعن المقابر التى يسكنونها للتنقيب عن الآثار. بيد أن التجربة باءت بالفشل؛ فقد رفض الفلاحون الابتعاد عن حيواناتهم: لايزالون يسكنون المقابر.

فالحيوانات هى رأسمالهم، حتى إن قيمتهم تتجاوز قيمة أولادهم. أما المقابر، فهى بمثابة منبع للثروات.

هل سيذهب سكان المقطم للعمل فى منطقة صناعية كالقطامية؟

استشاط أولاد الجبل غضبًا. أسيذهبون للقطامية لإطعام الخنازير، وفرز الزبالة، ونقل طين الزرايب؟!

لم تبد أحلام متأثرة بذلك. إنها تذكر أيام السوزوكى، عندما كان أبوها يشتكى.

لم تخش كالآخرين شبح الهجرة. إنها واثقة؛ فقد أكدت لها المتطوعات أنه لن يهاجر أطفال الجبل. ستغدو المقطم منطقة صناعية.

ستذهب الزبالة، والزرايب، ومصانع إعادة التدوير إلى الصحراء. أما فى المقطم، فسيتم تطوير صناعات نظيفة، سيدمرون كل ما يسبب التلوث.

استشاط الزرّابون غضبًا.

هل قستم المسافة من هنا إلى القطامية. إنها ثلاثة وثلاثون كيلومترًا. الطريق بسيطة. وماذا عن النساء؟ كيف سيتم نقلهن؟ هل يقبلن قضاء اليوم فى الطرقات، بعيدًا عن المنزل والأطفال؟

الأغنياء لديهم سيارات وهواتف نقّالة، لكن ماذا عساهم يفعلون، هؤلاء الفقراء؟ ما مصيرهم؟ مهمشون؟ إرهابيون؟

قال الدكتور أيمن : "مافيش قدامهم إلا أنهم يبيعوا أرض الزرايب ويستثمروا فى مكان تانى".

وماذا عمن ليس لديهم زريبة؟ ومن ليس لديهم سوى عربة كارو محملة بالزبالة؟

تعد أحلام نفسها من بين الفقراء، رغم أنها تبتهج بمشاريع المستقبل الكبيرة وبنجاح يسرية.

تشعر بالفخر مرتين؛ لأنها تعمل، ولأنها تحررت من مصير بنات الزرَّابين.

ذلك أن مشروع الشيخ زايد – أمير الإمارات – سـ "يروقها". تتخيل القاهرة الفاطمية – درة الثقافة الإسلامية – بعد ترميمها؛ فتراها جنة. ترى من شرفتها الصخرة الجيرية. إنها تبدو من أعلى الزرايب. جميلة ومجرَّدة من كل شيء.

ثم تجول بنظرها إلى الأسفل، فتمر نظراتها بالزبالة، وسحاب الدخان المنبعث من المنازل الذى يخنق الجـو، ويخنق زوجهـا الذى لا يكف عن أخذ جرعات الكورتيزون. ترى أختها الكبيرة نادية وهى تفرز الزبالة فى منزل زوجها. إنها تشم ليلاً ونهارًا الغازات المنبعثة من باحة الجيران. سينقلون مكان الماسورة بأمر من الحكومة؛ فأحلام تعرف هؤلاء المتطوعات تمام المعرفة، يقلقهن مصير الزرَّابين. إنها تعرف مارى ويسرية؛ فيسرية لديها نفوذ. إنها نائبة فى البرلمان، كما أنها عضو فى اللجنة المعنية بالبيئة، ستقضى يسرية على كل هذا التلوث، لم تتخل يسرية قط عن المقطم.

لا تبلغ أحلام سوى ثلاثين عامًا، ولا تشك مطلقًا فى سلطتهن؛ فستتمكَّن من القضاء على التلوث فى المقطم، كما أن أبونا سمعان

طلب تدخل منير نعمة الله لتنظيم هجرة الخنازير والزبالة إلى الصحراء المترامية فى القطامية.

ما من شخص يسمع بهجة أحلام التى تعزفها بمفردها عكس كورال البكاء الذى يتردد من حولها، إلا ويشك أنها تعرف سر الآلهة. فى الحقيقة، إنها تبنى مستقبلها على أرض صلبة، إرث حماها، بضعة أمتار مربعة فى قلب جبل المقطم.

غدت أحلام وريثة عشية الألفية الجديدة.

عندما لفظ حموها أنفاسه الأخيرة، خُيِّل إليها أن هذا النفس الأخير ينتزع الصخرة التى تسد قبر ليلها، وأنها تولد من جديد، كبزوغ شمس جديدة.

لكن فى الوقت نفسه، اصطدم خيالها بالواقع، بالأسطورة الأبدية للإخوة الأعداء، هى إحدى القصص الأكثر شيوعًا؛ فقد تعارك الإخوة مرة أخرى بسبب الإرث.

لدى سمير ثلاثة إخوة صبيان وبنتان؛ فيحق لأحلام أن تطالب بربع الثروة. بما أن البنات يُحتسبن بنصف ولد. بيد أنها تعرف أن سمير ضعيف. ليس بإمكانه أن يخوض الحرب الأبدية للإخوة. فتسلمت الراية. لقد تصدت لهم كما فعلت آنفًا مع ذئاب المنزل التى اشتهت جسدها. هناك الأرض، والمنزل، والذهب، ومائة وثمانون ألف جنيه، مبلغ يكفى لبناء عمارة. ساورها الشك فى أن يكون إخوة سمير قد سرقوا المال؛ لأنهم كانوا يعيشون فى المنزل نفسه مع أبيهم المتوفى. وإلا كيف تفسر اختفاء الذهب والمال؟ يبقى الأرض والمنزل، طالبت مقابل نصيبها فى المنزل، نصف الأرض الخالية. بيد أن الإخوة قالوا: "مالكيش حَج فى البيت"، بل وصل بهم الأمر إلى مطالبتها بجزء من المنزل الذى تسكن فيه. لجأت إلى "طنت" إيزيس لطلب العون؛

فدلّتها على أخيها المحامى. لقد استحى الورثة من أن يتدخل البورجوازيون فى خلافاتهم، فحلوا الأمر فيما بينهم، باللجوء إلى حيلة: يوقع سمير الأوراق ثم يرون ما مصير الفتيات فيما بعد.

لم توافق أحلام:"لازم البنات يمضوا كمان. لحسن تاكلوا حجهم وينجلبوا علينا."

- "ماحدش سألك رأيك. إنت وليَّة وجوزك عايش".

- أنا وليَّة آه، بس عايزة حَجى. افرضوا بجَى إنى بجيت أرملة ولازم أوكِّل بناتى التلاتة وأجيب لهم جهاز، وأستّتهم.

قالت ذلك لأنها تحمل هَمّ جهاز بناتها، رغم أنها لا تكف عن إلقاء اللوم على أبيها لأنه زوَّجها.

- بس إنت مش أرملة دلوجيت.

- طب إيه رأيكو بجَى، اتصرفوا معايا كأنى راجل العيلة.

قالت ذلك، ولم تخش أن توصف بالوقاحة.

فقذفوها بسباب زوجها:

بتعايرى جوزك بإنه مَرَة !

أيوة أنا الراجل وهو مَرَة. عاجبكو ولاّ ما عجبكوش؟

تدخلت العائلات فى الخلاف. وجاء أهل زوجات الإخوة من دير تاسا. أحدهم خادم لدى قسيس الزبَّالين. سلَّط الخادم أبونا سمعان على أحلام. ولام أبونا سمعان أحلام على انشغال عقلها وقلبها بالأمور الدنيوية، ومنعها من المناولة. أثار ذلك حفيظة أحلام: "هى خيرات الدنيا مش برضه جزء من الحياة؟"

لقد ناولها أبونا أبرام.

ثم عهدت بملف القضية إلى ماما سعاد؛ فلديها قناعة راسخة بأن امرأة ستحكم أفضل من الرجل.

حدث ذلك فى يوم جميل من أيام الربيع المشرقة. أول ربيع فى الألفية الجديدة. لقد ربحت الجولة الأولى. ربحت مئة متر مربع، على وجه التحديد تسعين مترًا مربعًا. إنها قطعة صغيرة تشهد على الزمن الذى لم تكن فيه سوى حيوان، وتلقى معاملة الحيوان من عائلة زوجها.

وطفقت تحلم، وتتعجَّل حدوث تغيُّر جذرى فى حياتها.

يفصل حائط بين قطعتى الأرض. هناك قطعة أصغر من الأخرى. هناك أبواب من الحديد بها متاريس تحيط بهما. لفتح المتاريس، ترفع أحلام جلبابها وتقفز بخفة ماعز الجبل فوق سور صغير من الحجر بارتفاع ما يقرب من مئة متر. أحد البابين أمامه

أرض واسعة، مليئة بالخردة، وعجل الكاوتش، والعلب المحفوظة. إنها تذكر الأيام التى عاشتها هنا سابقا. والباب الآخر أمامه فتحة مظلمة كانت فيما سبق دكانًا، ترقص آلاف المشاريع فى مخيلة أحلام، فتمحو الذكريات السيئة.

تذهب لرؤية ملكيتها مرتين أو ثلاثة فى اليوم الواحد، بيد أن أحلامها تتحول إلى كوابيس عندما تفكر أنه ليس بحوزتها أوراق رسمية تثبت ملكيتها.

أحلام وريثة دون أوراق! لم يدفع حموها قط ثمن الأرض، بل أخذها لأنه أول من وضع يده عليها. تتمنى لو تحصل على قرض لتقوم بالمغامرة، لكنها اكتشفت أنه ليس هناك بنك يقرض وريثة أرض لا تملك أوراقها، وتكتشف أنها ليست مالكة حقيقية للأرض؛ فالدولة لها حقها فى هذا الجزء من إرثها. قد تكون الدولة أو أى محتل يفوقها قوة، من الممكن أن يكون لهما حق وضع اليد. عليها إذن أن تحتلها كى لا يأتى أحد ويمكث هنا مكانها. إنها على استعداد لأن تعسكر هنا أيامًا وليالٍى إذا ما استدعى الأمر ذلك.

تقرر إذن أن تبيع الجزء الأصغر؛ كى تستثمر فى القطعة الأخرى التى تكبرها أضعافًا؛ فإذا بأحد الإخوة يرغب فى الدكان. إنه الأخ نفسه الذى كان يساندها ضد عائلة زوجها. إنه يُرهب كل مشترٍ على استعداد لدفع مبلغ كبير لشرائها. ربحت أحلام الحرب التى خاضتها ضد أحد الإخوة لتخوض بعدها حربًا أخرى مع أخٍ آخر. هل

يغدو صديق أمس عدو اليوم؛ لأنها حصلت من السماء على نعمة صغيرة؟ ثارت أحلام.

لذا استشاط أبونان غضبًا.

صرخ فى وجه الأخ: "إديها حَجَّها. كفاية العذاب اللى شافته بسببى".

وامتثل الأخ لإرادة الأب.

-

لا يتبقى سوى التصدى للسلطات؛ فهناك شائعات جديدة تنتشر. إنهم يتحدثون عن تخطيط شامل بشأن الجبل. لا تفهم أحلام تمامًا معنى ذلك.

لم يعنها منير نعمة الله، لقد جاء مع كل ما جمع من قوة مع مستشارى مكتبه لتنظيم هجرة الخنازير والزبالة. إن "ملكية" أحلام الموجودة فى آخر شارع الفرن، لا تدخل ضمن مجال مسئوليته؛ فهو مسئول عن الزرايب فقط؛ فأرضها تتبع مجلس الحى.

فى بادئ الأمر، هابت الذهاب إلى الحى؛ فبالنسبة إلى هؤلاء الناس الذين انتخبهم الشعب، لا يمثل لهم الشعب شيئًا. ستظل دائمًا ابنة زرَّاب فى أعينهم. ستقف فى الطابور كى يعاونها أحدهم، طابور لا ينتهى. سيقولون لها: "تعالى بكرة، تعالى بعد شهر، بعد سنة، ليلة موتك".

ثم ما تلبث أن تدرك الميزة التى تتمتع بها. ستذهب بصحبة "طنت" أو تذهب بمفردها بعد أن توصى عليها إحداهن. عليها أن

تعرف ما إذا كان سيتم نهب "ملكيتها" فى خضم مشاريع تخطيط المنطقة.

عندما خرجت من الحى، لم يكن لديها سوى شكوك تغذى طموحاتها.

قالوا لها: "لسه ما صممناش على حاجة".

ستكون الهجرة للخنازير والزبالة والصناعات المسببة للتلوث.

وماذا عن الزرّابين؟

كم من الوقت ستظل شكوكها؟

اسمها أحلام، وأحلامها تسكن جبل المقطم. إنها تعرف كل أهل المقطم؛ فهم إما قادمون من البدارى – كوالدها – أو من دير تاسا – كوالدتها – أو من قرى مجاورة. جميعهم قادمون من أسيوط.

لا تقبل أن تهددها الهجرة كما تهدد الآخرين، تلك الهجرة لا تُعد هجرة أسطورية، بل هى أشبه بالشتات.

تريد أن تبنى أحلامها على جبل المقطم. تريد أن تملأ دكانها بكل المنتجات التى تراها فى التلفزيون، بكل ما رأته فى شقة مارى. لا يهم إذا بنت قصرها من أوهامٍ. اسمها أحلام. إنها عبارة عن أحلام، عن أنوار القمر الخافتة. كانت تُدعى نور، ستنفجر فى ضوء النهار.

من ضمن أحلامها، تحلم بأن تعود إلى الدراسة لتتمكن من المواجهة. ستدخل الإعدادية، سواء رضى زوجها أم أبى. ستتعلم فك رموز الكلمات والحروف، والغوص فى داخل أسرارها، يجب أن تتعلم جيدًا؛ كى تصبح تاجرة ماهرة.

تقول: "شايفة أنا صابرة إزاى يا طنت؟"

يجب التقاط صورة لتلك الشابة الوريثة التى تذهب بصحبة بناتها الثلاث فى يوم الأحد إلى مغارة أبونا سمعان. يشبه المنديل المعقود على رأسها تاج الملوك. يسير بخيت وسمير فى تشريفة لها، والعائلة تتبعها. الجميع يتبعها عدا أبونان وأم نان الجالسان على الدكة شأنهما شأن أزواج قدماء المصريين، جالسين للأبد.

تتقدم بكل فخر، وتدرك أنها ستغدو مثالاً يُحتذى، ستغدو أفضل من عزت. ستطيح بخيال شعبها كله.

فى يوم الخميس من نهاية الألفية، أُعلنت الصلاة، وأُعلن الاحتفال بالقديس سمعان. فى الصباح، أخرج أبونا الشياطين، ثم غاب فى تأمل عميق قبل أن يمتطى الحمار – كيسوع فى القدس – فى طريقه إلى المسرح الكبير المفتوح على السماء حيث تعرض المسرحيات التراجيدية، تراجيديا يسوع، وتراجيديا شعب الزبّالين الباحثين عن المعجزة. إن قوته تفوق قوة صلاح الدين صاحب تلك القلعة التى تظهر فى الجهة الأخرى من الطريق، قبالة الجبل. تنتظره

الحشود القادمة من كل حدب وصوب. تدعو أحلام بحماسة، بينما تغط بناتها فى سبات عميق.

تضفى عليها الصلاة شعورًا بالشمولية، وتقوى يقينها فى المستقبل.

لا يثير الجبل الواقف المتوعد قلقها.

تتمتم فى نفسها:" الجبل مش ح يجع إلا بأمر ربنا".

ثم جاءت صور التليفزيون لتنافس صور المعجزة؛ فالإعلانات تلوّن أيامها. أرسلت إحدى بناتها لشراء شريط الفيديو الحافل بمشاهد المعجزة. سيدفعها إلى الإيمان، عندما تغدو بمفردها بين أربعة جدران. إنه الإيمان بحدوث المعجزة، بأن أحلامها التى تغذيها إعلانات التليفزيون ستتحقق يومًا ما.

تهيم أحلام، وتولِّد أحلامًا أخرى. تتأثر بأحلام أخى زوجها المستلهمة من التليفزيون.

لقد سمع أخو زوج أحلام بحضارة البدارى ودير تاسا التى تعود إلى العصر النيوليتى؛ فقد رأى على شاشة التليفزيون التنقيب الذى قام به علماء المصريات الألمان. لا شك أن هناك كنوزًا تختبئ تحت منازلهم التى رحلوا عنها. هل سيتمكنون من طرد المحتلِّين الجدد؟ يهيم خيال أخى الزوج، ويأخذ معه خيال أحلام. إنهما يريدان تصديق قصة ذاك الكنز المخبأ. يريدان أن يؤمنا به كإيمانهما بالشهداء والمعجزات.

لكنهما بحاجة إلى المال لبناء المستقبل! سيحفران تحت الأسوار القديمة للأرض الصلبة وسيجدان الذهب. لا، بل سيجدان ما هو أفضل من الذهب، سيجدان إحدى تلك الآنية الحمراء من الفخار ذات الجوانب السوداء التى رآها أخو زوج أحلام فى التليفزيون. إنها ثمينة كالآثار التى تم نهبها من متحف بغداد. يعرف زوج نادية ما تخبئه أرضه، ولا يريد أن ينبس ببنت شفة، كى لا تعرف السلطات بأمره. سلطات لصوص. لماذا حلم أبونان بأستراليا وقراهم زاخرة بالثروات؟

لمَ على الهجرة أن تتجه نحو الصحراء بدلاً من الوادى؟

لمَ الهجرة وليست العودة؟ أليسوا قادمين من الربى الخضراء الخصبة، من وادى النيل القديم الذى لا يزال ينبض بكنوزه؟

يقولون فى القرية: "مصر بعيدة للى يروحها بالحمار الأعرج". أبعد من ذلك هضاب ومرتفعات البدارى لزبَّالى المقطم المساكين.

يقول زوج نادية: "إلا لو جه جن وساعدنا".

يحلم الجميع، فى انتظار الهجرة، الهجرة الأبدية.

هذا الحلم أكثر الأحلام جنونًا. إذا تطلب الأمر الرحيل عن الجبل مع الخنازير والزبالة؛ فلم لا يفكرون فى العودة إلى القرية؟

يلمع خيالهم، كلمعان حَبات الشامبانيا العتيقة.

لقد توالت الأشهر، والمواسم مليئة بالشكوك. ذهب مجدّس ليلقى أجداده. لم يحضر الاحتفال بالأعراس التى زادت من عدد ذريته.

ثم جاء الدور على أبونان.

يبدو أن أبونان يعيش شبابًا جديدًا. بدا مشرقًا وهو يحاسب نفسه. طلب العفو من أم نان؛ فلم يستطع أن يسهل عليها أمور الحياة. طلب العفو من أحلام؛ لأنه زوّجها رغمًا عنها. وعبَّر عن الأسى الذى يشعر به بسبب تركه لابنه بخيت دون أن تكون له زوجة. نادى كل ولد من أولاده، وتأكد من وجود كل واحد منهم، وانتظر حضور ابنه الكبير.

لقد وصل ابنه الكبير نان. ولفظ أبونان أنفاسه الأخيرة. كما لو أن أبونان – أوزوريس – ينتظر نان – حورس – ليوارى جسده التراب، وليضمن له العودة الأبدية إلى الحياة.

بدت دكته خالية، كفراغ كبير وسط الزرايب المكتظة. لا تملؤ أم نان هذا الفراغ. إنها تهتم بالدكان. يشترى المارة أشياء صغيرة. يجلس أولادها وأحفادها تحت قدميها فى شكل دائرة، يتقاسمون الطعام حول الطبلية. لقد اشترى أولاد أبونان يوم زفافهم غرفة طعام على الطراز الغربى. بيد أنهم يفضلون الطبلية، كما أن هناك الملاعق والشوك، لكن قطعة من الخبز "يغمسونه" فى طبق الفول العائلى يفى

بالغرض. تأكل أم نان قليلاً، وتتكلم كثيرًا كما لو أنها أرادت أن تعوض سنوات الصمت؛ فدومًا كان أبونان يتحدث على لسانها. من الآن فصاعدًا، ستتحدث على لسانه، ستتحدث عنه، وعن أولادها.

إنها تبدو قصيرة القامة، نحيفة، وتملؤ التجاعيد وجهها. لا يمكن أن تملأ الفراغ الذى تركه أبونان. فى عهد أبونان كانت جميلة. قال لها أبونان: "الجمال راح فين؟ الحياة الصعبة اللى عيِّشتهالك خطفته ولاإيه؟" تذكر قبيلة أبونان كلمات هذا البعل العجوز. الآن، تحوم حولها زوجة مترى الجميلة، وميلاد وسامح. لم تعد ماجدة تلقى بالاً لشكوى والدتها وطلبات أبيها. لقد أصبحت اليوم فى حزب أبونان، أمًا لطفلين – بنت وولد – ياسمين وسمعان "عز الطلب".

إنهم كُثْر أحفاد أبونان. لن نتوقع عدَّهم خوفًا من الحسد.

فى صباح ذات يوم، حفلت عناوين الجرائد بصرخة انتصار: هل ستغدو القاهرة بين المدن الأكثر نظافة فى العالم؟

لقد وقعت محافظة القاهرة عقودًا مع شركات أجنبية لتعتنى بنظافة العاصمة وجمالها. سيتم تقسيم القاهرة إلى أربع مناطق. ستأتى الشركات من إسبانيا وإيطاليا وسويسرا. ستلتهم كل واحدة منهن ربع ثروة الزرَّابين، تم توقيع العقود.

لقد خاضت الإسكندرية التجربة؛ فلم لا تخضها القاهرة؟

لقد اكتشفوا أن الشركة المعنية بنظافة الإسكندرية وجمالها تلقى بالزبالة فى الصحراء؛ مما أدى إلى ظهور مرض جديد لا يعرفون له اسمًا. لقد نددوا بالفضيحة بيد أن هذا التنديد باتت تخف حدته رويدًا رويدًا مأخوذًا بحماسة برجوازيى القاهرة لقيام الشركات الأجنبية بتنظيف العاصمة. إنها الوسيلة الوحيدة التى تتيح لهم التخلص أخيرًا من زبَّالى الأخت إيمانويل.

لقد فتحت أحلام لتوها متجرها. إنه محل متواضع، لكنها تبغى تحقيق ثروة. لقد باعت نصف الأرض بــ 25000 جنيه. وصرفت 9000 جنيه لإخلاء الجزء الآخر، وها هى تبنى عمارتها بالمال المتبقى معها.

إن المتجر الذى أنشأته يكاد يكون مختلفًا بعض الشىء عن دكان والدها، كما أنه بعيد كل البعد عن محل أحلامها. يجب تسلق عدة حجارة عالية للوصول إليه وللولوج إلى المنزل. لم يعد سمير يعمل

بالخشب خشية اشتداد أزمات الربو؛ فهو يبيع أكر الأبواب والنوافذ، ويصلح عربات الزبَّالين الكارُّو. ووضعت ألواح الخشب فى المحل الخلفى. كما يوجد فى المحل الخلفى أشلاء أحلامها: حظيرة، بط، دجاج، إوز. ليس هناك مكان للبقرة الحلوب. فوق عشرين درجة سلم دون درابزين، توجد شقة العائلة المبنية بالطوب الأحمر، كأنها معلقة فى الهواء على "بير السلم". لقد استغرقت بعض الوقت لتجمع المال اللازم لإدخال المياه. ذهبوا لأشهر طويلة للاستحمام فى الدير. يتملكهم الخجل وهم يخرجون متسخين من منزلهم ويعودون نظفاء. نظرات الجيران تلاحقهم؛ فهم يرون أمامهم دائمًا نظرات الجيران. يسيل الماء بوفرة الآن، وحيث يعتلى الفرن عرشه، ستوضع غسالة الملابس. عندما يتوفر لديها المال.

توجد عمارتها بقرب مغارة أبونا سمعان، لكن منذ اليوم الذى عاتبها أبونا سمعان على تعلقها بأمور الدنيا وهى تراه معاديًا لها. طلبت النصيحة من قسيسين آخرين. أحدهم قال لأحلام: "سيبى الأمور على مجراها. كله بإرادة ربنا". قال لها: إن الرب سيعطيها ما تتمناه. تعانى أحلام داء السكرى. قالت للقسيس إنها مصابة بالسكر، وبدَّد القسيس مخاوفها.

لقد وقعت فى الفخ. لم تقاوم الحمل الجديد؛ فليس لزوجها سوى ثلاث بنات، كما أنه لن يجد من يواريه التراب، ويضمن له الرجوع إلى الحياة إن لم يرزق سوى بثلاث بنات. فضلاً على ذلك، فهى لا تتنازل عن الولد. تشعر بحطة قدرها؛ لأنها لا تنجب سوى البنات. إنها

تفهم ما تعنيه "طنت" و"أبلة"، للبنات قيمة الأولاد نفسها، بل أكثر. حتى من بين الفراعنة أنفسهم كان هناك نساء، حتشبسوت[1] على سبيل المثال. تفهم أحلام ما يقولونه لها، لكن تفهمه بجزء من عقلها. أما الجزء الآخر فيفكر وفقًا للأحكام المسبقة. إنها تتأرجح بين عقليتين: العقلية القديمة، والعقلية الجديدة. ليست القيمة سوى فى الفرع الذكورى من العائلة. إن رغبتها فى الولد تختبئ وراء رغبة زوجها. أنَّى لها أن تقاوم هذه الرغبة؟

أما طموحاتها الأخرى فمعلَّقة ريثما تنتهى مدة الحمل، لكن عليها أن توجد فى المحل. تود ابنتها الثانية كريستين أن تساعدها. بيد أن الابنة الصغيرة إيزيس شقية، كما كانت أم نان فى صغرها، أما ابنتها الكبيرة مارى، فهى تشعر بجمالها، وتترفع عن الوقوف فى الدكان خلف الواجهة. إنها جميلة بالفعل وتضطرم بداخلها الثورة ضد بحر الفقر الذى يحيط بها من كل جانب. ليس بوسع أحلام أن تعتمد على مساعدتهن؛ فالبنات الثلاث يذهبن إلى المدرسة.

ظنت لبعض من الوقت أن سمير سيحل محلها خلال فترة الحمل. بيد أن ما قام به سمير هو أنه أفرغ ما فى أرفف المحل، ولم يضع بضاعة جديدة. ماذا فعل بالمال؟ لقد صرفه على تكاليف أعباء المنزل. لم ترد أحلام أن تغضب منه. لقد أغلقت على ما تبقى فى

---

(1) لمزيد من التفاصيل راجع: فوزية أسعد: حتشبسوت المرأة الفرعون. ترجمة ماهر جويجاتى، المشروع القومى للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، 2003. (المترجمة) .

المحل بالمتراس. هى وحدها فقط بوسعها أن تدير تجارتها، ومنزلها. أما الرجال فيخوضون الحروب. والنساء يدرن المنزل... والبلاد أيضًا. كانت هذه هى الحال فى أفريقيا التقليدية، وفى مصر الفرعونية. ففرعون يذهب إلى الحرب، وزوجته الملكة تمكث فى البلاد، تدير الاقتصاد، وتدير السلام. وعندما اعتلت امرأة عرش البلاد وصارت فرعونًا، كانت أمور البلاد تسير بشكل جيد، ولم تحدث حرب. فأحلام، بكل بساطة، تنحدر من سلالة قدماء المصريين، تجهل حياتها السابقة. إنها فقيرة لكنها جميلة!

لعلها نسيت القليل الذى تعلمته من القراءة والكتابة. مازالت تحتفظ بالكلمات التى نجحت يومًا ما فى فك رموزها. إنها تخرج من الكتب الدراسية لبناتها لتتربع على قلبها، وتنير نظراتها. تذهب بناتها الثلاث إلى المدرسة. مارى فى الصف الثانوى فى مدرسة السادات، وكريستين ما زالت فى الإعدادية فى مدرسة المروان. تتمنى أحلام لو تضعها فى مدرسة تاسونى سارة، لكن إمكانياتها لا تسمح بذلك. قالت أحلام : "عملت الأخت إيمانويل مشروع المدرسة دية عشان أولاد الزرّابين الفُجرا. الأخت إيمانويل بتحب الفُجرا. وآدى مدرستها كبرت عشان الزرّابين الأغنياء بس. ماكانش ده مشروع الأخت إيمانويل".

تمنت لو أن الأخت إيمانويل تعود، لكنها فى الجهة الأخرى من البحر. فى "كايان"، ذاك المكان الذى تلوذ إليه فى مقاطعة الفار[1]،

---

(1) توجد فى منطقة بروفانس ألب كوت دازور فى فرنسا. (المترجمة) .

بعيدًا جدًّا عن مسكنها الصغير فى المقطم. إنها تعلم أن الأخت إيمانويل؛ حيث توجد فى جنوب فرنسا ما زالت وقد نيفت على أربعة وتسعين عامًا تتكلم باسم فقراء الأرض. بيد أن ملايين اليوروهات والدولارات لم تعد تذهب فقط إلى الزبّالين؛ فالفقر منتشر فى بقاع العالم. تتجه أنظار الأخت إيمانويل إلى السودان، وبوركينا فاسو، ولبنان، وللمتسكعين بدون مأوى...وماذا عن زبّاليكِ يا أخت إيمانويل؟ وماذا عن مدرستك؟ تلك المدرسة التى لم يعد بمقدور أحلام إلحاق بناتها بها، يا أخت إيمانويل!

فى الحقيقة، لن تفى مدرسة تاسونى سارة بطموحات أحلام؛ فهى لا تصل إلى الثانوية العامة، ولا يُدرس فيها سوى المهن. أما أحلام فتريد أن تضمن لبناتها دخول الجامعة.

تحمى بناتها الثلاث فى انتظار الطفل الرابع، وتستفيد من ماكينة الخياطة. وتجمِّع قصاصات من القماش لتخيط منها أغطية مختلفة الأشكال والألوان. ستبيعهم فى الجمعية. لربما ستجمع يومًا ما قصاصات حلمها لتعمل منها قصة حياتها.

فى شهر يناير، قطعت الأخت إيمانويل خلوتها لتزور زبّاليها الغاليين على قلبها. لم ترها أحلام، كانت تعانى آلام الحمل.

لن يستسلم الزرّابون. لقد اشتكوا بعض الوقت، ثم قاوموا بعد ذلك.

هناك النموذج الذى تمثله يسرية فى المقطم؛ لأنها حققت مشروعها. وضع أهل طرة رأسمالهم فى القطامية، وتبعوها فى كل يوم لينجح المشروع. لقد غدت طرة منطقة صناعية. إن طموح يسرية يفوق مجرد القيام بإعادة التدوير؛ فهى تقوم أيضًا بتصنيع الآلات التى تعمل على إعادة تدوير البلاستك، والورق، والألومنيوم، والأشرطة الميكانيكية الطويلة التى تمر عليها القاذورات أمام الزبَّالين فيقومون بفرزها وفقًا للاحتياجات...

لم تعد التجربة فى بداياتها. فيسرية تعين عاملين فى الدعاية. فإعادة التدوير هو شغلها الشاغل: هناك محطات انتقالية لفرز الزبالة تفتح الأبواب لزبَّالى الريف. فى طابا، وفى الفيوم، وعلى ضفاف البحر الأحمر، فى الجونة، ونويبع، وعلى أبواب القاهرة، فى القليوبية، وأبو زعبل، تفتتح سيدة مصر الأولى أو يسرية أو الاثنتان معًا هذه المحطات الانتقالية. وانتشر الخبر فى الجرائد، والإذاعة، وقنوات التلفاز.

تمثل تجربة يسرية أملاً؛ فبفضلها لربما سيتم إنقاذ ربع ثروة الزرّابين.

يتفاوض أبونا سمعان أيضًا من جهته ليوسع عملية الإنقاذ. يطرحون عليه سؤالاً: "أبونا سمعان، إنت جمَّعت شعب بحاله. إزاى ح تدير مستقبله؟ يقول كعادته: "الرب ح يتكفل بيهم". وإذا ما أصروا

يجيب: " صلوا وصوموا"، لكنه يرسل سفيره – المعلم إسحاق – الذى يعرف قوام السلطة. فيذهب لرؤية أعضاء البرلمان الذين يثق بهم؛ لأن شعب الزرّابين أصبح لديه ممثلون فى مجلس الشعب. أصدرت الجرائد والإذاعة والتلفزيون أنباء نتائج المفاوضات الجارية.

حدثت ضجة كبيرة فى عالم الزرّابين.

البعض يقول إن يسرية هى السبب؛ فهى تسلمت الراية بعد الأخت إيمانويل التى قامت بدعايتها الرنّانة، وجذبت انتباه العالم إلى سكان الجبل. كانوا يعيشون فقراء، لكن فى الخفاء، بعيدًا عن العين، وعن جشع الأجانب.

البعض يقول إن المثال الذى قدمته يسرية يُعد بمثابة الفرصة الوحيدة للاحتفاظ برأس مال قيم.

لقد جعل الخطر الذى تمثله الشركات الأجنبية مشاعر أحلام تتعاطف مع الخنازير، والزرايب، وسكان دير تاسا. إنها تخشى الفقر، وتتساءل عن مستقبل أطفالها. ليست تساؤلاتها إلا صدى لهموم أم نان التى تتساءل هى الأخرى عن مستقبل أطفالها وأحفادها.

لم تعد أحلام، على عكس أبيها، تفرح لما كان يشعره بالأسى؛ فالمشروع الذى سيفقر أغنياء الزبّالين سيحرمها من مال الأغنياء، ومن الزبائن الفقراء. فحظيرتها تتغذى من زبالة العائلة؛ فهى قليلاً ما تشترى بعض البذور لتحسين نظامهم الغذائى. أنّى لها أن تجد هذا

الغذاء المجانى؟ زوجها يصلح عربات كارو الزرَّابين. فبدون الزرَّابين لا مجال لإصلاح عربات الكارو. وماذا عساه يكون مصير مدرسة تاسونى سارة، والأخت إيمانويل، عندما تستولى الشركات الأجنبية على رأس مال الزبالة؟ اتحدت الأمهات الشابات اللاتى لا تزلن تعتمدن على ما يدره إعادة التدوير من ثروات، وقمن بتنظيم الجمعيات، واستعرن المال من بعضهن البعض لدفع المصاريف الدراسية باهظة الثمن، حتى بالنسبة إلى من بمقدورهن دفع المال.

لم تعد تجرؤ أحلام على تخطيط مشاريع للمستقبل.

وتقترح الشركات على الزرَّابين وظائف للعمل، بيد أن فكرة الحصول على أجر لا تشجعهم؛ فالأجر زهيد لا يزيد على ثلاثمائة أو خمسمائة جنيه. ففى الزبالة، من الممكن العثور على قطعة مجوهرات، أو حافظة نقود. تزخر الزبالة بالثروات، بينما الورقة المالية لا تخفى إلا هوان قيمتها. ولأول مرة تفصح عائلة أبونان عما تدره شاحنة الزبالة: ألفا جنيه فى الشهر؛ أى يتجاوز ثلاث مرات مجموع أجرين.

فجأة بدا لها عزت فقيرًا ومجرَّدًا من كل شىء. حتى عشية أمس كانت أحلام تسخر من زوجته صباح؛ فصباح قلقة بشأن صحته، وضغطه، وقلبه الضعيف. واستمرت أحلام فى صب جام غضبها عليهما، وقالت فى نفسها: "أكيد جاله الضغط العالى من كتر الفلوس.

ده مدير، مدير فرع التنمية. وصباح بتروح تشترى بضاعة ولا أربع تالاف جنيه عشان تبيعها تانى".

إنهم يسامحون أحلام على الكلام الشرير الذى تتفوه به، ويقولون: إن الفقر لن يجعل منها إرهابية.

أدركت أحلام أن عائلة عزت تجردت من زرايبها، وزبالتها؛ فهى ليست أفضل حالاً من عائلتها القادمة من البدارى. حتى الواحية سيصيبهم الفقر إذا لم يتم التصدى للخطر الذى تشكله الشركات الأجنبية.

بيد أن الخطر كامن هنا، إنه وشيك، ويشعر الزرّابون بقدومه، كالجيش الطامع فى الاستحواذ على ثرواتهم، تلك الثروات التى تضاهى قيمتها بالنسبة إليهم قيمة البترول بالنسبة للقوات العظمى. تشاهد أحلام على شاشة التليفزيون غزو القوات الإنجليزية والأمريكية لبغداد، وتتخيل زحف المصفحات الأجنبية على الجبل للاستيلاء على زبالته ثم تخلفه وراءها فقيرًا ومجروحًا، ومجرّدًا من كل شىء.

هل كان من الأفضل لهم أن يعيشوا فى الخفاء؟ فالأخت إيمانويل ويسرية ألقتا عليهم الأضواء. لا يمكن أن يحملا عليهم؛ فقد أثبتا لهم أنه ما من حرب بين الفقراء والأغنياء. لقد ناضلت يسرية من أجل شعب الزرّابين، ولن تنساهم الراهبة البلجيكية.

تحب أحلام أن تظهر كنوزها: شهادة محو الأمية التى تخفيها بعناية عن عيون زوجها، وصورة للأخت إيمانويل تفخر أنها بحوزتها. وهى تعلم أنه لن يعارض أحد في وسطها هذا الكنز؛ فلديها العديد من الكنوز: صورتها وتحيط بها المتطوعات عندما شرحت لزوار الشرف كيفية إعادة تدوير الورق بتحويله إلى خليط، وضغطه، وتجفيفه، وعمل بطاقات للمعايدة بعيد الميلاد المجيد، بها رسومات أخيها بخيت. كانت أحلام تطرز بيديها البطاقات.

تحب أحلام أن تقصّ حكاية النجاح الساحق الذى حققه أطفال رفعت منير. إنها تقصها ببلاغة فائقة تعبِّر عنها الصورة الحية. بإمكان هذا النجاح أن يشمل كل الأنشطة التى يمارسها شعب الزرَّابين، لو كانوا فقط ساندوهم !

تفخر أحلام بما يمكن أن ينجزه الزرَّابون. إنها تطرح الأسئلة، وتبحث عن الإجابة: لِم لا يعطون الفرصة للأجيال الجديدة كى تطور من مهنة إعادة التدوير؟ فبدلاً من أن يحرموهم من رأس مالهم، لم لا يساعدونهم فى إدارته؟

على أحلام أن تتحمل المسئولية لتحقق ما تبقى من أشلاء حلمها: عَلِم بناتها أنها أبيَّة، تتحدى الفقر وتبدى استعدادها الدائم بالتصدى له طويلاً.

إنها تغامر أحيانًا فى منطقة مصنع السماد الذى قضى أجله منذ وقت طويل؛ فظهرت فى مكانه حديقة نباتية، يزرعون فيها أشجار مصر القديمة التى أهملوها لأزمنة طويلة. يزرع مايز وهو ابن زرّاب فى مشتله شجرة الجميز التى كانت ترمز فيما سبق إلى الإلاهة، وشجرة التوت التى تأكل دودة القز أوراقها، والتمر هندى، والبلح الذى تشتهر به واحة سيوة. تمتد الأشجار وأوراقها على مساحة كبيرة مهملة، ستكبر الأشجار، وتكوِّن غابة واسعة. يقول الفنان الذى صمم هذه الجنة: "دى المعجزة الأبدية. السنة اللى فاتت، زرعنا فرعًا طويلاً وآدى النهاردة بجى عندنا شجرة".

إنه يشهد آلاف المعجزات، ويشهد المعجزة الأبدية للربيع الخالد.

ما الفرق بين اندهاشه واندهاش المصريين القدماء؟ إنه يضيف إلى كلماته، اسم الصليب، ومعجزة الصليب. هل يجرؤ أحدهم أن يقول له إن مفتاح الحياة، ذاك الصليب الذى استخدمه المصريون القدماء لقياس مستوى مياه الفيضان، يمثِّل المعجزة نفسها، معجزة النهضة المتجددة؟

أى نهضة لشعب الزرّابين؟

رسمت أحلام الصليب بطوب ذِى ألوان مختلفة على واجهة منزلها. وإذا بها ترسم هلالاً فوق الصليب، دون أن تنتبه إلى ذلك. يعرف الجميع منزلها من خلال هذا الرسم : رمز الإسلام يقبّل رمز المسيحية، كما عهد الثوار القدامى رسمه على أعلامهم للمناداة بالحرية

والديمقراطية ورحيل الإنجليز تحت عباءة حزب الوفد، لكن لا يجب قول ذلك لأحلام؛ لأنها مسيحية من رأسها إلى أخمص قدميها.

فى منزلها الجديد، لم يعد هناك صور ليسوع المصلوب، بل ملأت صور العذراء - وهى تحمل طفلها - الجدران، تحيط تلك الصور بصورة زفافها الثانى.

لقد أحاطت أحلام نفسها بكل صور الحياة.

أى معجزة تتمنى؟ ولد؟ بنت "بشنب" كحتشبسوت التى ارتدت لحية، لحية اصطناعية؟

المؤلفة فى سطور:

فوزية أسعد

حاصلة على الدكتوراه فى الآداب، قسم الفلسفة، من جامعة السوربون. وعملت مدرسًا لفترة من الزمن بجامعة عين شمس. وهى روائية مصرية تكتب باللغة الفرنسية، وتعيش فى چنيف منذ حوالى ثلاثين عامًا. حصلت مرتين على جائزة جمعية كتّاب چنيف، وعلى جائزة البحر المتوسط. وصدر لها العديد من البحوث والروايات بالفرنسية؛ أولاها رواية "المصرية" عن دار النشر ميركور دى فرانس فى باريس (1975)، وأصدرت دار الهلال الترجمة العربية فى عام 1997م، ثم تلتها مجموعة من الروايات منها: "بيت الأقصر الكبير" فى عام (1992)، وصدرت الترجمة العربية عن المجلس الأعلى للثقافة فى عام 2004م. كما صدر عن المجلس الأعلى للثقافة ترجمة "حتشبسوت: المرأة الفرعون" لماهر جويجاتى، تصدير بهاء طاهر (2003)، وستعيد قريبًا إعادة نشر أول كتاب لها فى دار المعارف سنة 1961م "سرين كيركيجورد أبو الوجودية". وهى عضو اللجنة التنظيمية لقصر "لافينى" فى سويسرا؛ حيث يتم استضافة الكتّاب والمفكرين، وهى تمثل القلم الدولى فى مجلس الأمم المتحدة لحقوق الإنسان.

الموقع الإلكترونى للمؤلفة:

http//www.arabworldbooks.com/authors/fawzia_assaad.html

المترجمة فى سطور:

ديما شعيب الحسينى

حاصلة على الماجستير والدكتوراه من جامعة السوربون – باريس فى الأدب الفرنسى المقارن. تعمل حاليًا مدرسًا بكلية اللغات التطبيقية بالجامعة الفرنسية فى مصر. وهى أيضًا عضو مجلس إدارة الجمعية المصرية للأدب المقارن، وعضو الجمعية الدولية للأدب المقارن. وتكتب "دوريات فرنسية" فى مجلة فصول. كما نُشرت لها دراسة فى مجلة مقارنات: "أحمد شوقى وفيكتور هوجو: دراسة شعرية مقارنة" (2002). نشرت لها ترجمة إلى الفرنسية "عودة البصر إلى الضيف الأعمى" تأليف الدكتور : أحمد عتمان دار النشر لارماتان L'Harmattan فى باريس(2005). وشاركت فى مؤتمر المدرسة العليا للمترجمين والمترجمين الفوريين فى باريس ESIT (2007) بورقة عمل عن الترجمة الأدبية.

التصحيح اللغوى: وجيه فاروق
الإشـــراف الفنى: حسن كـــامل



أحلام وقمامة القاهرة

تعرض فوزية أسعد فى روايتها لوضع الزبالين فى جبل المقطم، وتنقل حكاياتهم كما قصوها عليها. إنها رواية تجمع بين الواقع المرير والحلم الجميل. أحلام – بطلة الرواية – طفلة صغيرة تجسد آمال الزرابين و طموحاتهم. تدغدغ خيالها الجامح آمال لا جدوى من التطلع إليها! أنى لها أن تتعلم فى المدرسة وقد أحكم الأب سيطرته عليها و كرسها لفرز الزبالة ثم الزواج؟ بيد أنها تحلم وتحلم ثم تحلم؛ لتحلم أكثر فأكثر! شأنها شأن بنات جيلها، أجريت لها عملية الختان ثم تزوجت رجلاً فقيراً مثلها لم يشاركها الرغبة فى التعلم. وباتت أحلامها أسيرة خيالها. وما إن ظهرت الأخت إيمانويل حتى لاح لها ولكل بنات جيلها ومن تبعهن أمل جديد. إنها ترمى إلى النهوض بهذه الفئة المهمشة و الخروج بها من غياهب الجهل وقذارة الزبالة إلى نور العلم والعمل فى مجال إعادة التدوير. هل تغيرت أوضاعهم؟ هل تحسنت؟ لا جرم أن هناك نبضاً جديداً، وبصيصاً من الأمل بدا يلوح فى الأفق البعيد؛ فجبل المقطم الذى يسكنونه يمدهم بالمعجزة... معجزة الحلم... معجزة السعادة.



الإبداع القصصى

تصميم الغلاف: شريف مكى